

عميد كلية دار العلوم  
بجامعة القاهرة

# في النفس والعقل لسيف الأغر يق والاسلام

الطبعة الثالثة

ملتزمة الطبع والنشر  
مكتبة الأنجلو المصرية

اهداءات ٢٠٠٢

أد/ السيد محمد بدوي

الاسكندرية

رَبِّتُورِ مُحَمَّدٍ قَاسِمٌ

عميد كلية دار العلوم  
بجامعة القاهرة

# فِي النَّفْسِ وَالْعَقْلِ لِفِلسَافَةِ الْإِغْرِيْقِ وَالْإِسْلَامِ

الطبعة الثالثة

ملتزمة الطبع والنشر  
مكتبة الأنجلو المصرية  
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً)

مطبعة خيمرت ٤٧١٩٣

# بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

## مقدمة

لقد شغلت مسألة النفس تفكير الإنسانية منذ عصورها الأولى ، وما برحت تحتل مكان الصدارة في البحوث الفلسفية والعلمية في عصرنا الحاضر . وكان الإغريق أكثر الناس اهتماماً بهذا النوع من الدراسات . ذلك أنهم اتجهوا أول الأمر يحاولون فهم الكون ، فلما رأوا عجزهم عن إدراك أسرارها جنحوا إلى دراسة النفس لهمم يجدون في معرفتها سبيلاً إلى معرفة ما عداها .

كان هذا هو رأي سقراط بصفة خاصة . فقد جزم أنه لن يتاح للمرء أن يحيط بشيء علماً إلا إذا بدأ بمعرفة أقرب الأشياء إليه وأجدرها بعنايته ، وهو نفسه . ولذا رأى أن يحيا كفيلسوف لا هم له إلا البحث عن حقيقة نفسه . ونفوس الآخرين ، ولو كرهوا . فإن أسوأ أدواء الإنسان الغرور الذي قد يدعوه إلى اعتقاد أنه يعلم كل شيء ، مع أنه لم يؤت من العلم شيئاً مذكوراً .

وقدر لرسالة سقراط أن تؤتي ثمارها ، فحمل أفلاطون لواءها ، فشرع يفسر آراء أستاذه ، ويكملها فيما يمس طبيعة النفس وخلودها . فساق الأساطير التي تقرب حقيقتها إلى خيالنا ، وكان لبراهينه على خلود النفس أثر كبير في توجيه الفلافة من بعده . ويمكن القول بأنه كان أباً لنوع خاص من التصوف ؛ لأنه كان يرى أن المرء لن يستطيع معرفة نفسه حقاً إلا إذا نظر إليها وقد استطاعت التحرر من الأدران والشروخ التي لحقتها بسبب اتصالها بالبدن .

ولكن الدراسات النفسية انجهدت من بعده اتجاهاً أقرب إلى روح العلم منه

إلى روح التصوف . ذلك أن أرسطو رغب عن البحث في أصل النفس ومصيرها ،  
وآثر أن يعالج وظائفها من حركة وإحساس وخيال وإدراك . ثم عى مفكرو  
الإغريق بفسير آرائه . غير أنهم اختلفوا في ذلك اختلافاً كبيراً ، ويرجع ذلك  
الخلاف إلى أنه ترك كثيراً من المسائل الغامضة المعلقة .

ولما اطلع المسلمون والمسيحيون على التراث الإغريقي أعجبوا به إعجاباً شديداً ،  
وبخاصة بما كتبه أرسطو عن النفس . ومن الثابت أنهم أخذوا عنه جل آرائه .  
فيها . لكنهم وجدوا لديهم آراء أخرى لا تتفق مع عقائد دينهم فطفقوا يوفقون  
بينها وبين هذه العقائد . وليس بصحيح أن فلاسفة الإسلام كانوا مجرد نقله  
للفلسفة الإغريقية ، أو أنهم لم ينجحوا إلا في تشويهها . حقاً إن الفارابي كان  
عابراً الجدل في محاولة التوفيق بينها وبين الإسلام لكن ابن سينا استطاع أن ينشئ  
مذهباً جديداً في النفس . كذلك وفق أبو الوليد بن رشد في الجمع بين آراء أرسطو  
وابن سينا ، فجاء بمذهب مبتكر كان له تأثير بعيد المدى في تفكير مسيحي  
القرن الوسطى .

وهكذا أخذ فلاسفة الإسلام عن أرسطو تعريفه للنفس ؛ بيد أنهم خالفوه  
في مسائل كثيرة . فقالوا إن النفس جوهر روحي لا يقنى بفناء البدن . وربما كان  
الفارابي أقل هؤلاء الفلاسفة حظاً في التغلب على الصعوبات التي أثارها مذهب  
أرسطو . كذلك كان هذا الفيلسوف سبباً في جنوح من جاء بعده إلى رأى غريب  
يتلخص في أن النفوس الإنسانية تفيض من آخر العقول السماوية أو الملائكة .  
ويرجع السبب في ذلك إلى تأثيره بإحدى نظريات الأفلاطونية الحديثة ، وهي نظرية  
الصدور أو الفيض . وقد أخذ عن أفلاطون فكرة التصوف العقلي ، فقال مثله  
بأن المعرفة الحققة سبيل إلى خلاص النفس من سجنها ، حتى تستطيع العودة  
إلى عالمها الذي هبطت منه .

ويعد ابن سينا إمام فلاسفة الإسلام ، والمسيحية أيضا ؛ في مسألة النفس .  
ومما لا شك فيه أنه أخذ كثيراً من الآراء عن الفارابي ، غير أنه فاقه في دراستها  
من الناحيتين الفلسفية والعلمية . ولابن سينا منهج يشبه منهج سقراط في البرهنة  
على وجود النفس . ولم يكن الغزالي ، على الرغم من عنف الخصومة بينه وبين  
سابقه من مفكرى الإسلام ، إلا مقلداً<sup>(١)</sup> ، أما ابن رشد فقد فسر آراء  
أرسطو على نحو يدينها من الآراء الدينية . ومع ذلك لم يسلم مذهبه من التشويه  
والازدراء ، فرماه بعض الباحثين بأنه كان أشد الشراح تعصباً لأرسطو .  
وقال آخرون إن آراءه في النفس تافهة متداعية . وذهبت جماعة أخرى إلى رميه  
بالإلحاد والتمويه ، مع أنه كان أقرب فلاسفة الإسلام إلى تعاليم هذا الدين الحنيف .  
وقد أتيج لنا أن نقف على مدى انتفاع بعض المسيحيين بآرائه . ورأينا كيف  
بلغ العقوق بهؤلاء مبلغاً ؛ فانتحلوا جل هذه الآراء ، ولم يتورعوا عن أن  
ينسبوا إليه البدع والأباطيل التي كان يدين بها الملحدون من نبي ملتهم .

كذلك أخذ فلاسفة الإسلام عن أرسطو رأيه الخاص بوحدة النفس  
الإنسانية . فقالوا مثله بأن لكل بدن نفساً تخصه ، وإن تعددت مظاهرها أو وظائفها .  
ومع ذلك فقد ذهب الفارابي وابن سينا والغزالي وابن باجه وابن طفيل  
مذهباً غريباً حين فصلوا عن النفس إحدى وظائفها ، وهي التي يطلق عليها  
أرسطو اسم العقل الفعال . أما ابن رشد فقد فسر أرسطو في هذه المسألة تفسيراً  
مبتكراً ؛ وذلك لأنه قال إن طبيعة النفس جوهر عاقل أو عقل فعال ، وإن  
وظائفها الأخرى لم تنشأ إلا بسبب اتصالها بالبدن . لكنه لم يكن أسعد حظاً

---

(١) تبدو أفكار فلسفة ابن سينا والفارابي واضحة في فكرة الغزالي عن النفس ونظرية المعرفة ،  
وعلى الرغم من أن الغزالي وفق في الجمع بين العقل والدين فإنه لم يتحرر من نظرية الفيض تماماً ،  
وهذا ما أشرنا إليه في بحث ألبينا في مهرجان الإمام الغزالي بدمشق في سنة ١٩٦١ .

منه فيما مضى. فرماه مؤرخو الفلسفة والمستشرقون بأنه لم يأت بجديد، وأنه المسئول عن البدعة القائلة بأن جميع أفراد البشر يشتركون في نفس واحدة وعقل واحد .  
كذلك خالف ابن رشد أرسطو وابن سينا في تحديد الصلة بين النفس والجسم ؛ فقال إنه ليس من الممكن أن تؤلف النفس مع الجسم جوهرًا واحدًا كما كان يقول الأول، أو أن يكون اتصالها به اتصالاً عرضياً كما قال الآخر ؛ بل هو اتصال من نوع خاص يصدق على الأفهام ، لأنها لم تتصل به إلا لعناية إلهية ، وهي أن تبلغ كلهما بسببه .

أما فيما عيس الخلود فكان فلاسفة الإسلام أفلاطونيّ النزعة ؛ فقد وجدوا أن آراء أرسطو لا تتيح لهم تقرير بقاء النفوس بعد الموت . . غير أن الفارابي خرج على هذا الإجماع ، فقال إن الخلود للنوع ، لا للأفراد . وكان النزاع مقلداً في هذه المسألة كما حدثه في كثير من المسائل الأخرى ؛ فأخذ عن ابن سينا براهينه على الخلود وحججه على بطلان النفس السكلية . وذكر ابن رشد أنه من أنصار بقاء النفوس الفردية . غير أن خصومه لم يكونوا عدولاً معه ، فرموه بالتملق والاستخفاف بعقلية الجماهير (١) .

ولما لم تكن الفلسفة المشائية صريحة في تحديد طبيعة العقل فقد اختلف شراح أرسطو في تفسيرها . فذهب الإسكندر إلى التفرقة بين العقل المادى والعقل الفعال ، وقال إن الأول فان وإن الثاني هو الإله الذى يتمثل فى نفوس البشر . وخالفه تيمستليس ، فقال بأن العقل الفعال آخر وظائف النفس ، ولكنه أكد أنه مشترك بين أفراد النوع الإنسانى . وقد تأثر الفارابى بهذين الشارحين ، فقال إن العقل الفعال كلى وخارج عن النفوس الإنسانية . وتبعه فى ذلك جل

---

(١) أنظر كتابنا « الفيلسوف المعتزى عليه ابن رشد » ضمن سلسلة فى الدراسات الفلسفية والأخلاقية .

فلاسفة الإسلام ، ففسروا المعرفة بأنها نوع من الفيض أو الإشراق ، وسلكوا سبيله في التصوف . أما ابن رشد فقد استطاع التحرر من آراء سابقيه ، فوضع نظرية جديدة في المعرفة ، وانتهى إلى القول بوجود ما يسميه الحدس العقلي ، وهو أن تدرك النفس ذاتها . ولم تسلم آراؤه هذه من التشويه . ومن الثابت أن أحد أعلام الفكر المسيحي ، ونعنى به توماس الأكويني فهم هذه الآراء إلى حد كبير ؛ بيد أنه آثر أن ينسب إلى الفيلسوف المسلم نظرية الاتصال الصوفي بالعالم الإلهي .

وبقى أن نشير إلى منهجنا في هذا الكتاب . فقد رأينا أن نفرد الفصلين الأولين لآراء سقراط وأفلاطون في النفس ، وأن نجتمع في الفصول الأخرى بين أرسطو وفلاسفة الإسلام . وكانت طبيعة البحث هي التي أملت علينا هذا المنهج ، وذلك لأن مفكرى الإسلام حرصوا كل الحرص على الانتساب إلى الفلسفة الأرسطوطاليسية .

وإنى لأرجو أن يحقق هذا الكتاب الغرض الذى وضعت من أجله ، وهو إلقاء ضوء على بعض المسائل الغامضة في الفلسفة الإسلامية ، وبيان ما لحقها من تشويه ، ومدى تأثيرها في اتجاه التفسير المسيحي .

محمود قاسم

٢٧ أكتوبر سنة ١٩٦٢

« لو لم تكن النفس خالدة لما بد لنا الظلم أمراً سريعاً ،  
ولو جب أن ينظر المرء بعين الرثاء والإشفاق إلى هؤلاء  
الذين يقاسون الفقر والجهل وجميع صنوف العذاب في هذه  
الحياة الدنيا من أجل الفضيلة والعدل . ولو كان حقاً أن  
الإنسان يفنى جسداً وروحاً لما كان أسعد طالع الأشرار  
حين يدركهم الموت ، إذ سوف يتحررون حينئذ من أجسامهم  
ونفوسهم وشورهم أيضاً » .

أفهم طوره

# الفصل الأول

## عبقرية سقراط

١ - تمهيد

لقد تنكر سقراط لمجتمعه ، ورجب عن أساليب الشعور والسلوك المألوفة في عصره حين أخذ يضع الأسس لنوع جديد من التفكير لم يكن للإغريق به عهد من قبل ، ونريد به الفلسفة الإنسانية التي ما زالت تتسع آفاقها ، وتتعدد نواحيها ، وتبدو آثارها واضحة جلية حتى انتهت إلى ما هي عليه في وقتنا الحاضر من الخصوبة والعمق . وكان شأنه في ذلك شأن كل عبقرية فذة تخرج على الناس ، بين حين وحين ، فتفجأهم وتثير حفاظهم فيهبون لمقاومتها ، ثم لا تلبث أن تبهرهم بروعتها وعمقها ، فيتبعوها صاغرين ، ويألفوها إلفاً شديداً حتى ليخيل إليهم أنها من صنعهم ، وأنها تعبر عن آرائهم وعقائدهم ، ويمجبون كيف قبولت ، في أول أمرها ، بمثل هذا الجحود والاستنكار .

وليس من اليسير في شيء أن يفهم المرء عظمة سقراط ومجديده إلا إذا علم كيف استطاع أن يضرب صفحاً عن آراء سابقيه ومعاصريه لكي يفتح أمام التفكير البشري باباً ظل مغلقاً ومحجوباً بالأسرار دهوراً طويلة . فإن الإغريق وجهوا عنايتهم قبل سقراط إلى الطبيعة يحاولون الكشف عن أسرارها والوقوف على الأصل أو المبدأ الأول الذي خرجت منه جميع الظواهر المادية التي تقع تحت بصريهم وسمعهم ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى . فكانت جماعة منهم إن الكون - بكل ما يحتوي عليه - نشأ من أصل واحد . ثم اختلفت هذه

الجماعة فيما بينها . فقال فريق : إن الماء هو مصدر كل شيء<sup>(١)</sup> . وقال فريق آخر : بل هو مادة لا نهاية لها في كمها وصفاتها<sup>(٢)</sup> . وذهب فريق ثالث إلى أن الهواء هو المادة الأولى<sup>(٣)</sup> . وجزم آخرون بأن النار منبع الحياة والوجود<sup>(٤)</sup> . ورأت جماعة أخرى أن الظواهر الكثيرة التي يبعج بها الكون لا تأتي إلا من كثرة مثلها . ثم اختلف أتباع هذا الرأي في تفسير الكثرة، فقال بعضهم : إن الكون يتألف من الأعداد<sup>(٥)</sup> . وقال بعضهم : بل يتركب من الماء والهواء والنار والتراب<sup>(٦)</sup> . ورأى آخرون أن هذا الأصل ليس في الحقيقة إلا عدداً لا نهاية له من الفترات التي تجتمع على ضروب شتى فتنشأ عنها مختلف الأشياء<sup>(٧)</sup> . وما كان لمثل هذه المحاولات الأولى أن تؤتي ثمارها ، وما كان لها أن تنتهي إلى شرح الكون وتفسير ظواهره تفسيراً يقبله العقل ، وتطمئن له النفس ، ويستطيع الإغريق اتخاذه بديلاً عن أساطيرهم الدينية التي بدأت تتداعى من كل جانب . فكان من الطبيعي حينئذ أن يدب الشك ديبه إلى القلوب . ولم يكن بد من ظهور طبقة من الشكاك الهدامين حتى يشرع الناس في تمحيص الآراء والنظريات ، وحتى يقدر للتفكير الإغريقي الحر أن يشق طريقه ، فلا يظل سجين البحث عن أصل العالم وعن سبب الكثرة فيه . وكانت هذه الطبقة الهدامة هي جماعة السفسطائيين الذين تخصصوا في فن الكلام والجدل ، وظنوا أنهم يستطيعون معرفة كل شيء لمقدرتهم ومهارتهم في تركيب فنون القول وقاب الحق باطلاً والباطل حقاً .

(١) ينسب هذا الرأي إلى طاليس أول فلاسفة الإغريق .

(٢) هذا هو رأي أنكسماندريس .

(٣) ذهب أنكسبينيس إلى هذا الرأي .

(٤) الفيثاغوريون .

(٥) هيراقليطس .

(٦) ديمقريطس .

(٧) أميدوقل .

وساعد على ظهور هذه الجماعة بعض العوامل التاريخية والاجتماعية . فإن الحياة في أثينا تبدلت واتخذت لنفسها طابعاً جديداً عقب انتصار الإغريق على جيوش فارس . فأصبحت هذه المدينة زعيمة باقي المدن الإغريقية الأخرى ، وامتد نفوذها السياسي إلى كثير من جزر بحر « إيجه » فاقترنت بالمستعمرات في الشرق ، وأدى ذلك كله إلى اتساعها ، وقصدها الناس من جميع الأقطار ، ثم ظهرت الديمقراطية وثبتت قدمها فيها . وانتهى الأمر إلى نشأة طبقة جديدة في مجال السياسة العامة ، ووعي بها طبقة الرعايا . وصحب ذلك التطور ظاهرة جديدة بالملاحظة ؛ فقد تسكونت شخصية الفرد ، واتجه هذا الأخير إلى إشباع حاجاته وشهواته ، وبخاصة بعد انتهاء الحرب التي كانت توجب عليه التضحية بكل ملاذحه من أجل الوطن . أضف إلى هذا أن تقسيم العمل بين أفراد المدينة أصبح أمراً ضرورياً ، بعد أن تشعبت الحياة الاجتماعية فيها وهكذا شعر كل فرد بالحاجة إلى معرفة بعض الشيء عن كل ما يمس المهنة الأخرى ، حتى يستطيع أن يدلي برأيه في الأمور العامة التي كانت تهتم المدينة . ومعنى ذلك أن أثينا أحسست بحاجة اجتماعية ملحة توجب على أهلها أن يأخذوا بطرف من جميع معارف عصرهم ومهنه ومطالبه ، خطابه كانت أم شعراً ، قضاء أم سياسة ، اقتصاداً أم جدلاً .

وقد أخذت جماعة السفسطائيين على عاتقها مهمة تعليم الشعب وثقافته وإعداده للحياة الديمقراطية . فلا شك حينئذ في أن هذه الجماعة كانت وليدة بعض الميول الاجتماعية . وربما كان هذا هو نفس السبب في أنها لم تنتج إنتاجاً فلسفياً جديراً بهذا الاسم . ذلك أن هذا الإنتاج لا يتسكّر قط من أجل العامة ، كما أنه لا يصاح لها . وكيف لنا أن نتوقع تجديداً في التفكير الفلسفي من جانب هؤلاء المعلمين المتجولين الذين كانوا يسعون إلى تلاميذهم ، بدلا من

أن يهرع هؤلاء إليهم؟ وما كان لهم أن يعلموا الناس الحكمة محبة فيها، أو رغبة في الكشف عن الحقائق التي عجز القدماء عن إدراكها؛ بل كانوا يعلمونهم الخطابة والجدل والمهارة في اللجاج.

وعمل بعض مؤرخي الفلسفة إلى رمي السفسطائيين بأنهم قوضوا النظم الاجتماعية، وهدموا التقاليد المتوارثة، وأفسدوا أهل أثينا شيوخاً وشباناً. لكننا لا نؤمن مثلهم بأنهم كانوا سبب هذا الفساد كله؛ فإن الجمهور هو السفسطائي الأكبر، لأنه لا يعرف وسطاً في إعجابهِ وسخطهِ، في حبه وكرهه. وله فيما عدا ذلك نفوذ وسحر وسيطرة على النفوس فيشكلها بعنف حسبما يهوى. وما كان لهذه الجماعة المرتزقة أن تعارض الرأي العام أو تتنكر له؛ فإنها كانت قد وضعت نصب أعينها جمع الثروة وكسب الجاه والشهرة. ومن ثم لم يكن هؤلاء المعلمون إلا صدى للجماعة يتملقونها، ويدرسون رغباتها وأهواءها، لا ليصلحوا ما فسد أو اعوج من أمرها، ولكن لكي يكونوا لها خدماً، ولكي ينالوا على ذلك أجرهم

ومهما يكن من شيء فقد تطرق الشك والفساد إلى الناحيتين الدينية والخلقية وساعد السفسطائيون، ما في ذلك ريب، على تمزيق الوحدة الروحية التي كانت تؤلف بين قلوب أهل أثينا. فاحتدم النزاع بين الأشراف والسوقة، وغلب طابع الجدل العقيم، ورغب الناس عن المعرفة الحقة، وانصرفوا كأسادتهم إلى الحديث لمجرد الحديث، وإلى ادعاء معرفة كل شيء.

ومن الغلو أيضاً أن ينسب بعض المفكرين إلى السفسطائيين الفضل في توجيه التفكير البشري نحو الفلسفة الإنسانية. وليس بصحيح أنهم هم الذين أرشدوا سقراط إلى إنزال الفلسفة من السماء إلى الأرض، أي من دراسة أصل الكون إلى دراسة النفس والمعرفة والفضيلة والسعادة.

فإن سقراط وحده هو الذى وضع أسس هذه الفلسفة الجديدة .

وقد نتساهل بعض الشيء فنقول : إنهم مهدوا السبيل أمام تلك الفلسفة . ولكن من الحق أن نذكر أيضا أنهم لم يهدفوا إلى هذه الغاية عن قصد ، وأنهم لم يفعلوا ذلك بمحض إرادتهم . فقد كانوا أبعد الناس عن فهم هذا النوع الجديد من التفكير ؛ بل كانوا من الأعدائه ومناهضيه .

## ٢ - ظهور سقراط

جاء سقراط وسط هذه الفوضى الشاملة ، فكان مجيئه نذيراً بآفة قضاء مرحلة الشك ، وبدءاً لنهاية التدهور العقلى والخالقى والدينى . ولم تكن ظروف الحياة فى أثينا هى التى خلقتها ؛ ولم يكن المجتمع على استعداد لقبول تعاليمه ، ولم يأت سقراط لى يعبر عن بعض الميول الاجتماعية الكامنة كما يدعى ذلك بعض المفكرين<sup>(١)</sup> ؛ فإن العبقرية ليست وليدة المجتمع كما يبدو لهؤلاء ، ولكنها نتيجة لبعض الشروط النفسية الشخصية البحتة التى لا تخلقها البيئة أو الوراثة ، التى لا يغض من شأنها أن يقبلها المجتمع أو يرفضها . وحقيقة لو استطاعت البيئة الاجتماعية التى عاش فيها سقراط أن تعد له لشيء ذى بال لما أعدته إلا حياة تختلف اختلافاً كبيراً عن تلك الحياة التى اختارها لنفسه ، وهى أن يجي كغمياسوف يمحض نفسه ونفوس الآخرين . ولو جرت الأمور على النحو المألوف لما استطاعت هذه البيئة أن تعد له لشيء إلا ليكون نحاساً كأييه<sup>(٢)</sup> . وفعلًا

---

(١) نشر هنا إلى رأى « دوركام » رئيس المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع ، فقد حاول - دون نجاح - تفسير ظهور العبقرية والديانات تفسيراً اجتماعياً ، أرجع فى هذه المسألة إلى كتابنا « المطلق الحدوث ومناهج البحث » الطبعة الثالثة « صفحا ٢٣٧ وما بعدها .

(٢) ولد سقراط فى أثينا سنة ٤٦٩ قبل الميلاد من أبوين متوسطى الحال ؛ إذ كان أبوه سدرونيكس Sophronisque نحاساً ، وكانت أمه قابلة .

زاوول هذا الفيلسوف مهنة والده حينما من الدهر ، ثم رغب عنها وتركها عندما دفعه ذكاؤه وتفكيره العميق الخصب إلى البحث عن المعرفة الحقة ، فضحى من أجلها بكل شيء ؛ بالثروة وبالحياة أيضاً .

قد يقال إن الديمقراطية أتاحت له أن يفضى المحافل والمجالس ، وأن يلقى أعلام الرجال وأن يأخذ عنهم . لكن ليس لهذه الحجة من القوة إلا مظهرها ؛ فإن سقراط لم يكن إلا أحد عشرات الألوف الذين قدر لهم أن يفضوا هذه المجالس ، وأن يلقوا هؤلاء الأعلام . وحقيقة لم تتح له هذه البيئة إلا الوقوف على آثار الفلاسفة السابقين وعلى تناقض آرائهم . وهذا أمر لم تضمن به أثينا على سواه ؛ وكان من الممكن ، فيما عدا ذلك ، أن يهتدى إليه وحده .

وقد يقال إنه لم يأت مجديداً ؛ إذ أن المنسطائين سبقوه إلى رفض آراء الأقدمين . لكن شتان بين رفضه ورفضهم . فإن رفضه هو رفض العبقرى الذى يستطيع الخلق والابتكار ، والذى يخلق ويبتكر بالفعل . وأما رفضهم فهو رفض جماعة تمثل عقاية الجمهور وتمبر عن ميوله وعواطفه ؛ ونحن نعلم جيد العلم أن الجمهور لا يستطيع خلقاً ولا ابتكاراً ؛ وإن استطاع الهدم والتدمير .

وما كانت عبقرية سقراط فى حاجة إلى بعض العوامل الخارجية التى توقظها ، أو تمهد السبيل أمامها ؛ فإنه لم يكن من هؤلاء الذين يسهل إقناعهم بالخطابة أو زخرف القول . لقد كانت حجج المنسطائين ترضى العامة ، وتشير إعجابها ، فى حين أنها كانت لا تقنعه ؛ بل تثير تفكيره وشكوكه . وكان إذا رأى السامعون أن لا مجال إلا للموافقة رأى هو ، على العكس من ذلك ، أنه لا بد من السؤال والتحيص . فإذا وجه أسئلته تبين له تداعى الآراء التى كان يؤيدها أصحاب بقوة . وفى الواقع ليست طريقة البحث عن الحقيقة أن يلجأ المرء إلى استخدام الخطب الرنانة والأساليب الفخمة . فإن الحقيقة ، كما كان يرى سقراط ، توجد

لدى كل امرئ منا ، لكن كثيراً ما تملوها غشاوة من الآراء الفاسدة والأوهام أو النسيان . وحينئذ فلا بد من الإلحاح في البحث عنها حتى تخرج إلى النور . فإذا سلك المرء هذه السبيل الوثيدة استيقظ شعوره وتحرك تفكيره ، وما زال ينتقل من حقيقة إلى أخرى ، حتى ينتهي إلى أن يسمع في أعماق نفسه ما يطلق عليه سقراط اسم الصوت الداخلي .

وقد بدت لسقراط عبقريته على صورة نداء إلهي ؟ إذ كان يعتقد أن السماء أرسلته إلى أثينا ، وعهدت إليه أن يرشد أهلها وينقذم وينقذ الإغريق معهم . ويقص علينا هذا الفيلسوف قصته فيقول :<sup>(١)</sup> إن « شيريقون » ، رفيق صباه ، ذهب يوماً إلى معبد أبولون في دلف ، وجرؤ على توجيه هذا السؤال إلى الإله وهو : هل هناك من هو أكثر علماً من سقراط ؟ فأجابته « بيتي » كاهنة المعبد : أن ليس هناك من هو أعلم منه . فلما انتهى إليه أمر هذه النبوة قل لنفسه : « فلننظر ما معنى كلام الإله وما ينطوى عليه من معنى خفي ؟ إنني أشعر شخصياً أنني لست أقل الناس أو أكثرهم علماً . فإذا يريد الإله عندما يؤكد أنني أكثر الناس علماً ؟ ومع ذلك فإن الإله لا يقول شيئاً مخالفاً للحقيقة ؟ وليس من الممكن أن يكون كاذباً » ، ثم ذكر أنه ظل مدة طويلة من الزمن دون أن يفهم من شأن هذه النبوة شيئاً . وأخيراً جمع أمره كارها على التحقق من صدقها . فذهب يبحث عن أحد هؤلاء الرجال الذين كانت العامة تشهد بعلمهم . فلما جاذبه أطراف الحديث أحس أن هذا الرجل يبدو عالماً لكثير من الناس ، ولنفسه بصفة خاصة ، لكنه لم يكن عالماً ألبتة . وحينئذ حاول سقراط أن يبرهن له على أنه ليس عالماً ، وإن كان يظن أنه كذلك . فلم تكن نتيجة هذه المحاولة إلا أن جلب على نفسه عداوة هذا الرجل وعداوة كثير من أعوانه أيضاً .

(1) Apologie de Socrate 21 a. — 23.

فتركه ، وهو يقول : « إني أكثر منه علماً على أية حال . حقاً إنه من الممكن ألا يعلم كلانا شيئاً ذا قيمة . ولكنه يعتقد أنه يعلم ، في حين أنني ، وإن كنت لا أعلم شيئاً ، فإني أعتقد أنني لا أعلم شيئاً . » ولم ته هذه المحاولة من عزمه شيئاً ، فذهب يبحث عن رجل ثان من بين هؤلاء الذين كان يظن أنهم أكثر علماً من الأول . فكان شعوره في هذه الحال هو عين شعوره في الحال الأولى . ويعترف سقراط أنه جالب على نفسه عداوة هذا الرجل وغضب عدد كبير من الناس غيره . ومع هذا ، فأبرح يهيج هذه السبيل مع علمه بأنه ينفرد مواطنيه منه . ولم يكن ذلك منه دون حسرة أو قلق . وما كان لليأس أن يدب إلى قلبه ؛ لأنه كان يعتقد أن من واجبه أن يضع خدمة الإله فوق كل اعتبار آخر . ولذا كان حتماً عليه أن يولى وجهه نحو كل لرجل تشهد له العامة بالعلم حتى يستطيع فهم النبؤة . ويذكر لنا سقراط أنه انتهى إلى هذه النتيجة وهي . أن أكثر هؤلاء شهرة بالعلم قد بدوا له أكثرهم جهلاً ، إلا في القليل النادر ، وأن بعض هؤلاء الذين كانوا يُرمون بالجهل بدوا له أصح عقلاً من الأولين .

ثم اتجه صوب الشعراء يسألهم عن معاني قصائدهم ، ففاجأه أنهم يعجزون عن تفسيرها . فعلم حينئذ أن الشعر نوع من الوحي أو الإلهام . ولما شرع يحاور الصناع وجد أنهم ، وإن كانوا يعلمون كثيراً من الأمور التي يجهاها هو ، فإنهم يدعون معرفة كل شيء ، أي يزعمون أنهم يعلمون أشياء يجهلونها في واقع الامر . فليس بعجيب إذن أن تزداد عداوة الناس له ونفورهم منه وحنقهم عليه ، وأن يرموه بالنفاق ، لأنه يبدو لهم علماً ، وإن كان يعترف لهم بأنه لا يعلم علماً أكيداً . وقد فسر لنا سقراط كيف رماه مواطنوه بالعلم تفسيراً طريفاً فقال : « ذلك لأنني كلما أفنعت أحدهم بأنه جاهل ظن الحاضرون أنني أعلم الأشياء التي يجهلها . . وفي الحقيقة ربما كان الإله هو الذي يعلمها ،

وأنه أراد بهذه النبوة أن بصرح بأن الناس لم يعطوا من العلم إلا قليلا ؛ بل لم يعطوا منه شيئا . ومن الواضح أنه إنما قال إن سقراط أكثر الناس علما ؛ لأنه أراد أن يستخدم اسمي كمثل ، أى أنه كان يريد القول : أيها الناس إن أكثركم علما هو الذى يعلم ، على غرار سقراط ، أنه علمه ليس فى حقيقة الأمر شيئا ألبتة . »

### ٣ - رسالته

ولم يلبث سقراط أن اهتدى إلى حقيقة النبوة التى حمل إليه صديقه « شيريفون » نباها ؛ إذ أدرك أن الإله أوجب عليه أن يبحث عن حقيقة نفسه ، وأن يرشد أهل أثينا - ولو كرهوا - إلى حقيقة أنفسهم ، حتى بنقذهم من السفسطينيين الذى كانوا يتملقون أخس عواطفهم ، ويزعمون أنهم قد أحاطوا بكل شيء علما ، مع أنهم كانوا يجهلون أقرب الأشياء إليهم ، وهى نفوسهم التى بين جنوبهم .

ولما اعتقد أن الآلهة شدت وثأته إلى مواطنيه ، لكى يوقظ شعورهم وتقديرهم ، ولكى يستحشهم على تمحيص نفوسهم لمعرفة الخير والحق كما يستحث المهماز الجواد الرخو على السير ، ترك مهنة أبيه ، وشرع يتجول بلبابه الرثة فى طرقات أثينا لا يمشى حرا ولا بردا ؛ لأنه أخذ على نفسه أن يودى تلك الرسالة المقدسة التى دعت إلى أن يعيش لغيره قبل أن يعيش لنفسه . فكان إذا لقي أحدا من أهمل مدينته سأله بطريقة الخاصة . وكان له من ذكائه ودعابته المرحمة وفكاهته الحلوة خير عون على اقتناص ضحاياه . فسكان يستدرجهم على هون ، حتى إذا اطمانوا إليه ووقعوا فى حباله تتباعت أسئلته كأنها السيل المنهمر مالمحة محرجة ، تأخذ من يحاوره على غرة ، فيضطر إلى الإجابة كيفما أنفق ، أو يقضى ( م ٢ - فى النفس والعقل )

بأشياء ما كان له أن يفضى بها ، ثم يجد نفسه وجهاً لوجه مع بعض الحقائق التي يضيق لها صدره . ولكنه ما كان يستطيع الإفلات من قبضة سقراط ؛ لأنه كان يجد نفسه أمام أحد أسرى كلالها شر : فإما أن يعترف بجهله ، وإما أن يسلم بتناقضه . وما كان له أن يثور أو يغضب ، وإلا أثار سخرية الحاضرين ، ونحكهم . ولم يكن من اليسير أن يتجنب المرء سقراط . وكان هذا الأخير لا يمل الحوار لأنه برع فيه إلى درجة أنه كان إذا جادل جمعاً بأسره أخفه .

وكان السفسطائيون أكثر الناس خشية لحواره . ومع ذلك فما كانوا يستطيعون الفرار منه ؛ إذ لم يكن لهم بد من إظهار ثقتهم بأنفسهم أمام الجمهور المعجب بهم ، وما كان لهم أن يتجنبوا حوار سقراط وهم الذين كانوا يحترقون الحوار والخطابة والجدل . وكان سقراط يبدأ معهم بدء المتواضع ، فيصرح لهم بأنه لا يعلم شيئاً ، ويسألهم أن يتكروا بتعليمه وإرشاده ؛ فكان سقراط يسأل خصمه أن يعرف له أحد الأشياء أو المعاني . فإذا شعر محاوره بأنه يتحدهأ أخذ يبحث عن تعريف يظن أنه سوف ينال رضاه ، فيبدأ الجدل ، ويأخذ سقراط في تمحيص هذا التعريف تمحيصاً دقيقاً لا هوادة فيه ولا رفق . فيبدو له وللآخرين أنه لا يثبت أمام النقد . فيضطر الخصم إلى البحث عن تعريف آخر . ويتظاهر سقراط أول الأمر بقبوله . ثم لا يلبث أن يقلب فيه الرأي ، فينتهي إلى إظهار أنه ليس أسعد حظاً من سابقه ، وما يزال يضيق الخناق على خصمه حتى تتساقط جميع حججه ، واحدة بعد أخرى ، فلا يستطيع جواباً ، ولم يكن سقراط يتخذ الحوار سبيلاً إلى الغلبة ولكنه كان لا يتهمراً أبداً ؛ لأنه كان لا يبحث إلا عن الحقيقة .

وهكذا أفنى سقراط حياته بأسرها في ملاحقة مواطنيه والإلحاح في سؤالهم . فكان يوقفهم ويحاورهم في كل مكان : في الأسواق والدور والملاعب

والحوانيت . وكان يعلم جيداً أنه يثقل عليهم وأن ينفرهم منه ؛ لسكنه ما كان يستطيع إلا أن يفعل كذلك تنفيذاً لإرادة الإله ، حتى يعلموا أن معرفة الإنسان لنفسه أساس الفضيلة ، وأن الفضيلة هي السبيل إلى السعادة الحقة . وما كان يستطيع أكثر أعدائه تبهجاً أن يرميه بالرغبة في جمع المال وتحصيله ؛ إذ كان يستطيع سقراط دحض فريته بشاهد واحد لا سبيل إلى الطعن في شهادته ، وهو قفزه .

وقد آثر تعليم الأفراد وإرشادهم إلى تمحيص نفوسهم على الاهتمام بالسياسة العامة للمدينة ؛ لأنه كان يسمع صوتاً داخلياً يثنيه دائماً عن ذلك . ولم يكن هذا الصوت الداخلي — كما يقول سقراط — إلا ظل الإله الذي كان يهتف في أعماق نفسه ، فيحول دونه ودون ما ينبغي ألا يقدم عليه . وقد فسر لنا سقراط هذه الظاهرة النفسية أثناء دفاعه عن نفسه أمام قضاة أثينا فقال : « إن ذلك يرجع — كما سمعتموه مني في كثير من الأحيان ، وكأصرت به في كثير من الأمكنة — إلى ظهور إله أو عقل إلهي يتمثل في نفسي . . . إنه شيء ابتداء منذ طفولتي ، إنه صوت خاص متى أصغيت إليه منعتني من تنفيذ ما انتويت القيام به ؛ دون أن يدفني أبداً إلى القيام بعمل ما . فهذا هو السبب الذي كان يحول دون اهتمامي بأمور السياسة . وفيما عدا ذلك فإني اعتقد أن هذا الحظر كان أمراً موفقاً كل التوفيق ؛ فإني لو كنت وهبت نفسي للسياسة منذ زمن طويل لفضيت نجي منذ عهد بعيد ، ولما استطعت تبعاً لذلك أن أنفعكم ، أو أنفع نفسي » ، ذلك أن عقلية الجمهور لا تحتفر أي معارضة ، ولا يستطيع أحد من الناس أن ينجو عن الموت إذا خرج عليها علانية ، أو أراد أن يحول دون وقوع الظلم والجور في مدينته . ولذا « فإذا أراد المرء أن يجاهد حقاً في سبيل

العدالة ، وأداد إلى جانب ذلك أن يبقى على حياته قليلا من الوقت فلا بد له من أن يظل بعيداً عن السياسة . »

ولم تكن رسالته هذه حاصة بطائفة دون أخرى ؛ بل كانت عامة لبني مدينته ، أغنياء كانوا أم فقراء ، مواطنين أم أجانب . وكان شبان أثبنا يجدون متعة كبرى في اللحاق به ، وفي إنفاق كثير من وقتهم في صحبته ، وكان يطيب لهم أن يستمعوا إليه ، وأن يروه يختبر هؤلاء الذين يدعون المعرفة ، وإن كانوا لا يعلمون شيئا . وقد قال سقراط يبرر سلوك هؤلاء الشبان ويدفع عن نفسه تهمة الرغبة في اللهو والعبث : « حقا إن هذا الأمر لا يخلو من متعة ، ولسكنه كان بالنسبة إلى واجبا أمرتني به الآلهة ، عن طريق النبؤات والأحلام وجميع الوسائل التي تستعين بها دائما أية قوة إلهية إذا أرادت أن تأمر رجلا بشيء ما . »<sup>(١)</sup>

وليس لنا أن نضع إخلاص سقراط في دعواه هذه موضع الشك . فقد أتى أن يترك رسالته واختار الموت ، وفضله على عصيان الإله . وقد عجب كيف يطلب إليه أهل أثينا أن يمجد عن مهمته السماوية . وهو الذي لم يجد قيد أمثلة عن أداء واجبه كجندی في أثناء حروب المدينة . إن القرار من طاعة الآلهة كان لديه أكبر جريمة يستطيع المرء ارتكابها . إنه لو ترك هذا الأمر لكانت تلك هي الخطيئة حقا ، ولسكان جديراً في هذه الحال بأن يقدم للعدالة ، وأن يتهم بأنه لا يؤمن بالآلهة ؛ لأنه لم يصدق النبؤة .

وكيف للمرء أن يرميه بالنفاق أو العبث أو الرغبة في الجدل والحوار اللذة الغلبة أو السخرية من مجادليه ومحاوريه ، وهو الذي تمسك برسالته حتى لاقي حتفه ؟ وكيف يتطرق الشك إلى إخلاصه وهو الذي يقول لفضاته ، وقد رأى الموت رأى العين : « أيها القضاة لنفرض أنكم أطلقتم سراحي على الرغم من

(1) Ibid 33, b/c.

يقول أنيتوس<sup>(١)</sup> : إنه يجب أحد أمرين ، فإما ألا يمثل سقراط أمامكم ، وإما أن يمثل فيقضى عليه بالموت ؛ إذ لو أحلى سبيله لأفسد أبناءكم فساداً لا رجعة منه — أقول فلنقرض أنكم قلتم ، على الرغم من ذلك . ياسقراط إنا لا نريد أن نعتقد صدق ما يقول « أنيتوس » ، وسنطلق سراحك بشرط واحد ، وهو أن لا تمضي وقتك هكذا في تمحيص نفوس الآخرين وفي التفلسف . فإذا أنت حدثت عن هذا الشرط قضينا عليك بالموت — لأن أردتم أن تقرضوا على هذا الشرط لسكى تطلقوا سراحي فسوف أقول لكم : أيها الأثينيون إني أحبكم ، ولكني أفضل طاعة الإله على طاعتكم ، ولتأكدوا أنني لن أقنع عن التفلسف وعن حشكم وعن إرشاد من ألقاه منكم ما بقي في رفق من حياة ، وطالما استطعت ذلك .<sup>(٢)</sup> وحقيقة ما كان له أن يدع رسالته وأن يحفظ الحياة على نفسه ، وقد عقد عزمه على أن يجابه كل أثيني بحقيقته ، فيقول له : « إنك أثيني ، وإنك لتنتهي إلى مدينة هي أكبر المدن وأكثرها شهرة بالعلم والقوة ، ثم لا تتجمل من أنك تعنى بثروتك لسكى تصل بها إلى أكبر حد ممكن . . أما فيما يتعلق بعقلك ، وأما فيما يتعلق بالحقيقة ، وأما فيما يمس نفسك التي يجب أن تسمو بها دائماً فإنك لاتعنى بها ولا تفكر فيها . » لقد كان الأثينيون أحب الناس وأقربهم إلى قلب سقراط ، ومع ذلك فما كان يستطيع عصيان الإله من أجلهم . وأنى له ذلك وقد وجدهم يمنون بثروتهم وأجسامهم أكثر من عنايتهم بنفوسهم ؟ إنه لا يستطيع إلا أن يكرر على مسامعهم هذا القول : « إن مهمتي هي أن أخبركم أن الثروة لاتنتج الفضيلة ، ولكن الفضيلة هي التي تنتج الثروة وكل ما يعود بالنفع على الفرد أو الدولة . »<sup>(٣)</sup>

(١) كان أنيتوس Anytos أكبر المحرضين على محاكمة سقراط .

(٢) Ibid 92 c.d.

(٣) Ibid 30.b.

إن الإله قد عهد إليه - كما يقول - أن يرشد أهل أثينا ، وأن يحص  
نفوسهم ؛ فسواء عليه إذن أصدقوا التهمة التي وجهت إليه أم كذبوها ،  
وسواء عليه أطلقوا سراحه أم قتلوه ؛ فإنه قد حزم أمره على أن لا يغير سلوكه.  
أبداً ، ولو تعرض ، بسبب ذلك ، للموت ألف مرة<sup>(١)</sup> : إنه لا يهرب الموت  
أو يخشاه بقدر ما يهرب عصيان الإله . ولذا فإنه يحذرهم من أن يستخف  
« أنيتوس » وأقرانه أحلامهم عند ما يذكرون لهم أنه بفسد شباب المدينة .  
فإنهم إن استمعوا إلى إرجافهم أمروا بقتله في ساعة من ساعات غضبهم .  
ولئن فعلوا فسيتندمون حيث سوف لا يجدى الندم شيئاً ؛ ذلك أنهم لن يجدوا  
رجلاً مثله يوقظهم من سباتهم ، اللهم إلا أن يتداركهم الإله برحمته ، فيرسل  
إليهم رجلاً يقوم مقامه ، ليخبرهم أن معرفة النفس هي التي ترشدهم إلى  
معرفة الإله .

لكن أهل أثينا لم يخفوا برسائله ؛ لأنها جاءت تسفه أحلامهم وتحقر  
أساليبهم في الحياة . فإنهم كانوا يرون أن من واجب المواطن الصالح أن يحتفظ  
بالثروة التي يتركها له ذووه ، وأن يعمل على تنميتها ؛ في حين جاء سقراط يزدريها  
وينحى باللائمة على من يرغب في تحصيلها وتكديسها ، ولم يشأ سقراط أن يلجأ  
إلى الفرار الذي مهد له أنبأه كل أسبابه ، ولم يرضى بالنفي . لقد كبرت سنه  
وضاق به مواطنيه ، فهل تتسع صدور الآخرين له ؟ إنه على يقين أنه حينما حل  
فسيرع الشبان إلى سماع حوارهِ . فإن أبي عليهم ذلك وشوا به إلى من هم أكبر  
منهم سناً ، وإن نزل على رغبتهم ضاق به آباؤهم . ولذا آثر الموت ؛ بل رحب به  
لأنه كان يرى أنه السبيل إلى تحرير النفس والفكر .

(1) Ibid 30, c,

## ٤ - آراؤه في النفس

تسكاد تتخلص فلسفة سقراط بأكلامها في هذه الجملة التي وجدها مكتوبة في معبد « دلف » والذي اتخذها شعاراً له ، وهي « اعرف نفسك بنفسك » . فقد كان يعتقد أن هذه الجملة لم تدون عبثاً ، ولكن لحكمة . ذلك أن معرفة الإنسان لنفسه ليس معناها معرفته لجسمه ، بل لذلك العنصر الإلهي الذي يوجد في أعماق وجوده . إن حقيقة الإنسان هي نفسه . وهذه الأخيرة تحتوي على العقل الذي يطاق عليه سقراطي أحياناً اسم ظل الله . ومعنى ذلك أن الإنسان إذا محص نفسه رأى فيها الإله أي اهتدى إليه وتلك هي المعرفة الأولى التي يجب تجصيلها قبل كل معرفة سواها ، لأنها هي التي تتيح للمرء معرفة الفضيلة والسعادة ، والوقوف على حقائق الأشياء الأخرى .

ولسكن ما حقيقة النفس ؟ وهل اهتدى سقراط إليها ، إنه يرى النفس ذات روحية قائمة بذاتها ، وأنها هي جوهر الإنسان الحقيقي . وأن البدن ليس إلا أداة لها ، وأن في الموت خلاصها وتحريرها .

### ١ - إثبات وجودها .

حاول سقراط البرهنة على وجود هذا الجوهر واستقلاله عن البدن في حوار تمتع له مع « السيبياذ » الذي كان يطمح إلى الحكم لكي يصالح ما فسد من أمر المدينة . وكثيراً ما كان يرغب في محاورته ، لسكن الصوت الداخلي كان يمنعه دائماً من بدء الحوار معه . حتى إذا لقيه مرة ولم يحرك الصوت ساكننا علم أنه قد أذن له في حوار . فما زال يستدركه حتى بين أنه لن يستطيع تحقيق آماله إلا إذا بدأ بمعرفة نفسه ، لأنه إذا جهل هذه عجز عن معرفة أي شيء سواها . وقد نقل لنا أفلاطون هذا الحوار . وسنكتفي منه بالجزء الذي يتعاقب بإثبات وجود النفس .

سقراط : والآن ما الفن الذى نستطيع استخدامه فى العناية بأنفسنا ؟  
السيبياد : إنى أجهل ذلك .

\* \* \*

سقراط : هل كان يمكننا التعرف على الفن الذى يستخدم فى إصلاح الأحذية  
إذا كنا نجهل ماهية الخذاء ؟  
السيبياد : من المحال .

سقراط : وحينئذ فهل لنا أن نعلم الفن الذى يجعلنا أختياراً ، دون أن نعلم حقيقة  
أنفسنا ؟  
السيبياد : إن هذا محال .

سقراط : ولكن أمن اليسير أن يدرك المرء حقيقة نفسه ؟ وهل كان ذلك  
الذى وضع هذه الحكمة فى معبد « بيتى » أى رجلى كان ؟ أم ذلك  
أمر عسير ليس فى متناول الجميع ؟

السيبياد : أما فيما يتعلق بى ، يا سقراط ، فقد اعتقدت مراراً عديدة أن ذلك  
الأمر فى متناول الجميع . ولكنى اعتقدت أيضاً ، فى بعض الأحيان  
أنه شاق جداً .

سقراط : مهما يكن من يسر ذلك أو عسره فإننا نجد أنفسنا دائماً أمام هذه  
الحقيقة ، وهى أننا إذا عرفنا نفوسنا فإننا نستطيع معرفة طريقة العناية  
بها ، وإلا عجزنا عن ذلك .

السيبياد : هذا صحيح جداً .

سقراط : ولكن كيف نستطيع معرفة ماهية الإنسان ؟ وذلك لأننا لو عرفناها  
فلربما اهتدينا إلى حقيقة أنفسنا .

السيبياد : أنت على حق .

سقراط : تشجع بحق « زيوس » ولننظر : مع من تتكلم في هذه اللحظة ؟

ألا تتكلم معي ؟

السيبياد : نعم .

سقراط : وأنا أتكلم معك ؟

السيبياد : نعم .

سقراط : أليس سقراط هو الذى يتكلم ؟

السيبياد : فعلا .

سقراط : أليس السيبياد هو الذى يسمع ؟

السيبياد : نعم .

سقراط : ألا يستخدم سقراط اللغة في الكلام ؟

السيبياد : ليس هذا في حاجة إلى دليل .

سقراط : ليس الكلام واستخدام الامة لفظان يعبران لديك عن شيء واحد

بعينه ؟ . .

السيبياد : تماما .

سقراط : ولكن هل الذى يستخدم شيئا هو عين الشيء الذى يستخدمه ؟

السيبياد : ماذا تريد بهذا القول ؟

سقراط : مثلا يقطع الصانع الأحذية بالسكين . . وبعض الأدوات الأخرى .

السيبياد : نعم .

سقراط : ونحن نفرق بين العامل الذى يقطع وبين الآلة التي يستخدمها في القطع .

السيبياد : دون ريب ما .

سقراط : هذا هو عين ما كنت أسألك عنه منذ قليل حين قلت : هل من الممكن

أن يفرق المرء بين الشخص الذى يستخدم آلة وبين الآلة التي يستخدمها ؟

- السيبياد : نعم ، يبدو لي إمكان ذلك .
- سقراط : ولكن أيقطع صانع الأحذية بالآلة فحسب أم بيديه أيضا ؟
- السيبياد : بيديه أيضا .
- سقراط : إذن هو يستخدم يديه أيضا ؟
- السيبياد : نعم .
- سقراط : وعيناه هل يستخدمهما ؟
- السيبياد : نعم حقا .
- سقراط : لكننا اتفقنا على التفرقة بين الشخص الذى يستخدم شيئا وبين الشيء الذى يستخدمه ؟
- السيبياد : حقا ؟
- سقراط : وحينئذ فمن الممكن التفرقة بين كل من صانع الأحذية والعازف على القيثارة وبين أيديهما وأعينهما لأنهما يستخدمانها ؟
- السيبياد : ذلك أمر بديهي .
- سقراط : والآن ألا يستخدم الإنسان جسمه بأكله ؟
- السيبياد : بالتأكيد .
- سقراط : وقد اتفقنا على أن الذى يستخدم شيئا يختلف عن هذا الشيء الذى يستخدمه ؟
- السيبياد : نعم .
- سقراط : ألا يترتب على هذا أن الإنسان شيء آخر غير جسمه ؟
- السيبياد : يبدو لي الأمر كذلك .
- سقراط : إذن ما حقيقة الإنسان ؟
- السيبياد : لا أدري لهذا جواباً .

- سقراط : أنت تعلم على أية حال أنه هو الذى يستخدم البدن .  
السيبياد : نعم .
- سقراط : ولكن هل هناك شيء آخر يستخدم البدن سوى النفس ؟  
السيبياد : هذا حق .
- سقراط : أهي تستخدمه حين تخضعه لأوامرها ؟  
السيبياد : نعم .
- سقراط : هناك شيء آخر لا يقبل اختلافا في الرأي .  
السيبياد : ما هو ؟
- سقراط : أليس من الممكن أن يفرق المرء بين ثلاثة كائنات أحدها الإنسان  
ما في ذلك شك ؟  
السيبياد : ما هذه الكائنات ؟
- سقراط : النفس ، والبدن ، والسكل الذى ينشأ بسبب اتصالهما .  
السيبياد : دون أى ريب .
- سقراط : وقد اعترفنا منذ قليل بأن الإنسان هو الذى يأمر الجسم حقيقة .  
السيبياد : نعم قد اعترفنا بذلك .
- سقراط : هل الجسم هو الذى يصدر الأمر نفسه ؟  
السيبياد : أبداً
- سقراط : وحينئذ فليس الجسم بالضالة التى ننشدها  
السيبياد : لا ، كما يبدو لى .
- سقراط : وحينئذ فهل مجموع النفس والبدن هو الذى يصدر أوامره للبدن .  
ويكون المجموع في هذه الحال هو الإنسان ؟  
السيبياد : ربما كان الأمر كذلك .

سقراط : لكن ليس الأمر كذلك حقيقة فإنه متى لم يشترك أحد الجزأين في إصدار الأوامر فمن المستحيل طلاقاً أن يكون مجموعهما هو الذي يباشر السيطرة .

السيبياد : هذا حق .

سقراط : وحينئذ فإذا لم يكن مجموع الجسم والنفس هو الإنسان . . فإنه يجب استخلاص النتيجة الآتية ، وهي أن الإنسان هو النفس .

السيبياد : تماماً .

سقراط : هل هناك حاجة إلى البرهنة لك بأدلة أخرى أشد جزماً من هذه أيضاً على أن النفس هي الإنسان ذاته ؟

السيبياد : لا بحق « زبوس » ! إن هذه البرهنة تبدو لي كافية جداً .

سقراط : ومن ثم فانتا نعود إلى القول بأن الذي يعني بجسمه إنما يعني بشيء يخصه ؛ ولكنه لا يعني ذاته .

السيبياد : إن هناك ما يدعو إلى اعتقاد ذلك .

سقراط : أما فيما يتعلق بهذا الذي يعني بـ «نفسه» فإنه لا يعني بذاته أو بما يخصه ؛ بل هو أكثر بعداً عما يخصه .

السيبياد : أعتقد هذا أيضاً .

\* \* \*

لكن إثبات وجود النفس على هذا النحو لا يشرح لنا ماهيتها ، ولا يكشف لنا عن حقيقتها وجوهرها . ولذا أراد سقراط أن يقرب هذه الحقيقة إلى أذهاننا ، وأن يبين لنا سمو هذا الجوهر الروحي ، فقال : إن النفس تشبه الإله إلى حد كبير . فكما أن الإله قوة خفية لا تقع تحت حسنا وتمعجز عقولنا عن إدراك كنهها ، مع أنها ترى وتسمع وتحيط بكل شيء علماً وقدرة وعناية ؛

كذلك النفس فإنها ، وإن خفيت على حواسنا ومداركنا ، فإنها توجد في الجسم بأسره وتقوم بتدبيره والعناية به . وكان سقراط يرى أيضا أن الإله خالق الإنسان في أحسن تقويم ، ولكنه غنى بنفسه أكثر من عنايته بجسمه . والدليل على ذلك أن النفوس البشرية أسمى النفوس وأعلاها مرتبة . أليست هي التي تستطيع وحدها أن ترقى إلى معرفة الإله ؟ أو أليست أكثر مقدرة من نفوس الحيوان على اتقاء الجوع والعطش والحر والبرد ؟ وفيما هذا ذلك فإنها تستطيع اتقاء المرض بالعلاج ، وتحتفظ في ذاكرتها بكل ماتمس وتذكر .

### ب — خلود النفس :

أما فيما يخص خلود النفس فلم يكن سقراط صريحا ، ولو أن مسلكه في آخر أيام حياته ورضاه بالحكم الذي قضت عليه به الديمقراطية الأثينية كانا دليلا على أنه يؤمن بوجود حياة أخرى ، ويأمل أن يعوض في هذه الحياة عما أقيه من جمود في حياته الدنيا . ومع ذلك فإننا لانجد له في مسألة الخلود سوى ما ينسبه إليه تلميذه أفلاطون . فقد ذكر هذا الأخير في كتابه « فيثون <sup>(١)</sup> » أن اثنين من أتباع سقراط . وهما : سيمياس <sup>(٢)</sup> و « شيبس » <sup>(٣)</sup> سألاه في اليوم الذي كان ينتظر نفاذ الحكم فيه ، أن يفسر لها سلوكه عندما رفض الفرار من سجنه بعد أن هيئت له جميع أسبابه كذلك أخذعاياه أنه يبدو أفرحاً مستبشراً ، كما لو كان سعيداً بأنه سيترك أصدقاءه وسيتحرر من آلهة المدينة . فقال سقراط : « نعم إنى أعترف . . . أنه لولا اعتقادي أنى سوف أذهب أولا صوب آلهة أخرى حليلة ورحيمة ، ثم بعد ذلك نحو رجال ما توهم خير من رجال هذه الحياة الدنيا لسكان من الخطأ الفاحش ألا تتور نفسي ضد الموت . وحينئذ فلا وجود لنفس الأسباب

(1) Phédon' 63'd/c

(2) Simias

(3) cèhés'

التي تدعوني إلى الثورة في هذه الظروف ، ولكنني على العكس من ذلك كبير  
الأمل في أن هناك شيئاً وراء الموت . »

كذلك يذكر لنا أفلاطون أن أستاذه كان يعتقد أن الفيلسوف الحق هو  
الذي لا يشغله عن التفكير في الموت شاغل ، إذ الموت هو السبيل إلى تحرير  
الفكر . ولن تستطيع النفس أن تدرك أى شيء على حقيقته إلا إذا قطعت كل  
وشيجة تربطها بالجسم ؛ لأنه يعوقها عن المعرفة الحقة . فليس البدن بحال ما هو  
الذي يوقفها على معاني العدل والخير والجمال . وحينئذ فتى عجز المرء عن إدراك  
هذه المعاني بالإبصار أو اللمس أو الذوق أو الشم فلا بد له من حس آخر غير تلك  
الحواس التي لا فوام لها إلا بالبدن . ومن ثم فالإدراك العقلي هو الإدراك حقيقة ؛  
لأنه « طالما بقيت لنا أجسامنا ، وظلت نفوسنا ممتزجة امتزاجاً شديداً بذلك  
الشيء الرديء فإننا لن ندرك موضوع رغبتنا إدراكاً كافياً . وإن هذا الموضوع  
لهو الحقيقة . » (١) وكيف لنا أن ندرك شيئاً ما على حقيقة في أثناء وجود

أجسامنا ، وهي السبب في نشأة الرغبات والخاوف وجمع ثنوف الخيال ؟  
« فإما كان من المستحيل في الواقع أن تدرك النفس شيئاً على حقيقة مادامت  
متضلة بالبدن فإنه يجب أحد أمرين : فإما ألا تستطيع الوصول بحال ما إلى  
تجصيل المعرفة ، وإما أن بصل إلى ذلك يعد الموت ؛ لأن النفس تصبح مستقلة :  
وقائمة بذاتها في هذه اللحظة لا قبلها : » (٢)

وإذا كان الأمر هكذا فليس للفيلسوف إلا أن يأخذ العدة لهذه الرحلة ،  
بأن يطهو النفس ويجعلها تحيا بعزلة عن البدن ما استطاعن إلى ذلك سبيلا .  
ولكن النفس لا تتحوك تماماً من البدن إلا بالموت ؛ فإنه هو الذي يفك عقلاها  
ويحررها من أسرها وخضوعها للبدن ونزواته . والفلاسفة هم هؤلاء الذين

(1) Phédon 69,b .

(2) Ibid 66,e .

بتوقون إلى خلاص نفوسهم من قيودها . وليس للفاسقة من هدف آخر سوى تحطيم هذه الأغلال . لكن ليس معنى هذا أن سقراط يتخذ الانتحار كوسيلة إلى الخلاص ، فإنه يقول : اننا ملاك للآلهة فلا يحق لنا أن ننتحر<sup>(١)</sup> ، وإنما يجب علينا أن ننتظر القضاء دون هاج أو فزع . فان الخوف من الموت لا يليق بالفيلسوف ؛ بل هو مدعاة إلى السخرية منه ؛ وذلك لأن الرجل الذي يحنق حينما تدنو ساعة الموت رجل لا يجب الحكمة ؛ لكنه يحب جسده وماله<sup>(٢)</sup> .

والتفكير هو العملة الوحيدة التي يمكن الحصول بها على جميع الفضائل . وإذا كان الفيلسوف لا يرهب الموت ولا ينجشاه فذلك لأنه يدفع حياته ثمنا لتحرير نفسه وانطلاق تفكيره من كل قيد .

تلك هي إذن الأسباب التي كانت تدعوه الى الأمل . وهي نفس الأسباب التي صرفته عن الهرب من سجنه وعن الغضب والحنق على مصيره . فقد قال يودع أصدقاءه وأتباعه : « فتلك هي إذن الأسباب التي تجعاني أترككم ، كما أترك آلهة هذه الدنيا ، دون أن أشعر بألم أو غضب ، وذلك لأني موقن أنني سوف ألقى هناك آلهة خيبرين وأصدقاء خيبرين أيضاً<sup>(٣)</sup> .

---

( 1 ) Ibid 62, c      ( 2 ) Ibid, 68, b      ( 3 ) Ibid. 99,d/e .

## الفصل الثاني

### أساطير أفلاطون

#### ١ - تمهيد

مما لا ريب فيه أن سقراط وجه التفكير الفلسفي وجهة جديدة تختلف أيما اختلاف عن الاتجاه العام الذي سلكه الفلاسفة الطبيعيون قبله . فقد رأينا كيف عنى عناية كبرى بدراسة النفس الانسانية ، وكيف حث على ضرورة تهذيبها والسمو بها . وكيف برهن بطريقة الحوار على مخالفتها للبدن ، وقين أنها هي جوهر الإنسان عند التحقيق ، وأن البدن ليس إلا أداة لها . ومع ذلك فإن بعض اتباعه كان يرى أنه لم يفضل القول تفضيلاً كافياً ، وأنه اهمم بدراسة الناحية الأخلاقية التي تترتب على معرفة المرء لنفسه ، ولم يعرض لسكثير من المسائل الميتافيزيقية ، أو عرض لها بصفة عابرة . ولذلك وجد تلميذ أفلاطون أنه لا بد من تفسير آرائه وتسكيها ؛ وذلك بأن يشرح طبيعة النفس وحقيقتها ، ويسوق الأساطير التي تقرب هذه الحقيقة إلى الخيال ، ويبرهن على بقائها بعد الموت ، ويفصل القول في الغية التي تهدف إليها ، ويبين الوسائل التي تعتمد عليها في إدراك هذه الغاية ، ويمدد وظائفها ، ويوضح الصلات التي توجد بينها .

#### ٢ - طبيعة النفس

بدأ أفلاطون في هذه المسألة حيث انتهى أستاذه سقراط . فحكّم ، هو الآخر بأن النفس هي العنصر الجوهرى في الإنسا ، وأنها ذات مستقلة ؛ فلا يدخل

البدن في تعريفها ولا بعد جزءاً من ماهيتها أو حقيقتها ، وحينئذ فهمي ، في نظره ، المبدأ الذي تفيض منه الحياة على الجسم ، وهي التي تحركه وتدبره وتعنى بأمره . وقد وضع أفلاطون العلاقة التي تربط النفس بالبدن بمثال مشهور ، وهو مثال الربان في السفينة . فإننا نعلم أن الربان يدبر أمر السفينة ، ويحركها ، ويسهر على حراستها وسط العواصف والزواج حتى يصل بها إلى غايتها ، ومع هذا فإنها ليست جزءاً من حقيقتها أو جوهره ، بل لكل منها كيانه الخاص المستقل عن كيانه الآخر . كذلك الأمر فيما يتعلق بالنفس وصلتها بالبدن . ومعنى هذا أن الإنسان ليس جوهرأً واحداً ، وإنما هو مركب من جوهرين : أحدهما نفسه والآخر بدنه . وكل من هذين الجوهرين مستقل عن الآخر ، ومختلف عنه ، في طبيعته اختلافًا جوهرياً . ومن الأكيد أن أفلاطون تأثر هنا بإحدى عقائد الديانة الأورفية — وهي إحدى الديانات السرية التي جاءت من الشرق ، وانتشرت في بلاد الإغريق وقتئذ — ونعني بهذه العقيدة تلك التي تقول بتناسخ الأرواح ، والتي تنص على أن النفوس كانت توجد في مكان قدسي قبل أن تحمل في الأجسام ، وكانت تنعم في هذا المكان بالسعادة الكاملة ، ثم ارتكبت جريمة ما فوقبت على ما فعلت ، وحق عليها أن تهبط من نعيمها نحو الأرض ، وأن تحمل في سلسلة من الأجساد تنتقل فيها واحداً بعد آخر ، حتى تفال جزاءها ، وحتى تستطيع ، أو يتاح لها ، أن تنجو من سجنها ، فتنتقل صوب العالم الذي أكرهت من قبل على تركه . وقد أخذ الفيثاغوريون أيضاً هذه العقيدة عن الديانة الأورفية . كذلك نجد آثارها لدى أحد الفلاسفة الطبيعيين ، ونعني به « أمبدوغل » الذي يعتقد أن النفس الواحدة تنتقل في عدة أجسام وأنها شيطان ، ويقول إنها تجبر على تغيير الجسد مرات عديدة حتى تسكفر عن خطاياها . وتختلف لديه مدة التناسخ تبعاً لأهمية الجريمة التي تفتقرها النفس . فمثلاً يقضى عليها بأن تعذب وتنتقل من جسد إلى

( ٣ — في النفس والعقل )

آخر مدة ثلاثين ألف سنة إذا ارتكبت جريمة القتل أو سبت الأمة .  
وقد ذهب أفلاطون إلى أن عدد النفوس ثابت لا يقبل زيادة ولا نقصاً .  
أما أنه لا يقبل الزيادة فذلك لأن هذه الزيادة ستأتى من الأشياء غير الحية ،  
وإذن فستكون على حساب الأشياء الغائبة . ومن ثم ينتهى الأمر بخلود جميع  
الأشياء ، أى أن ما كان فانياً منها بطبيعته ينتقل خالداً<sup>(١)</sup> . وأما أنها لا تقبل  
النقصان فذلك لأنها خالدة بطبيعتها ، فلو فويت لا تنقلت إلى طائفة الأشياء غير  
الخالدة ، ولا تنهى كل شىء إلى العدم .

وقد كانت تلك العقيدة الأسطورية أساساً بنى عليه أفلاطون رأيه القائل  
بأن النفس نقطة اتصال بين عالمين هما : عالم المثل ، أو المعانى الثابتة الدائمة الذى  
هبطت منه ، وعالم الحس أو الجسد الذى تحاول الخلاص منه ، كما يحاول السجين  
الفرار من سجنه . لكن ينبغى لنا ألا نفهم من هذا أن أفلاطون كان يرى أن  
طبيعة النفس مشتركة بين هذين العالمين ، أى أنها جوهر روحى ومادى فى  
آن واحد ، كما ذهب إلى ذلك بعض الفلاسفة . فإن فريقاً منهم — وهم  
القيثاغوريون — كان يرى أن النفس ، وإن كانت من جنس مخالف للبدن ،  
فإنها تتركب من جزئيات لطيفة لا تقع تحت الحس ، وأن هذه الجزئيات هبطت  
من الشمس فتطرفت إلى الأجسام فكانت سبب الحياة والحركة فيها . وذهب  
فريق آخر إلى أن النفس جوهر مادى لأنها تفيض من النار ، ولأنها لا تستطيع  
البقاء إلا إذا ظلت على صلة بهذه النار اللطيفة التى تعد أصلاً لها . وهذا هو رأى  
« هراقليطس » الذى كان يرى أن النفس تشبه جرة تظل موقدة ما دام  
الاستنشاق يذكيها . وقد ذهب فريق ثالث ، وعلى رأسه « ديمقريطس » إلى  
أن النفس الإنسانية تتركب من عدد من الذرات النارية التى تمتزج أتم امتزاج

(١) الجمهورية : السكاتب العاشر .

مع بعض الذرات الأخرى التي يتكون منها الجسم . وهذه الذرات النارية هي سبب الحياة ومبدأ الحركة في الجسم . فإذا قل عددها خارت قواه ، وإذا فارقت جملة حدث الموت ، وتبع ذلك تفرق الذرات الأخرى .

لكن أفلاطون رفض هذه الآراء جميعها ، ولم يرض بأحدها بديلا عن رأى سقراط . فالنفس لديه جوهر رוחي في حقيقة الأمر . ولأن لحقها التشويه ، بسبب اتصالها بالبدن ، فليس ذلك سببا في أن تتبدل طبيعتها جملة . وذلك لأنها إذا فارقت الجسم ، واستطاعت الصعود إلى المحل الأرفع الذي هبطت منه ، تحررت من كل مسخ أو تشويه لحقها في حياتها الدنيا . ولذا فإن ما تشعر به الروح في أثناء وجودها في الجسد من رغبة أو خشية أو ألم أو لذة ليس راجعا إلى طبيعتها الحقيقية ؛ وإنما إلى شعورها بأنها سجيننة ؛ وإلى رغبتها عن البقاء في سجنها وعجزها عن الفرار منه .

ومن جهة أخرى لما كانت النفس الإنسانية نقطة اتصال بين عالم المثل ، عالم الدوام والخلود ، وبين عالم الحس ، عالم الحدوث والتغير ، لم يكن من المستطاع أن يقف أحد على حقيقة جوهرها ؛ بل الإله وحده هو الذي يستطيع معرفة جوهر النفس لأنه خالقها . أما الإنسان فيعجز عن إدراك هذا الجوهر إدراكا حقيقيا ما دام سجين البدن . ولذلك فليس أمامه من سبيل إلى فهم طبيعة النفس إلى حد ما إلا إذا استعان على ذلك بنوع من القصص الذي يصور له أصلها ومصيرها ، على نحو يتقبله خياله . وهذا القصة هو الأساطير التي استخدمها أفلاطون ، على حسد سواء ، في بيان طبيعة النفس وفي البرهنة على خلودها . وسنرى بعد قليل كيف استخدمت الأساطير في تفسير هاتين الناحيتين .

ومها يكن من شيء فالنفس جوهر رוחي نجمل حقيقته . وليس لهذا الجوهر هم سوى البحث عن وسيلة إلى الخلاص من سجنه ، لأنه يتوق إلى معرفة

حقيقة أمره . ويذهب أفلاطون إلى القول بأن من واجب النفس التي أكرهت على الهبوط إلى أحد الأجسام أن تعمل ، ما استطاعت ، على تطهير نفسها من الأدران التي تلحقها بسبب وجودها في ذلك السجن الذي يعد قبرا لها . وليس للنفس أن تندب حظها . فلئن كانت تعسة ، بهبوطها من حياتها السماوية ، فما عليها إلا أن تحفف من سوء حظها بالعمل الصالح في أثناء هذه الحياة الدنيا ، حتى تعود مطهرة إلى سماها . وليس هناك ما يفوق الحكمة والمعرفة في تطهير النفس سوى نوع من الإلهام أو الفيض الإلهي الذي يغمر النفس دفعة واحدة ، فتشرق عليها المعرفة الحقة وتسمو بها . وهذا الفيض هو ما يطلق عليه أفلاطون اسم الحب المثالي الذي يشقى الإنسان من شقائه . أما الموت فهو سبيل الخلاص النهائي . ولذلك ينبغى للنفس ألا تجزع منه أو تخشاه ، فإنه هو الطريق الذي يصعد بها نحو العالم العلوي لتلقى فيه الثواب العظيم جزاء على ما لقيته من عذاب وحسرة وألم حين وجودها في البدن<sup>(١)</sup> . وإذن يمكن القول بأن الفيلسوف في هذه الحياة الدنيا ليس إلا كأسير لا هم له إلا محاولة الفرار . وأما النفس الخاطئة فما تزال ترتحل من جسد إلى آخر ، وما تبرح تعلو وتهبط في أثناء تجوالها فتقترب أو تبعد من عالم المثل « حتى يقبض الإله لها من أمرها رشداً ، فترقى إليه في نهاية الأمر .

ويعترف أفلاطون أن آراءه هذه لا تفسر حقيقة النفس تفسيراً كافياً . وكيف له أن يكون أكثر وضوحاً في بيانه لحقيقة هذا الجوهر السماوي ؟ إن سقراط نفسه لم يزد على القول بأنه من المرجح أن تكون النفس جوهرًا روحياً . ومن ثم يرى أفلاطون أن ليس للمرء أن يتوقع منه ، بعد ذلك ، بياناً شافياً في هذا الصدد . وكل ما يستطيع التصريح به في هذه المسألة هو أن يذكر له طرفاً من الأساطير التي ربما ساعدته على معرفة طبيعة النفس .

(1) Phédon. 66.e, 114. b/c.

### ٣ - الأساطير

يرع أفلاطون في هذه الناحية واستعان بها على تفسير كثير من المشاكل الفلسفية التي عرض لها بالدراسة ، ومنها مشكلة النفس التي نعالجها هنا ، وما يتصل بها كمشكلة المعرفة الإنسانية . وقد اتخذ القصص وسيلة إلى جمع آرائه في النفس ، حتى يأمن عليها الضياع أو التفرق ، ولسكى يثير انتباه سامعيه واهتمامهم ، فيوظفهم من سياتهم ؛ إذ القصص يثير الخيال ، والخيال يثير التفكير . وهناك سبب آخر ، وهو أنه أشار من قبل إلى أن معرفة النفس على حقيقتها لا تتاح للإنسان ذى المعرفة النافذة المحدودة ؛ بل الإله وحده هو الذى يعلم هذه الحقيقة ؛ وكل ما يستطيع أن يذكره الإنسان عن النفس ينحصر في تصويرها بإحدى الأساطير .

#### ( ١ ) أسطورة إرين أو أرمينيوس أو البامفيلية<sup>(١)</sup> :

يبدأ أفلاطون هذه الأسطورة بتذكير سامعيه أنه لن يقص عليهم إحدى قصص « الأوديسية » ، تلك القصص الخيالية التي رواها « هوميروس » شاعر الإغريق الأكبر ، بل قصة حقيقية لرجل شهيم هو « إرين أرمينيوس » أحد أبناء مدينة « بامفيليا » . فقد استشهد هذا البطل في إحدى المواقع . وبعد أن مضى على مقتله عشرة أيام هرع الناس إلى ميدان الواقعة ليجمعوا جثث القتلى التي بدا البلى يدب فيها ديبيا حينئذ . لكنهم وجدوا أن جثة « إر » ما زالت كما هي ، في حالة جيدة ، فحملوه إلى عشيرته تمهيداً لدفنه . ولما وضعوه في اليوم الثانى عشر على محفة الإحراق عادت إليه الحياة ، وأخذ يقص عليهم ما رآه في العالم الآخر . فذكر لهم أن نفسه لما غادرت بدنه اتخذت طريقها مباشرة نحو العالم الآخر في صحبة عدد كبير من النفوس الأخرى . فأنهى المسير بها جميعاً

(1) Le mythe d' Er le pamphylien :

ذكر أفلاطون هذه الأسطورة في كتابه الجمهورية 614a-618 La République

إلى مكان تحت سطح الأرض توجد لديه فتحتان تهبطان إلى أعماق الأرض. تقابلهما فتحتان أخريان تتجهان نحو السماء ، ورأوا جمعا من الفضاة قد اتخذوا لأنفسهم مجلسا بين هذه الفتحات في ميدان فسيح ، لكي يحكموا بين النفوس التي كانت تقبل عليهم من الحياة الدنيا . فكانوا يأمرون الصالح منها بالاتجاه نحو الميمنة ، وبأمرين الطالح منها بالاتجاه نحو اليسرة . أما أصحاب اليمين فكانوا يصعدون صوب السماء ، وقد حملوا على صدورهم ألواحا دوت فيها الأحكام الخاصة بهم ، وأما أصحاب الشمال فكانوا ينحدرون في طريق هابط ، وقد كتبت أفعالهم في صفحات علقت على ظهورهم . فلما اقترب بدوره من القضاة أخبروه أنه سوف يعود من حيث أتى ، لكي يخبر الناس بما رأى في هذا العالم الذي يوجد تحت الأرض ، وأمره أن يسمع ويلاحظ ما يدور أمامه في هذا المكان . فرأى نفوسا يتجه بعضها إثر بعض نحو إحدى فتحتي الأرض بعد أن علمت كل منها مصيرها ؛ بينما كانت الفتحة الأخرى تقذف بنفوس تصعد مجهدة مكفهرة من باطن الأرض وقد علمت غيرة ، وكانت تهبط من إحدى فتحتي السماء نفوس راضية طاهرة . وكان يبدو أن كانتا الطائفتين آتية من رحلة بعيدة .

ثم ضربت النفوس خيامها في مكان فسيح كما لو كانت في عيد حافل . وكان إذا عرفت نفسٌ نفساً أخرى بادلتها التمجية . وسأت النفوس الصاعدة من جوف الأرض أخواتها الهابطة من السماء عمّ رأت في عالمها ، وكذا العكس وأخذت نفوس أخرى تقص مآسيها وتنبئ وتنتحب ، وهي تذكر الآلام التي ذاقها في أثناء رحلتها في جوف الأرض ألف سنة . أما النفوس الصالحة فكانت تقص أخبارها ، وتحدث أخواتها اللاتي شهدن العذاب عن ملذات السماء وعن مظاهر الجمال اللانهائي فيها .

وعلم « إرّ البامبلي » أن النفوس التي ارتكبت بعض الخطايا الجسام

كقتل النفس أوسب الآلهة تعاقب عقاباً مفرطاً ، وتظل في العذاب دهوراً طويلاً ، وأن النفوس الطاهرة تلتقي الثواب العظيم جزاء وفا على ما قدمت من خير في أثناء حياتها الدنيوية . ثم تذكر قصة رجل مستبد طاغية ، فأخذ يبعث عنه بعينيه ليعلم كيف كان مصيره ، فلم يجده . وفجأة رآه يحاول الخروج من فوهة الأرض في صحبة جماعة من المستبدين والسفاحين والقتلة . وفي تلك اللحظة التي خيل فيها إلى هؤلاء أنهم أوشكوا أن يودعوا العذاب خلف ظهورهم ارتجت الأرض وزلزل زلازها ، وأوصدت الفتحة في وجوههم ، فكان لذلك دوى عظيم . وجاءت جماعة من الزبانية يجرون هؤلاء مكبلين بالأغلال التي كانت تنوء بها أعناقهم وأيديهم وأرجلهم .

ثم بدت إلهة المصير وأخذت تنادى النفوس : أيتها النفوس العابرة ! سوف تبدأن حياة جديدة ، وسوف تولدن في أجسام فانية . وليس الشيطان هو الذي سوف يقترع لسنن ؛ بل أنتن اللاتي ستخترن شيطانكن . وإن أول شيطان يخرج بالافتراع هو أول من يختار الحياة التي سوف يكون قريناً لها بالضرورة<sup>(١)</sup> . إن كل نفس مسؤولة عن اختيارها ، وليس للآلهة دخل في هذا الاختيار .

وعندئذ أقلت الإلهة نماذج الافتراع على النفوس ، فأخذت كل نفس منها النموذج الذي وقع على مقربة منها . ولما أراد «البامفيلي» أن ياتقط نموذجاً قيل له إنه لا حاجة به إلى ذلك . وحينئذ علمت كل نفس من أي مجموعات الأجساد سوف تختار جسماً لحياتها المستقبلية عن وجه الأرض . فقد كانت هناك مجموعات تحتوي على عدد كبير من الأجسام التي تفوق في جلتها عدد النفوس الموجودة . ولم تكن هذه الأجسام خاصة بالبشر وحدهم ، بل كانت تحتوي أيضاً على جميع أنواع الحيوان . وهنا يلعب الحظ دوره . فقد تختار النفس أحد أجساد المستبدين

( ١ ) كان الإغريق يعتقدون أن اسكل نفس شيطاناً أو قريناً يصحبها طول الحياة .

أو الرجال المشهورين أو النساء الجميلات أو بعض الأجسام الصحيحة . وقد تختار أحد أجسام الحقى أو المغمورين أو الأشرار أو أحد أجسام النساء المغمورات أو القبيحات أو بعض الأجسام المريضة أو أجسام كلاب أو صقور أو حمير . وتلك لحظة دقيقة يُقرَّر فيها مصير النفوس . وحينئذ فليس الاختيار مطلقاً . ومع ذلك فليس للنفوس التي أساءت الاختيار أن تندب حظها . فقد كان عدد الأجسام التي تضمها كل مجموعة من هذه المجموعات كبيراً جداً إلى درجة أن آخر النفوس اختياراً تجدد أمامها عدداً كافياً منها . وهناك عامل آخر يحدد هذا الاختيار ؛ فإن لمواقع النجوم تأثيراً كبيراً في توجيه النفوس . وعلى هذا النحو يمكن القول بأن هناك نوعاً من القضاء المبرم ، وأنه ليس لهذا الاختيار في الحقيقة سوى مظهره ؛ ذلك أن طائفة من النفوس تجيد الاختيار من أول فرصة تتاح لها ؛ بينما كتب على بعضها أن يتعثر ويشقى طويلاً، فلا يهتدى إلى الاختيار الجيد إلا بعد طول عناء . وهذه هي نفوس الطغاة والمجرمين .

وإما كانت كل نفس مسئولة عن اختيارها لأن الآلهة لم تفرض عليها جسماً معيناً بالذات ، ولأنها هي التي اختارت الشيطان أو الجن الذي سوف يقود خطاها في حياتها المقبلة . وبدورها أن تحاول كل نفس - إذا ما سنحت الفرصة - أن تختار حياة موفقة حتى لا تتردى مرة أخرى في أخطائها السابقة التي أدت بها إلى العذاب طيلة ألف سنة . وتجدد النفس في ذكورها بعض آثار الحياة الماضية فتسترشد بها في اختيارها الجسم الجديد .

لكن يجب التفرقة بين نوعين من النفوس . فهناك نفوس استطاعت التطهر من أدرانها ، وهي النفوس السعيدة التي تصعد صوب السماء ، وتنطلق إلى العالم العقلى لسكى تذوق فيه النعيم جزاء على ما كسبت من خير ، وتلك النفوس هي نفوس الفلاسفة ، التي إذا استطاعت أن تحسن الاختيار ثلاث مرات متتالية -

مرة في كل ألف سنة - فإنها تبتعد عن هذا العالم الحسى . أما النفوس الأخرى فإنها إذا انتهت من حياتها الأولى لقيت حسابها ؛ فيذهب فريق منها إلى باطن الأرض ، لكي يكفر بالعذاب عن ذنوبه ، ويذهب فريق آخر إلى مكان خاص في السماء ، ليحيا حياة هائلة رضية . فإذا مضت ألف سنة أخرى عادت النفوس جميعاً إلى صعيد واحد لمتخار حياتها الثانية<sup>(١)</sup> ، سواء تلك التي كانت في الأرض أم في السماء .

ويذكر لنا أفلاطون في أحد كتبه<sup>(٢)</sup> أنه لا سبيل إلى الخلاص من عالم الحس ، ومن طول الارتحال والاختيار بين ضروب مختلفة من الحياة الدنيوية إلا بالمعرفة الحقة ، أى بالفلسفة التي تحرر النفس ، فتنطق من أسرها دون عودة . ومعنى ذلك أن الفلسفة هي التي تحل وئاق النفس ، وتعمل على تطهيرها مما لحقها بسبب اتصالها بالبدن ؛ لأنها تصبح مصفدة بالأغلال عندما تتصل به ، كأنما تحل في سجن لا فكاك منه . وأكثر من ذلك ، فإنها لا تستطيع إدراك الحقائق إلا عن طريق بعض المنافذ التي تقفها على العالم الخارجى ، أى ببعض الحواس التي تثير لديها كامن المعرفة السابقة ؛ وذلك بدلا من أن تعتمد على وسائلها الخاصة ، أى على الإدراك العقلى أو الحدس الروحى الخالص . وهكذا تنحط إلى مرتبة الجهل المطبق . وتبدو ضرورة الفلسفة أشد إلحاحاً ؛ لأنها هي التي توقف النفس على حقيقة سجنها ، وتبين لها أنه من نسج أهوائها ورغباتها ، وأنها هي التي تزيد أغلالها ثقلا عند ما تخصع لنزواتها . ولذا فإن النفس متى فارقت جسمها فارقت ، وقد علفت بها بعض آثاره ، لطول ما امتزجت به . فلا تلبث أن تهبط من جديد بسبب ثقلها ، وتحل في جسم آخر ، وتحرم هكذا من السعادة التي تنعم بها النفوس العارفة التي اتخذت الحق والمعرفة العقلية غذاء لها .

(1) Phèdre, 249, a/b.

(2) Phédon, 82—84,y .

والفلاسفة هم — كما يقول أفلاطون — خيرٌ من يُعد النفوس لاجتياز هذا الطريق الصاعد الوعر ؛ لأنهم هم الذين يبينون للنفوس حقيقة القيم الخلقية ؛ فيفترقون لها بين الخير والشر والحسن والقيبح ، ويبرهنون لها على خلودها ، فإذا وعت النفس الحكمة كانت أقدر على حسن الاختيار في الدورة المقبلة<sup>(١)</sup> .

### ب — أسطورة العربة :

لقد صور لنا أفلاطون في هذه الأسطورة حالى النفس الراهنة والمستقبلية تصويراً رائعاً فقال<sup>(٢)</sup> : إن النفس ، سواء أكانت إنسانية أم إلهية ، تشبه عربة يجرها جوادان ويقودها سائق ، وقد ركب أسكل من الجوادين والسائق جناحان . يمكناه من الصعود نحو السماء . والسكن النفوس الإلهية — ويعنى بها تلك التى تشرف على حركة الأفلاك والأجرام السماوية — تختلف عن نفوس البشر من هذه الجهة وهى : أن جواديهما متماثلان تماما ، وهما من خيرة الجياد لا يفترق أحدهما عن الآخر أدنى اختلاف ؛ بل يسيران بخطا واحدة ، وكأنهما جواد واحد قد شق جوادين . وليس الأمر كذلك فيما يتعاق بالنفوس الإنسانية . ذلك أن أحد جواديهما عريق الأصل طيب الأعراق سلس القياد مطواع ، وأما الآخر فردىء الطبع جامع غضوب عصى<sup>(٣)</sup> . ولا يحتاج السائق فى قيادة الجواد الأول إلى كبير عناء ؛ بل يكفي أن يشجعه ويستحث خطاه بمجرد الصوت . وأما الجواد الآخر فلا يطيع إلا إذا قهر ، ونال السوط من جسده . وهذا هو السبب فى أن قيادة العربة وحسن توجيهها ليسا بالأمر اليسير . ويرجع ذلك كما نرى إلى صعوبة التوفيق بين طبيعة كل من هذين الجوادين المتنافرين بل المتناقضين .

(1) Phédon, 246,d-252. (2) République, 618, et suiv .

(3) رمز أفلاطون بالسائق للمقل ، والجواد سلس القياد للارادة ، والجواد العصى للارغبة .

أو الشهوة . أنظر وصف هذين الجوادين فى كتابه فيدر : Pèdre, 258,d/e .

ولما كانت طبيعة النفس على هذا النحو الذى سلف تصويره كان من الطبيعى .  
أن تحاول الصعود بأجنحتها صوب ذلك العالم العالوى الذى يوجد فيما وراء السماء .  
لكن ليست النفوس جميعها سواء فى القدرة على الصعود والنجاح فى حفظ توازن .  
العربة . ذلك أن النفوس الزكية التى تستطيع قهر الجواد العصى وإزامة خطا الجواد  
المطواع ؛ بينما تجرد النفوس الخبيثة أكبر مشقة فى التوفيق بين الجوادين .  
وإنما تتوق النفوس — زكية كانت أم خبيثة — إلى السمو وإلى التحرر .  
من عالم الحس ، لأنها كانت توجد فى مكان على قبل هبوطها إلى أجسامها ، وكانت  
تحيط علماً بكل شيء ، أى أنها كانت تدرك فى عالمها الأول معانى الأشياء ، وهى .  
الحقائق التى لا شكل لها ولا لون . فلما غدت سجينة البدن أو الطين — وكلا التعبيرين .  
سواء لدى أفلاطون — غابت عنها هذه المعانى فنسيتهما ، وشغلت عنها بالجسم الذى  
عهد إليها به . ولذا متى رأت ما يحتوى عليه العالم الحسى من أشياء متغيرة متحولة  
ذكرت تلك المعانى أو المثل التى سبق أن رأتها فى العالم العقلى . وإذا تذكرت  
النفس ما شاهدت من قبل تاقت مرة أخرى إلى تأمله ؛ لأن فى هذا التأمل .  
سعادتها . كذلك تذكر النفس هذه المثل وعالمها الأول إذا رأت جمالا حسيا  
يذكرها بالجمال العقلى الذى يفوقه بهاء ورونقا ، فنشتاق إلى رؤيته . وهذا الشوق .  
هو الذى يسمو بها إلى عالم الجمال . فإذا ما انتهت إليه أدركت السعادة الكبرى .  
وذلك لأنها إذا تأمات هذا العالم وشاهدته أدركت حقيقتها وجوهرها ، وعلمت  
أنها من جنس هذا العالم ، وأنها هبطت منه ، وأن الجمال الحسى الذى كانت تراه  
من قبل ليس إلا صورة مشوهة لا تسكاد تعبر عن هذا الجمال الأبدى الخالد .  
فالمرفة الحقة أو الفلسفة هى التى تهى النفوس للصعود . أما النفوس التى  
قد يتاح لها أن تتصل بالعالم العالوى دون سابق استعداد فإنها تضطرب ويعشى  
الضوء ناظرها حتى ليوشك أن يذهب ببصرها ، فلا يجذبها هذا العالم نحوه ؛

بل ترند خاسئة ، وتنحط دفعة واحدة إلى مرتبة البهيمة ، أو إلى ماهو أدنى ذلك .  
ومن الطبيعي أن تتوق النفوس جميعها إلى الاتصال بعالم الحق والخير  
والجمال . ويدعوها هذا الشوق إلى أن تتدافع وتزاحم وتسمو في موكب خضم  
يتقدمه « زيوس » الذى يشرف على صعودها . ويتألف هذا الموكب من  
أحد عشر فيلقا يشرف على كل فيلق منها إله أو نفس سماوية . ولكل فيلق  
مقامه ، ولكل نفس فيه مرتبتها التى تختلف تبعا لطبيعة تركيبها . ثم يتجه  
الركب بأسره صوب العالم العلوى لىكى ينعم بما يفيض عليه من ضيائه وهباته  
وجماله . ولكن ليس من المستطاع أن تدرك النفوس جميعها هذه الحظوة الكبرى ،  
حظوة الوصول والمشاهدة ؛ فإن نظام السكون نفسه لا يتيح ذلك إلا لعدد قليل  
منها ، وهى نفوس الآلهة وبعض النفوس الإنسانية التى تحاول محاكاتها ، وتنتهى  
إلى التشبه بها إذا كانت على جانب كبير من الصفاء والرغبة فى الصعود .

ولا تجد النفوس الإلهية مشقة ما ؛ بل تصعد فى يسر بسبب تجانس جواديتها  
وطيب أصلهما ، ويساعدها على ذلك أيضا أن بها جوعا إلى العالم المثالى . فإذا  
ما انتهت إلى حافة السماء ، ومعها بعض النفوس البشرية المجتابة ، حملتها حركة  
الفلك ؛ فأخذت تتأمل الحقائق التى توجد خارج السماء . لكننها لا تستطيع  
مغادرة السكون ؛ بل تظل على حافته وتطل منه على العالم الآخر . والسائق  
وحده هو الذى يتاح له وقتئذ أن يلتقى ببصره صوب تلك الحقائق التى لا يدركها  
الحس ؛ لأنها أدق والطف وأشد بهاء من أن تراها عين ، أو تسمعها أذن ، أو تلمسها يد .  
ولا يقدر للنفوس الإلهية أن تتأمل عالم الخير والحق والجمال إلا بقدر معلوم ،  
أى طيلة الوقت الذى تستغرقه الحركة الدورية للعالم . فإذا عاد الفلك إلى نقطة البدء  
هوى السائق بعربته داخل السماء ، وهى مقامه الطبيعى . وحينئذ يقدم لجواديه  
غذاء الخلود وشرابه ؛ لىكى يستطيع الاحتفاظ لهما بأجنتهما والصعود بهما مرة

أخرى في الدورة التالية . أما النفوس البشرية التي نالت هذه الخطوة فتحاول الاحتفاظ بأجنحة جواديهما هي الأخرى ، لكن دون جدوى . ولا يقوى سائقوها على رفع رؤوسهم دائماً لتتأمل العالم الآخر ، عالم العقل والخير . ولما كانت رغبتها في التأمل جامحة فإنها تتدافع بالمناكب ، وتحاول كل منها سبق أخواتها ، فيؤدى التنافس بينها إلى فساد الأجنحة واضطراب الجوادين . فتعجز عن الاحتفاظ بمكانها على حافة السماء ، وتضطر إلى الهبوط قبل تمام الدورة . ولا تتمكن من التغلب على هذه العقبة السكّاء سوى النفوس القوية ، قهوى برفق ، على حين أن النفوس الأخرى تهوى بشدة ، ولا تقف في سقطتها إلا بعد أن تدرك الأرض .

وأما الغالبية الكبرى من النفوس البشرية فتعجز عن مشاركة هذا الأفق الرحب لعدم تجانس جواديهما ، أى بسبب اختلاط الخير بالشر فيها . ذلك أن وجودها في البدن كان سبباً في تشويه طبيعتها ومسح جوهرها . وهذا هو ما يعبر عنه أفلاطون بقوله : إن هناك تنافساً بين الجوادين اللذين يقودان العربة . ومهما يكن من أمر فإن هذا التنافس يؤدى إلى هبوط النفس بدلا من صعودها ؛ إذ أن عيوب الجواد الجامح الفضوب تمحو مزايا الجواد الطيب المطيع ، فيعجز السائق عن حفظ التوازن بينهما . ثم يقع ذلك اضطراب شديد في موكب النفوس الصاعدة فتثقل الأجنحة ، وتهبط النفوس نحو الأرض .

فهناك إذن نوعان من النفوس الساقطة : أخذ بعضها بنصيب من تأمل حقائق العالم العلوى ، وحرّم بعضها هذه الرؤية . وليس معنى الهبوط أن النفس تفقد أجنحتها جملة ؛ بل تنقص هذه الأخيرة ، وتظل منكمشة حتى يتاح للنفس ، مرة أخرى ، أن تتذكر المعاني التي سعدت برؤيتها من قبل ، وحينئذ يابح بها الهوى وتتمنى إلى الصعود من جديد ، فتقوى أجنحتها ، وينبت الريش فيها ، وتتخذ

طريقها صوب السماء . وطبيعي أن تكون النفوس ، التي رأت جزءاً من العالم .  
العقلى ، أكثر حظاً في الصعود من غيرها . وذلك أنها تستطيع البقاء حتى الدورة  
التالية ، دون أن تخضع لعوامل الكون والفساد ، اللهم إلا إذا فسدت طبيعتها  
في هذه الأثناء ، ونسيت ما رأت . ومع ذلك فإنها تحمل في أجساد أشخاص  
يحبون المعرفة والجمال . أما النفوس التي لم تحظَ بالرؤية فنظل ترتحل عشرة  
آلاف سنة ، ثم يتاح لها الاختيار الذى قد ينتهى بها إلى إدراك غايتها .

ويرى أفلاطون أن النفوس ليست سواء في حسن الحظ أو سوءه . فإنها  
لما كانت تحسن أو تسيء الاختيار تبع ذلك أيضاً تختلف في القدرة على  
الصعود والحق بعالمها الأول . ويمكن التمثيل لذلك بكل من نفسى الفيلسوف  
والمستبد . فإن نفس الأول تختار جسداً أفضل من الجسد الذى تختاره نفس  
الآخر . ولذا فإن حظ الأول في النجاة يفوق حظ الثانى بكثير ، وقد فسر  
أفلاطون ذلك بأن قال : إن نفس الفيلسوف تصعد إلى السماء وتبقى فيها  
ألف سنة ، ثم تهبط إلى الأرض لتبدأ حياة ثانية . فإذا كانت هذه شبيهة بحياتها  
الأولى صعدت إلى السماء ، وبقيت فيها ألف سنة أخرى . ثم تهبط مرة ثانية  
إلى الأرض ، وتبدأ حياة ثالثة . فإذا كانت هذه شبيهة بالحياتين السابقتين كتب  
لها الصعود نهائياً ، أى أنها تعود بمكررة إلى العالم الذى هبطت منه . وليست  
العودة إلى هذا العالم وقفا على الفلاسفة وحدهم ؛ بل تتاح أيضاً لبعض النفوس  
الكريمة الخيرة . وتشغل هذه في السماء مكاناً أدنى من مكان الفلاسفة .

### ح - أسطورة الكرف :

ترتبط هذه الأسطورة ارتباطاً وثيقاً بالأسطورتين السابقتين ؛ لأنها تفسر  
ناحية أخرى من نواحي النفس ، وهى الناحية الخاصة بالمعرفة الإنسانية . فإن

الفسطاطيين كانوا يرون أن المعرفة تأتي من الخارج ، أى أن المرء لا يكتسبها إلا عن طريق حواسه . ولما كانت هذه الحواس تختلف من شخص إلى آخر ، ولما كانت تتفاوت لدى الشخص الواحد ، تبعاً لاختلاف الظروف التى تحيط به ، فإنها لا تؤدى إلى حقائق عامة ؛ بل تنتهى فقط إلى نتائج نسبية . وهذا هو ما كانوا يعبرون عنه بأن الفرد مقياس كل شيء ، وبأن لكل امرئ حقيقته الخاصة به . فإزاء أفلاطون يقرر ، على العكس من ذلك ، أن المعرفة لا تكتسب على هذا النحو الذى وصفه الفسطاطيون ؛ بل هى فطرية فى النفس . وذلك لأن هذه الأخيرة كانت تدرك حقائق جميع الأشياء فى عالمها الأول ؛ عالم المثل . فلما هبطت منه إلى الأرض ، وحلت فى أحد الأحسام ، غابت عنها هذه الحقائق فنسيها . وهذا هو معنى الجهل لديه . لكن هذا لا يحول دون أن تحتوى النفس بطبيعتها جوهرها على بذور المعرفة . والدليل على ذلك أنها إذا رأت الجمال فى عالم الحس تذكرت أنه خيال وظل للجمال حقيقى شاهدته من قبل . وتتفاوت النفوس فى التذكر تفاوتاً كبيراً . فهناك عدد قليل منها يمتاز بالقدرة عليه . أما الغالبية الكبرى فتضل فى غياهب الجهل ، وذلك لشدة تعلقها بالعالم الحسى الذى تظننه الوجود الحقيقى . وقد استخدم أفلاطون أسطورة من أساطيره فى شرح هذه النظرية وتصويرها على نحو يدينها من الخيال فقال : إن الناس فى هذه الحياة الدنيا يشبهون جماعة من الأسرى وجدوا منذ طفولتهم فى كهف عميق مظلم لا يتطرق إليه الضوء إلا من فتحة توجد خلف ظهورهم ، وقضى عليهم أن يولتوا وجوههم نحو قاع الكهف دائماً ، وقد أثقلت أعناقهم وأيديهم بالسلاسل والأغلال ، فلا يستطيعون حراكاً ، ولا يرون أن هناك ناراً عظيمة توجد على مرتفع كبير بعيد عن الفتحة ، وأن هناك طريقاً يفصل بينهم وبين هذه النار ، وأن ثمة جداراً يرتفع قليلاً ويمتد مع الطريق ، ويشبه تلك الحواجز التى يقيمها أصحاب لمبة الدمى ،

ويجاولونها بينهم وبين الجمهور سداً ، ويستخدمونها في إظهار براعتهم في تحريك تلك الدمى الناطقة . كذلك لا يرى هؤلاء الأسرى أن هناك رجلاً يبرون بجوار ذلك الجدار ، ويحملون في أيديهم أو على رؤوسهم نماذج من الخشب والحجر تمثل أناساً وأنواعاً مختلفة من الحيوان ، بحيث تبرز على حافة الجدار . وترتفع أصوات بعض هؤلاء الرجال ؛ بينما يمر الآخرون صامتين لا ينطقون ببنت شفة . ففي هذه الحال لا يرى أهل الكهف أمامهم شيئاً سوى ظلال هذه الدمى وأشباحها ، فيظنون أنها توجد حقيقة ، ولا يدور قط بخلد أحدهم أن وراءها دمى حقيقية تتحرك . كذلك يخيل إليهم أن ما يسمعونه من صدى يتردد في جوانب سجنهم أصوات تلك الظلال والأشباح . فليس من العجيب إذن أن يحكموا بأن ما يرون من أشباح وسمعون من أصوات أمور حقيقية .

ولسكن ما الذى يحدث؟ وماذا يكون رد فعل هؤلاء لو حللناهم من قيدهم ، وحططنا أغلالهم ، وشقيناهم من جهلهم ؟ أى ماذا عسى أن يحدث لو حررنا أحد هؤلاء الأسرى ، وأرغمناه على النهوض فجأة ، فأدرنا عنقه ، ثم أمرناه أن يرفع بصره نحو الضوء ؟ لا ريب فى أن هذه الحركات سوف تجهده وسيغشى هذا الضوء العظيم وجهه ، ويكاد يذهب بناظره ، فيحول بينه وبين رؤية الدمى التى كان يرى ظلالها منذ قایل . ولو قلنا له إن هذه الدمى التى تمر أمام الفتحة هى التى توجد حقيقة، وأنه لا وجود لأشباحها وظلالها، ولو أخذنا نضيق عليه السبل من كل جانب، ونسأله أن يخبرنا عن أسماء هذه الدمى لاختلط عليه الأمر ، ولبدت له الأشياء التى كان يراها فى قاع الكهف أظھر وجوداً من تلك التى يراها الآن ، ولحاول أن يدير رأسه إلى باطن الأرض للفرار من ذلك الضوء الذى يسبب له ألماً شديداً . ولو جذبناه بعنف وأكرهناه بالقوة على تسلق جدار الكهف ، ولم ندعه يقات من أيدينا إلا بعد أن نخرجه إلى ضياء الشمس للقى عنقاً ومشقة ، ولثارت ثائرتة

علينا فإن شدة الضوء تعميهِ ولا تدعه يرى شيئاً من تلك الدمي التي نحدته عنها . لكنه لن يلبث أن يألّف الضوء قليلاً قليلاً ، وعندئذ يستطيع رؤية تلك الدمي . ومع ذلك فإنه لا يصل إلى هذه النتيجة دفعة واحدة ؛ بل لا بد له من طول المتابعة والتدرج . فيجب عليه أن يبدأ بأيسر الأمور ؛ بأن ينتقل من الأشباح والظلال إلى صور الأشياء حين تنعكس على صفحة الماء ، ثم إلى هذه الأشياء نفسها . فإذا ألّف بصره الضوء بعض الشيء رفعه نحو النجوم والقمر : وأخذ يتأمل السماء في أثناء الليل ، دون أن يجد في ذلك من العناء ما كان يجده لأول مرة ، عندما أكره على النظر إليها في وضوح النهار . ومن ثم فإنه يستطيع رؤية الشمس نفسها في نهاية الأمر . وهكذا يهتدى إلى هذه الحقيقة ، وهي أنها هي التي توجد الفصول والسنين ، وتسيطر على كل شيء في هذا العالم الحسي ، وأنها السبب في وجود جميع تلك الأشباح والظلال التي كان يراها هو ورفاقه على جدار الكهف .

فإذا فكر في أصحابه ورفاق سجنه وجد أن علمه وعلمهم لم يكن في حقيقة الأمر شيئاً مذكوراً ؛ بل كانوا في جهالة عمياء ، وأخذته بهم الشفقة . لكن هذه الشفقة لا تحفزه إلى الرغبة في العودة إليهم ؛ ذلك لأنه يفضل أن يظل خارج الكهف ، وأن يعمل كأجير لأحقر فلاح على سطح الأرض ، وأن يتحمل جميع الآلام الممكنة ، بدلا من استئناف حياته السابقة والرجوع إلى أوهامه الأولى . لقد كان رفاقه في الأسر لا يرضون بجميع صنوف المديح والثناء على هؤلاء المهرة الذين كانوا يستطيعون ترتيب الأشباح التي تمر أمامهم حسب ظهورها ؛ ولكنه أصبح يرغب عن هذا المديح والثناء من أجل تلك المهارة النافذة التي تنصب على أمور لا طائل تحتها .

وإذا قدر لهذا الرجل أن يهبط إلى الكهف مرة ثانية ، وأن يأخذ مكانه الأول بين الأسرى ، فإن الانتقال المفاجئ من الضوء الشديد إلى الظلمة الدامسة بعشى بصره ، فلا يرى الأشباح التي كان يراها قبل صعوده . ولو طلب إليه - قبل أن يألف الظلمة من جديد - أن يتبارى مع السجناء ، الذين لم يغادروا قط أغلالهم ، في التنبؤ بما سيظهر من ظلال وأشباح لأعشى موضعاً لسخريةتهم وتمسكهم ، واجتز عن مجاراتهم وقالوا عنه : إنه لم يكن من صعوده سوى فساد بصره وعقله ، وما كان أغناه عن بذل كل هذا العناء في تسلق جدران الكهف ! ولو جاء رجل يفك أسرهم ، ويحاول الصعود بهم كما فعل بصاحبهم ، لما ترددوا في الفتك به ، خشية على أنفسهم من سوء المصير !!

تلك هي الأسطورة التي تفسر لنا حال النفس فيما يتعلق بالمعرفة . وقد فسر أفلاطون رموزها فقال : إن الكهف هو عالمنا الحسى ، ونحن فيه كالأسرى ، وليست محاولة الإفلات منه والصعود نحو الضوء العظيم إلا تصويراً للنفس التي تبذل جهدها في التحرر من أهواء البدن ، لتشرف على عالم العقل والخير ، ولتنعم بما فيه من جمال وبهاء . وأما الشمس فهي مثال الخير ، وهو أسبى المثل لدى أفلاطون . وأما الرجل الصاعد فهو الفيلسوف الذي تحرر من جميع رغباته الحسية ، وشملت الأمور الإلهية ، ومع ذلك ، فإنه لا يسلم من تقريع العامة التي ترميه بالخيل ، دون أن تدرك أنه قد ألهم الحقيقة ، وأنها هي التي ضلت سواء السبيل . ذلك أن النفس لما سقطت وتدهورت وفسد جوهرها ، بمخالطها لبدن غلبها على أسرها ، اتجهت نحو الظلم ، وزادت ابتعاداً عن الخير بسبب معاشرتها لأهل السوء .

## ٤ - البرهنة على خلود النفس

حاول سقراط أن يبرهن لتلاميذه على بقاء النفس بعد الموت . غير أن برهانه لم يكن في حقيقة الأمر سوى أمل في إدراك السعادة في حياة أخرى . لذا لم يكن هذا الأمل وحده كافياً في إقناع بعض أتباعه الذين أحاطوا به يوم استعداده لنفاذ الحكم فيه . فقد ذكر أحدهم أنه يحق له الاعتراض بأن النفس لا تستمر في الوجود إذا غادرت البدن ، بل الأخرى بها أن تغنى بعد مفارقتها ، فتتبدد على هيئة الدخان الذي تعيث به الريح فلا تبقى منه على شيء أو تذر . حقا ما أجمل الأمل في بقاء النفس بعد تحررها من آلامها وشهواتها ورغباتها ! ومع ذلك ، فلا بد من البرهنة على هذا الخلود ، إذ بين الأمل والبرهان شوط بعيد . وقد أخذ سقراط ، ساعة احتضاره ، يبين لتلاميذه الأسباب التي تدعوه إلى الإيمان بخلود النفس ، فذكر لهم من بينها هذا السبب ، وهو أن للأشياء عوداً على بدء ، بمعنى أن الحياة يتبعها الموت ، وأن الموت يتبعه الحياة .

لكن أفلاطون يرى أنه ليس ثمة قيمة لمثل هذا البرهان إلا بشرط أن يكون قائماً على أساس من طبيعة النفس . فإن هذه لما كانت جوهرًا قائمًا بذاته، ولما كانت تنتسب إلى عالم آخر مختلف كل الاختلاف عن العالم الحسى الذى توجد فيه . وقت اتصالها بالبدن ، لم يكن بد حينئذ من أن تعود إلى حالها الأولى ، متى استطاعت الفرار من الجسم الذى حلت به ، وهذا معناه أنها خالدة . وقد ذكرنا كيف استخدم أفلاطون الأساطير فى بيان طبيعة النفس ، ورأينا كيف ترتبط لديه إحدى هاتين المسألتين بالأخرى ارتباطاً كبيراً . ومهما يكن من أمر فإن براهين سقراط كانت تبدو فى نظر تلميذه غير جديرة بأن تسمى كذلك ؛ لأنها أقرب إلى الحدس منها إلى المنطق . وهذا هو السبب الذى دعاه إلى العناية

السكبرى بمسألة خلود النفس ، وإلى تعداد البراهين على هذا الخلود في مواضع مختلفة مع كتبه .

### ١ - برهان الحياة والحركة :

بنى أفلاطون هذا البرهان على أساس من طبيعة النفس ، فبين أن الحياة والحركة صفتان جوهريتان في النفس لا تنفكان عنها ، سواء اتصلت بالجسم أم فارقته . فإننا نعلم من جهة أنها إذا وجدت في البدن سرت فيه الحياة ، وأنها إذا تركته أدركه الموت وأسرع إليه البلى . فهي إذن سبب الحياة ما في ذلك ريب ، والحياة صفة أساسية فيها . وليس من المعقول أن تكون النفس فانية كالجسم الذى تحمل فيه ، على الرغم من اختلافها عنه بهذه الصفة الجوهرية . كذلك نعلم من جهة أخرى أننا نستطيع التفرقة بين نوعين من الكائنات . فهناك طائفة من الأشياء تتحرك بذاتها ، وأخرى تتحرك حركة غير ذاتية ، أى تكتسب هذه الحركة من مبدأ آخر مخالف لها . ومن الواضح أن هذه الأشياء الأخيرة تفقد حركتها إذا انقطع محركها عن تحريكها . أما الجواهر الأولى فإنها تتحرك حركة دائمة ، وليس لها أن تكف عن هذه الحركة أبداً ، وذلك لأنها تتحرك بذاتها ، وذاتها ثابتة لا تتغير . فهي مبدأ أو سبب لحركتها الذاتية . وحينئذ فليس من الممكن بحال ما أن تكون حادثة عن شيء آخر مخالف لها ؛ وإلا لوجب ألا تكون لها الحركة باعتبار ذاتها . ومعنى ذلك أنها غير حادثة . فإن القول بحادث الحركة يتعارض مع القول بأنه يتحرك حركة ذاتية . وإذا أثبتنا قدم الحرك على هذا النحو وجب علينا التسليم بأنه غير فان ، وإلا سلبناه إحدى صفاته الذاتية . فالبرهنة على قدم الحرك دليل فى الوقت نفسه على بقائه . ويمكن تطبيق التفرقة السابقة على كل من النفس والجسم ؛ فإن النفس

هي السبب في حركة الجسم ، وهي التي تخضعه لأوامرها وتدبره وتوجهه ، كما سبق أن رأينا ذلك في حوار سقراط مع السيبياذ . وأما الجسم فليست الحركة صفة ذاتية فيه . وليس بممكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك . فمن المسلم به أن الجسم لا يخلق أفعاله ، ولا يصدرها لنفسه ؛ وإنما يتقبلها من النفس التي تأمره بالقيام بها . فيجب إذن أن تكون النفس متحركة بذاتها ؛ إذ كيف لها أن تخلع الحركة على غيرها مع أنها لا تتصف بهذه الصفة ، ونحن نعلم أن فاقد الشيء لا يمكن أن يكون مصدرأله . فإذا ثبت لنا أنها تتحرك بذاتها ، وأنها تتحرك غيرها إذا اتصلت به ، وجب أن تسكون غير حادثة . وإذا ثبت عدم حدودها ثبت أيضاً خلودها ، وإلا سلبناها صفة ذاتية فيها . وقد قال أفلاطون في ذلك : إن النفس إذا خرجت من يد الخالق ظلت متحركة دائماً ، وأضحت في منأى عن عوامل الكون والفساد التي تخضع لها الأجسام التي لا تستطيع الحركة أو الحياة إلا بسبب آخر يخالف لها .

### ب — برهانه الضميرين :

كانت هناك فكرة دينية قديمة متوارثة تنص على أن النفوس التي توجد في عالم الأرواح<sup>(١)</sup> هي النفوس التي عاشت في هذه الحياة الدنيا ، وأنها تعود في فترات محددة إلى الأرض ، لتحل في بعض الأجسام الجديدة، ولتناسخ فيها . وهذا هو ما كان القدماء يعبرون عنه بقولهم : إن الأحياء يولدون من الأموات . ولم يشأ أفلاطون أن يكتفي بهذه العقيدة التقليدية لسكى يقرر لنا خلود النفس ؛ بل رأى ضرورة البحث لها عن أساس منطقي لا يسع الناس إلا التسليم به . فقال : إن الموت والحياة ضدان ، ومن الضروري أن يكون هناك اتصال بينهما ، أي انتقال

(١) Hadès.

من أحدهما إلى الآخر . فإن ذلك شأن كل ضدين . أليس هناك انتقال بين الضدين .  
في اتجاهين مختلفين ؛ أليس الكبير صغيراً زاد والصغير كبيراً نقص ؟ أو ليس .  
هناك مثل هذا الانتقال ، بين الحار والبارد ، والرطب واليابس ، والحسن والقيبح ،  
والعدل والظلم ، والكون والفساد ؟

إن صلة الحياة بالموت لشديدة الشبه بتلك العلاقة التي توجد بين اليقظة  
والنوم . فكما أن المرء ينتقل من اليقظة إلى النوم ، ومن النوم إلى اليقظة ؛  
كذلك ينتقل من الحياة إلى الموت ومن الموت إلى الحياة . والانتقال من أحد  
الضدين إلى الآخر أمر لا مفر منه ؛ إذ لو كان الانتقال في اتجاه واحد فقط  
لاختل التوازن في الطبيعة ، ولأصبحت هذه عرجاء . وإذن تبدو لنا ضرورة  
البعث بعد الموت الأولى . ويترتب على هذا أنه من الواجب أن تظل نفوس  
الموتى حية في مكان خاص ، حتى تكون منبعاً ومبدأ لكل حياة جديدة .  
ولو لم يكن هناك انتقال من الموت إلى الحياة لانهى كل ما في الوجود إلى العدم ؛  
كما هي الحال تماماً لو استغرق المرء في نومه إلى ما لا نهاية له<sup>(١)</sup> . فهذا دليل على  
أن نفوس الموتى لا تفنى ، وأنها مصدر لنفوس الأحياء .

ح - برهان التذكر :

ذكر أفلاطون هذا البرهان على نحو عابر في أثناء تفسيره لطبيعة المعرفة  
الإنسانية . فقد رأينا كيف بيّن في أسطورة الكهف أن الإنسان لا يكتسب

---

(٢) ضرب أفلاطون لذلك مثالا بما وقع لأنديمون Endymion أحد رعاة الإغريق .  
إنه لما سمحت له آلهة الإغريق الأسطورية بحضور حفلها في الأولمب أعجبت الإلهة « هيرا »  
« Héra » ، فشدقتها لنفسه ، وأرادت أن تقرب إلى قلبها ، فطردته الآلهة من حضرتها ، وفتنت  
عليه أن يستغرق في نوم سرمدي لا يقظة بعده . انظر Phèdon 72,b.

المعرفة الحقيقية ، أى معانى الأشياء ، عن طريق الحس ، وأن العلم ليس في واقع الأمر إلا نوعاً من التذكر لما سبق أن شاهدته النفس أو تألمته عندما كانت في عالمها الأول ، أو وقتاً صعدت إليه في صحبة النفوس التي يقودها زيوس كل ألف سنة . فإذا حلت في أحد الأجسام ، لسكى تبدأ فيه حياة جديدة ، نسيت ما علمت من قبل . وليس من المستطاع أن تتذكر النفس حقائق الأشياء أو معانيها إلا إذا كانت قد وُجدت في مكان ما قبل أن ينتهي بها التوالد إلى اتخاذ هذه الصورة الإنسانية الراهنة . وإذن فمن المحتمل أن تكون شيئاً خالداً<sup>(١)</sup> . لكن أفلاطون لم يقنع بهذا البرهان الذي يدل على مجرد الاحتمال ، فأراد أن يقويه ، وذلك بأن يبرهن على نظرية التذكر نفسها فقال : إن الإنسان يبدأ منذ ولادته باستخدام حواسه ، ومع ذلك فإنه لا ينتهي بها إلى إدراك المعاني كفكرة العدل أو المساوى أو الخير أو الفضيلة . فمن الضروري أن يكون قد أدرك هذه المعاني في حياة سابقة . وقد قال في إحدى أساطيره ، وهي أسطورة « إربن أرمينوس » إن النفوس متى اختارت الأجسام التي ستبدأ فيها حياتها الدنيوية الجديدة عُرِضت على بحر النسيان ، لسكى تنهل منه قبل عودتها إلى الأرض من جديد . وهكذا تنمحي جميع ذكرياتها عن حياتها الإنسانية السابقة ، كما تغيب عنها جميع الحقائق التي شهدتها في أثناء إقامتها المؤقتة في عالم الأرواح . فليس الحس إذن السبيل الحقيقية إلى المعرفة ، وإنما هو الحافز الذي يوقظ الذكريات الراكدة في النفوس . أما التفكير أو التأمل العقلي فهو إحدى صفاتها لذاتية ، وبه تدرك الأشياء على حقيقتها .

غير أنه يحق للمرء أن يعترض فيقول : ليس هذا في الواقع دايلاً على خلود

(١) Ibid 72,e—73 a . أما فيما يتعلق بشرح نظرية المعرفة لدى أفلاطون وبمكر الرجوع

إلى Phédon, 72-85 ، وإلى Ménon, 80, d-86,c إلى

النفس ؛ بل لا يعدو أن يكون برهانا على أنها سابقة للبدن في الوجود ؛ وليس هناك ما يحول عقلا دون أن تتبدد بعد خروجها منه ، فتصبح هباء تذرؤه الرياح . فإذا وجدت بعد ذلك كانت نشأتها بسبب آخر . فليس برهان التذكر إلا نصف برهان فقط ؛ لأنه إن دل على وجود النفس قبل البدن فإنه يعجز عن البرهنة على استمرارها بعد فسادها .

ويرى أفلاطون أن الرد على هذا الاعتراض ليس من العسير في شيء . فمن الخطأ — كما يقول — أن يفصل المرء بين كل من برهان التذكر وبرهان الضدين . فإننا إذا كنا قد سلمنا فيما مضى بأن الضد يخرج من ضده ، وبأن النفس تسبق البدن في وجودها ، وجب علينا بالضرورة أن نسلم بأن الموت يسبق الحياة في اتجاه مضاد ، أي أن النفس تعود بعد فناء البدن ، لتجيا من جديد<sup>(١)</sup> . لكن هذا الرد لا يرفع من قيمة برهان التذكر لأنه يحيل على برهان الضدين ، وهذا الأخير في حاجة إلى سند قوي يرتكز إليه .

### ٥ — برهان البساطة والتركيب :

يعتمد هذا البرهان على إحدى النظريات الأفلاطونية الأساسية ، وهي الخاصة بالفرقة بين عالم المثل وعالم الحس ، أي بين عالمي الغيب والشهادة . والعالم الأول خفي لا يقع تحت سمعنا ولا بصرنا ، ولا يستطيع المرء إدراكه إلا بأشرف عنصريه ، وهو العقل . وأما العالم الثاني فهو ذلك الذي نراه يتغير ويتحول دون انقطاع . وهناك نوعان من الكائنات ينتمي كل نوع منهما إلى أحد هذين العالمين . أما كائنات العالم الأول فبسيطة لا تركيب فيها ، ولذا فإنها لا تقبل التفرق والفساد ؛ بل تظل دائما على حالها ، وتسلك نفس المسلك أبدا .

(1) Phédon 77, c/d .

وأما كائنات العالم الثانى فتركب من عناصر مختلفة . وبناء على ذلك فإنها تقبل التجمع والتفرق ، وتخضع لعوامل الكون والفساد . فهى متغيرة مختلفة تتشكل بضروب وصور شتى .

وتنطبق هذه التفرقة على عنصرى الإنسان ؛ فإنه مؤلف من شيئين متضادين هما نفسه وبدنه . أما النفس فن جنس العالم الإلهى الثابت الدائم ، عالم الأمر والسيطرة . ومعنى ذلك أنها جوهر بسيط غير مرئى يستخدم البدن فى معرفة الأشياء عن طريق السمع أو البصر أو إحدى الحواس الأخرى . وأما الجسم فن جنس تلك الأشياء الحسية التى يحتوى عليها عالمنا الدنيوى المتحول الزائل ؛ فهو متغير وقابل للتحلل ، ولا يبقى على حال ، وليس له إلا أن يطيع النفس .

ولما كان العالم العلوى أو الإلهى خالداً ، ولا يقبل الانقسام ويحتفظ بوحده دائماً كان ذلك دليلاً على خلود النفس ؛ لأنها تشبه هذا العالم إلى أقصى حد . وحينئذ فليس فساد الجسم سبباً فى فسادها . وهذا هو السبب فى أن الإنسان متى أدركه الموت تحلل منه الجزء الذى يقع تحت الحس ، والذى يقبل الانقسام بحسب طبيعته ، وهو جسمه . لكن النفس ، وهى جزؤه الآخر الذى يخفى على حواسنا ، فإنها تذهب نحو مكان بعيد عن الأنظار ، فتبقى فى حضرة الإله ، وهو مثال الخير والحكمة .

إن طبيعة النفس فكر خالص وعقل محض ، فإذا اتصلت بالجسم غلب عليها الشبه بالأشياء المتحولة ، فأصبحت مضطربة حائرة كأن بها دواراً أو كأنها سكرى ؛ وذلك لأنها جاورت أشياء تتصف بهذه الصفات . ولذا متى انقطعت الوشائج بينها وبين عالم الحس استطاعت أن تسمو وتصعد صوب الأشياء غير المرئية ، وهى المعانى أو المثل الخالدة التى لا تشكل لها ولا لون . وإذا ما انتهت

إلى العالم الدائم الخالد تحقق وجودها على خير وجه ، فذهب عنها ما لحقها من الاضطراب والدوار .

### هـ - البرهان الخلقى

لكن على الرغم من أن الشك لا يرقى إلى البراهين السابقة فقد رأى أفلاطون ضرورة تأكيدها من جديد ؛ لأن مشكلة خلود النفس أكبر المشاكل تعقيداً ، وأشدّها مساساً بالحياة الإنسانية وقد تبقى في أعماق النفس ، بعد ذلك كله ، بقية من ريب . ولذا نجد هذا الفيلسوف يعتمد إلى تقرير هذا الخلود على نحو منطقي ينحصر في بيان ما يترتب على إنكاره من هدم للمعايير والقيم الخلقية . فلو كانت النفس فانية لما بدا لنا الظلم أسراً سريعاً ، ولوجب أن ينظر المرء بعين الرثاء والإشفاق إلى هؤلاء الذين يقاسون الفقر والمرض وكل صنوف العذب في هذه الحياة الدنيا من أجل النضيلة والعدل . ولو كان حقاً أن الإنسان يفنى جسداً وروحاً لما كان أسعد طالع الأشرار حين يدركهم الموت ، إذ سوف يتحررون حينئذ من أجسامهم ونفوسهم وشروهم أيضاً (١) .

(١) لأنها تتحرر عندئذ من كل ما لحقها بسبب اتصالها بالبدن من تشويه وشروع ، فتزول عنها كل نقائص الحياة الإنسانية ومساوئها . إن النفس التي مجزت عن التحرر من شهوات البدن فصارت خادماً له ، بدل أن تكون سيّدة أسره ، تتأوت به ؛ إذ كانت تعنى به أكثر مما ينبغي ؛ ولهي رغائبه ، ولا تسمع صوت العقل الذي كان يدعوها إلى الترفع عن شهواته . فإذا غادرت صعب عليها التخلص من آثاره ؛ إذ أن شدة إيمانها إياه يخلم عليها طابعاً جسيماً ولنا تشير بالثقل يهبط عانقها ويمجذبها الخوف من عالم العقل إلى جانب عالم الحس ، فتبقى وسط الأطلال والدمن ، وتظل حائرة تهم على وجهها بين القور الدارسة ، حتى تسكفر من شروها التي ارتسكتها في حياتها السابقة . ولا تزال على هذه الحال حتى يبلغ بها الهوى ، ويدفعها الشوق إلى الحلول في أحد الأجسام . ويقول أفلاطون إنها تختار حينئذ جسداً تنفق طبيعته مع مشربها في الحياة . مثال ذلك أن نفوس ذرى الدرر والإدمان على الصراب تحمل في أجسام الخمر وما شابهها من البهائم ؛ على حين تحمل نفوس الطغاة والمستبدين في أجسام الذئاب والصقور

إن للنفس شرها الخاص الذى يلصق بها حين تفقد سيطرتها على البدن ،  
فينفطر عقدها ، وتخضع لشهواته فتغدو أسيرة له ؛ فى حين كان ينبغي لها أن  
توجهه وتديره . إن السبب فى هلاك شيء ما هو الشر الذى ينطوى عليه . فإذا  
ثبت على العكس من ذلك أن هناك شيئاً لا يقضى عليه شره وجب أن يكون  
هذا الشيء غير قابل للفساد . وإن عقاب الموت الذى نوقمه بالظالم لا يدرك سوى  
جسمة ، أى أنه لا ينال بحال ما السبب الحقيقى الذى دعا إليه ، ونعنى به الظالم ،  
وهو أحد شرور النفس . فإذا ثبت بقاء هذا الشر بعد فناء الجسد كان ذلك  
دليلاً على خلود النفس ، وإلا لما كان قتل الظالم عذاباً له ؛ بل كان بالأحرى شفاء  
للنفس ونهاية لما تعانىه من ألم<sup>(١)</sup> . وإذا لم تسكن خطايا النفس سبباً فى القضاء  
عليها كان من العسير كل العسر أن يكون فساد البدن سبباً فى فسادها وخلصها  
من كل ما يتصل بها . فمن البديهي إذن أنها تبقى دائماً ، وأنها خالدة<sup>(٢)</sup> .

ومن جهة أخرى ، لا بد من الاعتراف بهذا الخلود حتى تثاب النفوس  
الطيبة على ما قدمت من خير ؛ لأن العقل والمنطق يوجبان أن يكون ثواب  
الخير والفضيلة عظيماً . وهل من الممكن أن تنال النفس جزاءها فى أثناء هذه  
الحياة العابرة ؟ وماذا يستطيع المرء أن ينال فى زمن قصير كهذا ؟ وذلك  
لأن الفترة التى تفصل بين الطفولة والشيخوخة تافهة جداً إذا قيست بالأبدية .  
وهل تظن أن كائناً خالداً يجب عليه أن يكابد مثل هذا العناء الكبير من أجل  
زمن قصير . . وأن يرضن بمذله من أجل الأبدية<sup>(٣)</sup> ؟ وحينئذ فلا معنى للفضيلة  
ولا قيمة للخلق إذا لم تسكن النفس خالدة . ولا بد من الاعتراف بأن ما يلقاه  
ذوو الفضل من فقر أو ظلم أو مرض سوف ينقلب فى نهاية الأمر خيراً ، إما فى

(1) Phédon, 107. b/c.

(2) République 611

(3) Ibid. 607, c/d.

حياتهم الدنيا ، وإما بعد موتهم . ذلك لأن الآلهة — كما يقول أفلاطون — لا تنسى هؤلاء الذين يحاولون أن يكونوا عدولا ، وأن يتشبهوا بها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا<sup>(١)</sup> .

### ٥ — أجزاء النفس

قد يظن المرء أن أفلاطون كان يرى أن البدن الواحد يحتوى على نفس واحدة . وقد يكون لأساطيره وبراهينه العديدة على خلود النفس الإنسانية بعض الأثر في غلبة مثل هذا الظن . فإنه اتخذ تلك الأساطير وهذه البراهين سبيلا إلى بيان طبيعة النفس ودليلا على مخالفتها في جوهرها للجسم ، الذى من شأنه أن يتركب من عناصر شتى تظل متجانسة ما دامت الحياة تسرى فيها ، ثم تتفرد ويدركها الفناء إذا جاء الموت . لكن ليس الأمر كما قد يبدو في الوهلة الأولى ؛ بل ليس لنا إلا أن نعجب من إلحاح أفلاطون في بيان تعدد النفوس في البدن الواحد على نحو يحفزنا إلى القول بأنه يريد تأكيد هذه الفكرة وإبرازها . وعلى الرغم من ذلك فإنه ينبغى لنا ألا نرميه بالتناقض والاضطراب . ذلك أننا قد رأينا أنه يعترف من جانب بأن النفس كانت واحدة قبل هبوطها من عالم المثل إلى هذه الحياة الدنيا ، ويقول من جانب آخر : إن اتحادها بالجسم واتصالها به كان سببا في تشويه طبيعتها ومسخها ، وداعيا إلى تطرق السكرية إليها . ولذا فإن النفس متى أصبحت وسطا بين عالم الملائكة وبين عالم الحس ، بسبب حلولها في أحد الأجسام ، وجب أن تنقسم إلى ثلاثة أجزاء أو ثلاث نفوس تقوم كل واحدة منها بذاتها ، بحيث تكون إحداها وسيلة إلى الاتصال بعالم العقل ، والثانية للاتصال بعالم الحس ، والثالثة كرباط بين هذين الوجهين .

(1) Ibid. 613, a/b.

وهذه النفوس لدى أفلاطون هي العقل والشهوة والغضب . وقد فرق هذا الفيلسوف بين أجزاء النفس الإنسانية تفرقة واضحة في كثير من كتبه ، ككل من كتاب « الجمهورية » و « فيدر » و « طيماوس » . وتعتمد هذه التفرقة ، في نظره ، على أساس تشريحي ، بمعنى أن العقل مركزه الرأس ، والغضب مكانه القلب ، والشهوة موطنها البطن . وإنما دعاه إلى تأكيد هذا التعدد والإلحاح في بيانه ما رآه من اختلاف الوظائف التي تؤديها النفس عندما توجد في البدن . فهي تدرك وتريد وتشتهي . فهل من الممكن أن تنسب هذه الأمور المتباينة إلى نفس واحدة ؟ لقد كان من اليسير على أفلاطون أن يجزم بوحدة النفس ، وإن تعددت وظائفها . لكن حال دونه ودون هذا الجزم ما رآه من استقلال كل وظيفة من هذه الوظائف عن غيرها . ألا توصف النفس العاقلة بالعلم أو الجهل ، والنفس الغضبية بالشدّة أو اللين ، والنفس الشهوانية بالعتة أو الإفراط ؟

ومن المعلوم أن أفلاطون قد عضد نظريته القائلة بتعدد النفوس في البدن الواحد ببعض آرائه الخاصة في المدينة الفاضلة ، وهي تلك الآراء التي عرضها عرضاً مستفيضاً في كتبه : « الجمهورية » و « السياسي » و « القوانين » . فإنه كان يرى أن المدينة لا يصلح أمرها إلا إذا انقسمت إلى ثلاث طبقات مستقلة تربطها علاقات محددة واضحة ، وذلك لأن أفراد المدينة ليسوا سواء من حيث استعدادهم وقدرتهم على النهوض بمختلف الوظائف التي يقتضيها تقسيم العمل الاجتماعي . ذلك أنهم مختلفون اختلافاً شديداً في صفاتهم الجسمية والعقلية والخلقية . وليس من العدل أن يوضع امرؤ في غير موضعه . ويشبه اختلافهم في هذه الصفات اختلاف الحديد والرصاص عن كل من الذهب والفضة . فطبقة الفلاسفة خير الناس وأصفاهم معدناً ، وتأتي بعدهم طبقة الحراس أو رجال الجيش ، وهي أدنى مرتبة منهم ، كما أن النضة أقل مرتبة من الذهب . وأما طبقة العمال

والزراع والنجار والرقيق فتحتمل أسفل المراتب، كحال الحديد أو الرصاص بالنسبة إلى المعدنين النفيسين .

وكما أن صلاح المدينة لا يتحقق إلا بانسجام طبقاتها وخضوع ما هو أدنى منها لما هو أعلى ؛ كذلك حال النفس فإنها لا تصلح إلا إذا تحقق شرطان : أولها أن تنقسم إلى ثلاثة أجزاء مستقلة هي العقل والغضب والشهوة . فالعقل يقابل الغلافة ، والغضب يشبه الحراس ، والشهوة تمثلها طبقة العمال والزراع ، أي طبقة المنتجين . أما الشرط الثاني فهو أن يخضع كل جزء من أجزاء النفس لما هو أعلى مرتبة منه ومعنى ذلك أن النفس لا تدرك الفضيلة والسعادة إلا إذا سيطرت على البدن وأخضعته لأوامرها . ولا يمكن إدراك هذه الغاية إلا بشرط أن يحكم العقل ، فيطبع الغضب ، فتمثل الشهوة .

فن الضروري إذن أن توجد ثلاثة مبادئ أولها للإدراك ، وثانيها للإرادة ، وثالثها لحاجات الجسم . وليس من الممكن أن يقوم مبدأ واحد بأداء هذه الوظائف جميعها ؛ لأن الشيء الواحد لا يجمع بين الأضداد في وقت واحد . فنحن لا نقول إن الرجل متحرك وساكن في آن واحد ، وإنما نقول إنه ساكن الجذع ، ومتحرك الرأس أو اليدين . كذلك لا تستطيع النفس أن تقوم بعملين متضادين في نفس الوقت . فمثلا لا تستطيع الرفض والقبول معاً ، أو الغضب والرضا في لحظة واحدة ، أو باعتبار واحد . ولكننا نعلم من جهة أخرى أن الإنسان تننازه عوامل متضادة كأن يكون به ظمأ ، ومع ذلك فإنه يرفض الشراب ، وكأن يأكل الغضب قلبه ، ولكنه لا يبطش بيديه . فلا بد لنا إذن من تفسير هذا التناقض أو التضاد . وهل يمكن تفسير ذلك تفسيراً يقبله العقل ، في نظر أفلاطون ، إلا إذا سلمنا بوجود قوة أو مبدأ يأمر الظمان بالشرب ومبدأ أو قوة

أخرى تنهاه عنه ، ثم اعترفنا بأن كلا المبدئين مستقل عن الآخر ، وإن استطاع الغلبة عليه ؟ إن مبدأ النهى هو العقل ؛ في حين أن الطاعة تأتي من قبل الجسم ويسمى المبدأ الأول عقلا ، ويسمى المبدأ الثاني شهوة . وهناك مبدأ ثالث يربط أحدهما بالآخر ، وهو الغضب الذي يشبه طبقة الحراس في المدينة ، وهي الطبقة التي يستخدمها حكام المدينة الفاضلة لكي يخضعوا بها طبقة العمال ، ويأخذوها بأداء وظيفتها ، ولكي يحددوا في نهاية الأمر من شهواتها .

ويعترف أفلاطون بأن وجه الشبه بين أجزاء النفس وطبقات المدينة ليس مطلقاً . فإن الغضب مستقل عن العقل والشهوة ؛ بينما نجد أن الحراس والفلاسفة ليسوا في حقيقة الأمر سوى طبقة واحدة في الجمهورية المثالية . ويدل على استقلال الغضب وقيامه بذاته ؛ على اعتبار أنه أحد أجزاء النفس ، ما راه من لوم الإنسان لنفسه عندما يسلس قياده لشهواته فالغضب أكثر انقياداً للعقل منه للشهوة ؛ وهو يناصره عليها ؛ ولا يرضى أن يكون حليفاً للهوى .<sup>(١)</sup> وإن الإنسان إذا آمن أنه ضحية للظلم ثارت نفسه ، وجاهد من أجل ما يعتقد أنه العدل ، وعندئذ لا يضيق بألم أو جهد حتى ينتصر . ولا يكف عن بذل هذه الجهود قبل أن ترضى نفسه ، أو يلقى حتفه ، أو يخفف العقل من سورته ويدعوه إلى الانقياد له ، كما يدعو الراعى كلبه أن يقمع هادئاً بجوازه .<sup>(٢)</sup> ومن ثم فليس هناك تناف بين استقلال النفس الغضبية وبين خضوعها للنفس العاقلة . ويقول أفلاطون إنه يكفي للتأكد من ذلك أننا نشاهد وجود الغضب لدى الطفل الذي لم تبد بعد لديه بوادر العقل ، في الوقت الذي نجد فيه أن بعض الناس يجرمون نمرة العقل طيلة حياتهم ، وأن عدداً كبيراً منهم لن تكتمل عقولهم إلا بعد وقت طويل .

وقد برّر هذا الفيلسوف تعدد النفوس في الجسم الواحد على نحو يتفق مع

(1) Ibid. 440 a/b. (2) Ibid. 441'a/b.

نظريته القائلة بوجود عالمي المثل والحس ؛ فذكر أن النفس الإنسانية لما كانت من جنس العالم الأول فإنها تعجز عن تدير البدن بطريقة مباشرة . وحينئذ لم يكن بد من وجود نفس تقوم مقام الوسيط بينها وبين النفس الشهوانية التي تعبر عن حاجات الجسم : من أكل وشرب ونمو وتوالد وهلم جرا وليس هذا الوسيط إلا النفس الغضبية . فإذا عدنا مرة ثانية إلى أسطورة العربة وجدنا أن أفلاطون يرمز بالسائق إلى النفس العاقلة ، وبالجواد العصي العنيد إلى النفس الشهوانية ، أما الجواد السمح المطواع فهو الإرادة التي تتميز بها النفس الغضبية . ولكل نفس من هذه النفوس صفاتها . فالشهوانية تتصف بالعنف والشه ، وبحب المال على وجه الخصوص ، لأن هذا الأخير هو السبيل إلى إرضاء جميع رغباتها . وأما النفس الغضبية فإنها لا تنفك تتوق وتتجه بكل قواها إلى الغلبة والنفوذ والشهرة ؛ بينما نجد أن النفس العاقلة لا ترضى عن المعرفة الحقة بديلا .

ومما يدل دلالة قاطعة على أن أفلاطون يذهب حقيقة إلى القول بوجود أجزاء مستقلة في النفس أنه فرّق بين هذه الأجزاء أيضا فيما يمس الخلود . ذلك أن النفس العاقلة لما كانت هي التي تنتمي ، دون غيرها ، إلى عالم المثل كانت هي التي تستطيع الرجوع إليه وحدها . أما النفسان الغضبية والشهوانية فإنهما من عالم الحس ، وقد وجدنا من أجله وبسببه . ولذلك فمن الطبيعي أنه متى فنى الجسم فنى معه الانفعالات العنيفة التي تقهر المرء على أمره وتقوده إلى الشر . ومن ثم يتبين لنا أن ما يلحق النفس من تشويه أو مسخ بسبب اتصالها بالبدن ليس إلا أمراً عارضا . والفيلسوف هو الذي يهتدى إلى إدراك هذه الحقيقة ، فيعمل على تطهير نفسه في أثناء وجودها في هذه الحياة .

إذن نعود فنجد أن جوهر النفس عقل وتفكير ؛ لأن هذا الجوهر وحده هو الذي يتيح لها الاتصال والعودة إلى العالم الذي أكرهت على تركه . ويعيب

أفلاطون رأى هؤلاء الذين يظنون أنه لا بد من التضحية بالملذات ومن تحمل الآلام مقابل لذة أعظم وتجنبنا للآلام في المستقبل . فلئن حق للمرء أن يضحى بشيء فليكن ذلك من أجل التفكير وحده ، لأنه هو الذى يحرر النفس من سجنها ، ويصعد بها نحو العالم الأعلى . فإذا أردنا معرفة الجوهر الحقيقي للنفس فإنه ينبغى لنا — كما يقول أفلاطون<sup>(١)</sup> — ألا نحكم عليها وهي في حالها الراهنة من التدهور ؛ بل يجب أن ننظر إليها ، وقد استطاعت التخلص بالفكر من جميع ما لحقها من شرور وأدران . وحينئذ سيرى المرء جوهرها الحقيقي ، ويعلم أمى واحدة أم ذات أجزاء ؟

---

(1) Rép. 611, b/c.

( ٥ في النفس والعقل )

## الفصل الثالث

### تعريف النفس

#### ١ - تمهيد

قدر للدراسات النفسية أن تتخذ اتجاهها جديداً بعد سقراط وأفلاطون . فإن أرسطو لم يعتمد مثل أستاذه إلى الأساطير لبيان طبيعة النفس ونشأتها ومصيرها ، ولم يوجه عنايته إلى البرهنة على خلودها ؛ بل آثر أن يدرس وظائفها وخواصها ؛ ذلك لأنه كان يعتقد أن التعريف الذي لا ينطوي على جميع صفات الشيء الذي نعرفه تعريف أجوف لا طائل تحته . ويمكننا القول ، دون غلو ، إنه جدير بأن يعتبر الجدّ البعيد لعلم النفس بمعناه الحديث ، فقد كان أول من نادى بوجوب الاعتماد على ملاحظة الأمور الحسية والواقعية في هذا النوع من البحوث .

وقد ظل الشراح من الإغريق وغيرهم يعنون أكبر عناية بتفسير آرائه في النفس ووظائفها المختلفة من نمو وإحساس وخيال وتمسكير وحركة . ثم أتبع للمسلمين أن يطالعوا على الفلسفة اليونانية ، وعلى فلسفة أرسطو بصفة خاصة . فأعجبوا بهذا الفيلسوف أيما إعجاب ، ورفعوه إلى مقام التبجيل بل التقديس . لكنهم ما لبثوا أن أدركوا أن بعض آرائه في النفس لا تتفق مع عقائدهم ، فحاولوا أن يرضوا الدين والعقل معاً . وما لا ريب فيه أنهم أخذوا عن أرسطو جبل آرائه في وظائف النفس . ومع ذلك فقد أخذوا ، في الوقت نفسه ، طرفاً من آراء أفلاطون في طبيعتها والبرهنة على خلودها . وليس معنى هذا أنهم كانوا ، كما يزعم بعض مؤرخي الفلسفة ، مجردة نقلة أو مقلدين . وليس بصحيح أنهم شوهوا الفاسفة الإغريقية ، كما يدعى ذلك بعض المرغضين والمرجفين ؛ فإن هؤلاء

الذين ينكرون الطابع الخاص للفلسفة الإسلامية ينكرون حقيقة لامراء فيها ،  
وهي أن لاتفكير الإسلامى مشاكله الخاصة التى قد يشترك فيها مع غيره ، ولكنه  
قد يحملها بطرق مختلفة . هذا، وإن بعض من يجحدون أثر المسلمين يعترفون فى الوقت  
نفسه أن وجهات نظرهم قد انتقلت إلى أوروبا ، وأن تأثير بعض فلاسفتهم وأطبائهم  
استمر هناك حتى القرن السادس عشر ، بل حتى الآن ، وبخاصة فى الناحية التى تمس  
البرهنة على العقائد الدينية .

حقاً لم يكن الفارابى موقفاً فى محاولة الجمع بين آرائه الدينية وآراء الحكيمين  
فى مسألة النفس . ولكن قدّر لابن سينا أن يأتى بمذهب جديد فى النفس لا يقل  
انسجاماً وقوة عن كل من مذهبى أفلاطون وأرسطو . كذلك استطاع أبو الوليد  
ابن رشد ، الفيلسوف القرطبى ، أن يفسر أرسطو تفسيراً لم يسبقه إليه أحد من  
شراح الإغريق . ويمد أبو الوليد حجة فى هذا الموضوع . ولا عجب أن وصفه  
مسيحيو الغرب فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وما تلاه من القرون ، بأنه الشارح  
الأكبر . وسيتاح لنا أن نبين كيف أفاد الغربيون فى العصور الوسيطة أجل فائدة  
من دراسة النفس لدى المسلمين . وكيف امتد التحريف إلى آراء ابن رشد ، حتى  
عده بعض المفكرين إمام الزائغين والملحدين .

## ٢ — تعريف النفس لدى أرسطو

بنى أرسطو تعريفه للنفس على إحدى نظرياته المعروفة فى الطبيعة ، ونعنى  
بها نظريته الخاصة بالتمفرقة بين المادة والصورة . وينبغى لنا أن نبين ماذا يريد  
بكل من هذين الأمرين ؟ ليست المادة فى الحقيقة لدى هذا الفيلسوف إلا أمراً  
نسبياً ؛ إذ هى الشئ الذى يمكن أن يتقلب فيصير شيئاً آخر . وقد ضرب لنا  
أرسطو نفسه لذلك مثلاً فقال : إن الرخام يعد مادة للتمثال ، والخشب مادة

للمقعد . ومن الممكن أن يصبح الرخام تمثالا ، كما يمكن أن يصير شيئا آخر . كذلك الخشب ؛ فإنه قد ينقلب مقعداً أو مائدة . ولما كانت المادة أسراً نسبياً بالمعنى السابق كان من الضروري ، في هذه الحال ، أن يوجد عنصر آخر يحدد ما لبعض الشيء ، فيجعلها كأنها له صفاته الخاصة . وهذا العنصر هو ما يطلق عليه أرسطو اسم الصورة .

فالصورة لديه إذن هي التي تخلع على المادة كيانا خاصا ، أى هي التي تجعلها ذاتا محدودة الأوضاع متميزة عن غيرها . وهكذا إذا عدنا إلى مثال التمثال وجدنا أن هذا الأخير لم يصبح شيئا محدداً ثابتاً قائماً بذاته إلا لهذا السبب ، وهو أنه يتألف من مادة وصورة . أما المادة فهي الحجر أو الرخام . وأما الصورة فهي الرسم أو الشكل الذى فكر فيه الصانع ثم خاضه على قطعة الرخام أو الحجر حتى أضحت ذات وجود خاص بها . وحينئذ ليس هناك ريب فى أن الصورة كالمادة هنا . ويتبين لنا ذلك من المثال السابق . فإن هناك فارقا فى الوجود بين قطعة الرخام قبل نحتها وبعده ؛ ذلك أنها كانت غفلا فأصبحت ممبرة ، ومن البديهي أنها تعبر فى هذه الحال الأخيرة عن وجود أسمى وأرق منه فى الحال الأولى ، وهذا هو معنى الشكل

وقد رأى أرسطو أن التفرقة بين المادة والصورة تنطبق أتم تطابق على الجسم والنفس . فالإنسان لديه جوهر واحد كالتمثال تماما . والجسد مادته والنفس صورته ، وفيه تتحد المادة والصورة اتحاداً جوهرياً . وكما أنه لا يمكن فصل صورة التمثال عن الحجر أو الرخام إلا بتحطيم التمثال نفسه ؛ كذلك لا يمكن فصل النفس عن البدن إلا بالقضاء على هذا الأخير . ومعنى ذلك أن هذا الفيلاسوف ، يجزم على نحو لا يقبل الشك بأن المادة والصورة يكونان جوهراً واحداً فلا تنفك إحداها عن الأخرى بحال ما . وذلك على عكس ما رأينا لدى كل من سقراط

وأفلاطون . ويترتب على هذا أنه ليس من الممكن القول باستقلال النفس عن الجسم ، أو بأن لهذا الأخير وجوداً مستقلاً دونها . ولذا فالبدن جزء من ماهية النفس . وكيف يجوز لنا أن نعدّها جوهرًا مستقلاً ، وهي لا تؤدي وظائفها المختلفة إلا إذا استعانت على ذلك بالجسم على نحو ما ؟ فهى تستخدم الحواس فى الإبصار والسمع واللمس والذوق والشم . وهل لها أن تتخيل أو تشهى أو تغضب دون أن تكون على صلة وثيقة بالبدن ؟ (١) وكذا الأمر فى كل من الخيال والتفكير ؛ لأن هذا الأخير إنما يتخذ الخيال والحس نقطة بدء له ، وإن كان لا يستخدم آلة جسمية ، كما هى الحال فى الوظائف النفسية الأخرى . وهذا هو السبب فى أنه لا يمكن إدراك شىء ما أو فهمه حالة غياب الإحساس . ومن جهة أخرى ، فلا بد من أن يكون الإدراك العقلى مصحوباً بإحدى الصور الخيلية ؛ وذلك لأن هذه الصور تشبه الإحساسات إلا فى إنها غير مادية . (٢)

فإذا أردنا أن نعرّف النفس وجب القول إذن بأنها الكمال الأول للجسم طبيعى توجد فيه الحياة بالقوة . ولكن لماذا سمى أرسطو النفس كمالاً ، وقد كان من الممكن أن يقول إنها صورة فقط ؟ إن السبب فى هذه التسمية يرجع إلى أن وجود النفس شرف وكال للبدن ، كما سبق أن رأينا أن الشكل أو الرسم الذى يخضعه الفنان على قطعة الحجر أو الرخام شرف وكال فى الوجود بالنسبة إلى كل من كتلة الصخر أو الرخام . وهى الشرط الأول أو المباشر الذى لا بد منه لنشاط الجسم . وينطبق هذا التعريف على جميع أنواع النفوس . فإن النبات يتغذى وينمو ويتوالد ، وله نفس نباتية هى شرف وكال له . كذلك الحيوان يتغذى وينمو ويتوالد ويحس ويتحرك بالإرادة ؛ فله نفس حسية هى شرف وكال له . وكذلك الإنسان يتغذى وينمو ويتوالد ويحس ويتحرك بالإرادة ويتخيل ويفكر ؛

(1) De Anima 403

(2) De Anima 432.

فله نفس أسى من نفسى الحيوان والنبات . وحينئذ نرى أن المادة تقبل تعاقب الصور فترتفع في مرتبة الوجود . ولذلك يمكن القول بأن النفس العاقلة التى يتميز بها الإنسان هى أسى وأكل الصور التى يمكن نسبتها إلى الجسم الطبيعى الذى توجد فيه الحياة بالقوة .

أسكن ما الذى يريد أرسطو بقوله إن الحياة توجد فى الجسم بالقوة ؟ لقد أراد أن ينص بذلك صراحة على أنه يختلف فى هذه المسألة عما ذهب إليه أفلاطون الذى كان يرى أن النفس هى الجوهر الحقيقى فى الإنسان ؛ وأنها ذات مستقلة تهبط من عالم الخير والجمال ، فتحل فى أحد الأجسام ، وتخلع عليه الحياة والحركة وتدبره وتعنى بأمره . ويترتب على هذا الخلاف أن أرسطو لا يريد بحال ما أن يسير على هدى أستاذه ، فيقول بأن الحياة صفة خارجة عن الجسم ؛ وإنما يقرر دون لبس أو غموض ، أنها صفة ذاتية فى البدن توجد فيه بالقوة ، أى أنها توجد فيه على هيئة استعداد كامن . فليست النفس إذن هى التى تخلع الحياة على الجسد ، ولسكنها لا تفعل سوى أن تخرج هذه الحياة من القوة إلى الفعل ، أى أنها هى التى تجعلها ظاهرة بعد أن كانت خفية كامنة .

وقد يعجب المرء ويتساءل : كيف سلك أرسطو هذه السبيل التى لا تتفق — فيما يبدو لنا — مع آراء أستاذه الأكبر سقراط الذى كان يرى أن النفس هى العنصر الجوهرى فى الإنسان ، وأن البدن ليس فى حقيقة الأمر إلا آلة لا يعتد بها ؟ وقد يظن بعض الناس أن أرسطو كان مادياً وأنه كان مقرطاً فى فلسفته المادية . ومع هذا كله يجب ألا تتسرع فى الحكم عليه فنصفه بالتطرف والغلو أكثر مما ينبغى . ذلك لأنه لم يذهب إلى هذا الرأى ، ولم ينكر استقلال النفس عن البدن إلا لأنه أبى أن يتبع آثار أفلاطون . فهو لا يعتقد مثل هذا الأخير أن النفس كانت توجد قبل اتصالها بالبدن فى عالم يوجد فيها وراء السماء ، وهو عالم

المثل أو الحقائق الخالدة الثابتة ، وأنها هبطت منه ، فأصبحت ترى أشباح هذه الحقائق وظلالها منعكسة في عالم الحس . وكيف له أن يسلم بوجود عالم من هذا القبيل ، إذا كان يرى أن العالم الحسى الذى نعيش فيه عالم حقيقى قائم بذاته ، وليس بظل لعالم آخر ، وأن الأشياء المتحوّلة المتغيرة فيه أشياء حقيقية تدركها النفس ، لا عن طريق التذكر ، كما كان يقول أفلاطون ؛ بل عن طريق الحواس والعقل ؟ فنظرية المعرفة عند أرسطو تتلخص فى أن المرء يبدأ بإدراك الأمور الجزئية عن طريق حواسه ، ثم ينتهى به التفكير إلى معرفة العناصر الثابتة الدائمة فى الأشياء ، وهى صفاتها وخواصها النوعية ، فيجردها من المادة المتقلبة المتحوّلة ومن كل آثارها كالوضع والأين وهلم جرا . وليست هذه العناصر الدائمة شيئاً آخر سوى المعانى السكلية المجردة .

ومن هنا نرى أن اختلاف وجهة نظر هذين الفيلسوفين فى تفسير المعرفة كان السبب فى غلو أرسطو وإنكاره لاستقلال النفس ، حتى لا يقع فيما وقع فيه أفلاطون من قبل من التمييز بين عالم المثل وعالم الحس . على أننا سنرى فيما بعد عندما نتكلم عن العقل أن أرسطو يعود فيقول إن العقل يشبه أن يكون شيئاً خالداً مستقلاً من البدن . ومعنى ذلك أنه لا يجد مفراً من القول بوجود عالم عقلى مخالف لعالم الحس والمادة <sup>(١)</sup>

### ٣ — تعريف النفس لدى المسلمون

أخذ فلاسفة الإسلام تعريف النفس عن أرسطو دون تحوير أو تبديل فى صيغته . أى أن تعريفهم لم يكن حينئذ سوى الترجمة الحرفية للنص الإغريقى الموجود فى كتاب النفس لأرسطو . ثم جاء « المدرسيون » فى الغرب فنقلوا هذا

(١) انظر الفصل السابع ، الفقرة الثانية من ١٨٧

التعريف من العربية إلى اللاتينية دون تصرف أيضاً ، فبدأ لبعض الناس أنهم أخذوه عن النص الإغريقي مباشرة والحق أن العرب كانوا نقطة الاتصال بين الأوربيين وبين آراء أرسطو في النفس . والدليل على ذلك أن علماء المسيحية في القرون الوسطى ظلوا ينهجون نهجاً أفلاطونياً خلال عصور طويلة ، حتى نقلت أمهات كتب الفلاسفة الإسلامية إلى اللغة اللاتينية في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، فبدأ تأثير التفكير الأرسطوطاليسى يظهر لديهم ماونا بلون عربى إسلامى . وليس من الغلو فى شىء أن نقول إن هؤلاء المدرسين « لم يعرفوا آراء أرسطو فى النفس إلا عن طريق أبى نصر الفارابى والرئيس ابن سينا ، والإمام الغزالى ، وأبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، وموسى بن ميمون ( ريبب الفلاسفة الإسلامية . (١)

وهكذا عرف فلاسفة الإسلام النفس بأنها الكمال الأول لجسم آلى ذى حياة بالقوة . لكن هل ينبغى لنا أن نستنبط من هذا الاتفاق بينهم وبين أرسطو فى تعريف النفس أنهم أخذوا عنه جميع آرائه فيها ؛ فقالوا مثله بأنها صورة منطبعة فى الجسم لا تنفك عنه ، أى أنها توجد بوجوده وتنفى بقائه ؟ الحقيقة هى أنهم لم يأخذوا عنه سوى تعريف النفس والعناية ببيان وظائفها ، بينما يكادون يجمعون ، من جانب آخر ، على أنها جوهر روحى قائم بذاته . وسوف تتبين لنا حقيقة الأمر فى هذه المسألة ، وغيرها من المسائل التى تتصل بطبيعة النفس ومصيرها ، عندما نعرض بالتفصيل لوجهة نظر هؤلاء الفلاسفة

---

(١) يجب التنويه هنا بمجهود اليهود فى نقل الفلاسفة الإسلامية إلى مسيحية الغرب فى العصور الوسطى . فقد كان اليهود تجار علم ومال وكانوا نقطة اتصال ثقافى وتجارى بين مسلمى الأندلس وأهل أوروبا . فى يرجع إليهم الفضل حفظ كثير من الأصول العربية ؛ إذ نقلوها إلى لغتهم أو احتفظوا بها على حالتها مدونة بحروفهم العبرية .

في كثير من المشاكل الميتافيزيقية الخاصة بالنفس الإنسانية .  
وسنعالج الآن تعريف النفس لدى الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد  
ثم نبين إلى أي مدى أثر هؤلاء في الفلسفة المسيحية في القرنين الثنائي عشر  
والثالث عشر الميلاديين .

#### ٤ — تعريف النفس لدى الفارابي (١)

عرف أبو نصر النفس بأنها كمال أول لجسم آلي ذي حياة بالقوة .

(١) هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي نسبة إلى فاراب إحدى ولايات  
ما وراء النهر ، وهي في بلاد التركستان . وقد ذاع صيته بسبب دراسته للطب والرياضة ،  
لكنه كان أكثر شهرة بدراسة الفلسفة الأرسطوطاليسية . ويعد من خيرة شراح العرب  
لمنطق أرسطو ؛ ويصفه بعض الذي ترجموا له أنه فليسوف العرب غير مدافع ، ويقول عنه ابن  
خلكان إنه أكبر فلاسفة المسلمين ، ولم يكن منهم من بلغ رتبته في فنونه ، والرئيس أبو علي  
ابن سينا يكتبه تخرج وبكلامه انتفع في تصانيفه . ولا ينكر ابن سينا من جانبه أنه تتلمذ على  
كتب الفارابي . . . ومن اليسير علينا ، إذا تتبعنا آراء الفارابي في النفس والعقل والاتصال الصوفي  
ومسألة الفيض والعقول المارقة والعلم الإلهي وغيرها من المسائل ، أن نرى كيف أخذ ابن سينا جل  
هذه الآراء جملة وتفصيلا . ومع ذلك فلم يكتب للفارابي ما يستحق من الشهرة ، ولم يتجه الناس  
إلى دراسة فلسفته إلا في عصور متأخرة نسبيا . وقد خصص له الأستاذ الدكتور إبراهيم مذكور  
كتاباً ممتازاً باللغة الفرنسية .

أما حياته فلا نعرف عنها إلا شيئا قليلا كتبه بعض المترجمين من العرب من أمثال ابن أبي  
أصيبعة ، وابن النديم ، وساعد بن أحمد الأندلسي ، وابن خلكان والقفطي . ومن هذه التراجم  
نعلم أن الفارابي ولد في فاراب أو على مقربة منها . هذا ولا يعرف تاريخ ميلاده بالضبط وإن كان  
يمكن تحديده على وجه التقريب بسنة ٢٥٩ هـ ، كما يقول المرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرزاق .  
ويقول ابن خلكان إنه مات في الثمانين من عمره سنة ٣٣٩ هـ ( ٩٥٠ ) . وقد دخل العراق  
واستوطنها ، ودرس الحكمة على يوحنا بن حيلان . وشرح الكتب المنطقية ، ونبه على ما أغفله  
السكندري . وقد ترك كتباً ورسائل عديدة نذكر منها التعليلات ، والدعوى العقلية ، وفصوص  
الحكم ، وتحصيل السعادة ، وشرح رسالة زينون ، وإحصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، والجمع  
بين الحكيمين أفلاطون وأرسطوطاليس ، والسياسة المدنية والنبذة المرضية . الخ وقد نزل عند سيف  
الدولة بجلب وأقام في كنفه مدة نرى أهل التصوف ،

وهي عنده صورة للبدن . فهي معنى ذلك أنه كان يرى كأرسطو أنها منطبعة في البدن ، وأن هذا الأخير جزء حقيقي من تعريفها ؟ ليس الأمر كذلك تماماً ، فإننا نجد بصرح من جانب آخر بأن النفس العاقلة هي جوهر الإنسان عند التحقيق ؛ لأنه يتكون من عنصرين أحدهما من عالم الأمر ، أى العالم الإلهي ، والآخر من العالم الحسي فهو يقول في كتابه المسمى بالثورة المرضية : « أنت مركب من جوهرين : أحدهما مشكل مصور مكيف مقدر متحرك وساكن متجسد منقسم ، والثاني مبين للأول في هذه الصفات غير مشارك له في حقيقة الذات . يناله العقل ، ويعرض عنه الوهم . فقد جمعت من عالم الخلق ومن عالم الأمر ، لأن روحك من أمر ربك ، وبدنك من خالق ربك . » كذلك نجد يقول في نص آخر : « إن الروح الذي لك من جوهر عالم الأمر ، ولا يتعين بإشارة ولا يتردد بين سكون وحركة . فلذلك تدرك المدوم الذي فات ، والمنتظر الذي هو آت ، وتسبح في عالم المسكوت ، وتنتقمش من خاتم الجبروت . » فهذان نصان صريحان على أنه كان يفرق بين عالمين ، هما عالم الحس وعالم العقل . وأكثر من ذلك فإنه يميل إلى الأخذ بنظرية المعرفة الأفلاطونية . ولسكنه ليس انسا أن نستنبط من ذلك أنه يأخذ عن أفلاطون كل شيء . فإنه ينسك التناسخ فقد قال : « ولا يجوز وجود النفس قبل البدن ، كما يقول أفلاطون ، ولا يجوز انتقال النفس من جسد إلى جسد ، كما يقول التناسخيون . »<sup>(١)</sup> كذلك نجد ينفى وجود النفس في عالم الأمر قبل وجود البدن ؛ بل يرى أنها تحدث وقت حدوثه واستعدادها لقبولها .

وقد ذهب أبو نصر الفارابي مذهباً غريباً في تفسير حدوث النفس فقال :

(١) الثورة المرضية ص ٦٣ ، ٦٤ .

إنها تفيض من العقل الفعال ، وهو الملك الذى يشرف على حركة فلك القمر<sup>(١)</sup> ، وهو الذى يطلق عليه اسم واهب الصور ، وقد أكد أنه المصدر الذى تفيض منه صور الجراد والنبات والحيوان والنفوس الإنسانية ، كذلك رغب أبو نصر عن القول بتعدد النفوس فى البدن الواحد ، وذكر أن كل نفس تختص ببدن معين . فإذا نفى هذا الجسم فربما استطاعت الرجوع إلى المصدر الذى فاضت منه . وسوف نعرض لهذه المسألة بالتفصيل عند كلامنا عن خلود النفس<sup>(٢)</sup> ويكفى أن نشير هنا سلفاً إلى اضطراب الفيلسوف فى هذه المسألة وتأرجحه بين رأى كل من أفلاطون وأرسطو . وبيان ذلك دون إطفاً إنه تأثر بإحدى نظريات هذا الأخير ، وهى القائلة بأن المادة هى سبب الاختلاف بين الأشخاص أو الأفراد . وهذا هو السبب فى أنه ذهب إلى رأى غريب آخر يتلخص فى أن النفوس لما كانت صوراً للأجسام فإنها تتحد بعد خروجها منها بسبب زوال العلة فى اختلافها فتصبح نفساً كلية . ومع ذلك فإنه كان يعتقد أن هذا الخلود الجمعى لا يتاح لكل النفوس على حد سواء .

ومما سبق يتبين لنا أن الفارابى حاول التوفيق بين كل من تعريف أفلاطون وأرسطو للنفس . فمن جهة يقول كأفلاطون إن النفس العاقلة هى جوهر الإنسان عند التحقيق ، وإنها لا تبنى بقاء البدن ، وإن المعرفة الحقة هى سبيل الصعود إلى العالم العلوى . لكنه يقول من جهة أخرى ، تبعاً لأرسطو ، بأن النفس صورة

---

(١) ذهب الفارابى ، ومن بعده ابن سينا ، إلى القول بنظرية الفيض . وتتلخص فى أن الخلق لا يتم دفعة واحدة ، وإنما يفيض عن الإله سبحانه عقل أول ، ثم يفيض عن هذا العقل عقل ثان وهكذا حتى ينتهي الفيض إلى تسعة أو عشرة عقول آخرها العقل الفعال . وقد ذكر ابن رشد فى كتابه تهافت التهافت أن هذه النظرية من صنع الفارابى وابن سينا ، وأنه لم يرها لدى أرسطو .

(٢) انظر الفصل السادس .

و كمال للبدن ، وأنها لا توجد قبله ، وأن المادة هي سبب الاختلاف بين أفراد النوع الواحد . غير أن هذا التوفيق مضطرب قلق ، كما يتبين ذلك من النص الآتي الذي أخذناه عن كتاب : « الدعوى القلبية » للغاربي ، والذي نستطيع دون مشقة أن نتبين فيه الآراء التي ترجع إلى كل من أفلاطون وأرسطو ، وتلك التي زاداها من عنده كفسكرة واهب الصور . وهذا النص هو : « . . . إن النفس الناطقة التي لها هذه القوة ( الإدراك ) جوهر واحد هو الإنسان عند التحقيق ، وله فروع وقوى منبثة منها في الأعضاء . وإنها حادثة عن واهب الصور عند حدوث الشيء المستعمل لقبوله فيه ، وهو البدن أو ما في قوته أن يكون بدناً . . . وإن النفس لا يجوز أن تكون موجودة قبل وجود البدن ، وإنها لا يجوز أن تتكرر في أبدان مختلفة ، وإنه لا يجوز أن يكون لبدن واحد نفسان . . . وإنها مفارقة باقية بعد الموت . فليس فيها قوة قبول الفساد . » وهذا كما نعلم جيداً مزيج مضطرب من آراء أرسطو وأفلاطون . ويدل على ذلك أيضاً أنه سوف يفتي خلود بعض النفوس الإنسانية ، كما سنرى ذلك فيما بعد

#### ٥ - تعريف النفس لدى ابن سينا

كان ابن سينا<sup>(١)</sup> إمام فلاسفة الإسلام في دراسة النفس . حقاً أخذ هذا

(١) هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا أوسع أطباء المسلمين شهرة وأبعد فلاسفتهم ذكراً . وهو فارسي الأصل . ولد أبوه في بلخ ثم أقام في بخارى في أيام نوح بن منصور . وقد ولد الرئيس ابن سينا في سنة ٣٧٠ هـ [ ٩٨٠ م ] . وقد ذكر ابن سينا عن نفسه أنه حفظ القرآن في سن مبكرة ، أي في العاشرة من عمره ، وأنه أحاط علماً بالفقه والنحو . ويقال إن أباه اختار له فيلوسوفاً ليقوم بتثقيف عقله ، فإلبيت أن فاق أستاذه ، وأخذ ينهل من موارد العلم وحده ، فدرس الرياضيات والطب والمنطق وعلم ما رواء الطبيعة ، ثم وجه عنايته كلها لدراسة الطب تحت إشراف طبيب مسيحي هو عيسى بن يحيى . وذاعت شهرته كطبيب ، ولم يتجاوز السابعة عشرة من عمره . فقد عالج الأمير منصور ونجح في شفايته . وتحت إمامته

الفيلسوف كثيراً من آرائه عن أبي نصر الفارابي . ولكن ليست ثمة ريب في أنه فاق هذا الأخير في عنايته بأمر النفس من الناحيتين الفلسفية والعملية ، كما فاق جميع من عرض قبله من علماء المسلمين لهذا النوع من البحوث .

ولا نغلو في شيء إذا قلنا إنه يحتمل مرتبة شبيهة بمنزلة كبار الفلاسفة الذين درسوا النفس الإنسانية كسقراط وأفلاطون وأرسطو . ومهما يكن من شيء فمن المعترف به لدى مؤرخي الفلسفة في العصور الوسيطة أن الرئيس ابن سينا كان عمدة في هذا النوع من الدراسات . ومما يدل على صدق هذه الدعوى أنه غير اتجاه التفكير والبحث لدى علماء المسيحية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين . فقد كانوا أفلاطونيّ النزعة والفكرة . فلما نقلت إليهم فلسفة المسلمين — وبخاصة فلسفة ابن سينا — بدأوا يعنون بدراسة أرسطو وبما كتبه عنه شراحه من العرب .

وقد عنى الرئيس بمسألة النفس عناية بالغة ، وعرض لها من ناحيتين مختلفتين . وزيد بذلك أنه عالج هذه المسألة كطبيب وفيلسوف . غير أننا نرى أن طابع الفيلسوف لديه أغلب . ولا نسكاد نجد كتاباً من كتبه يخلو من ذكر النفس والبرهنة على وجودها وخلودها وبيان طبيعتها ووظائفها أو قواها . (١)

---

== مكتبة القصر . ومن كتبه القانون في الطب الذي خلد ذكره في أوروبا ، والشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات . وتوفي سنة ٤٣٨ هـ [ يولييه ١٠٣٧ م ] .

(١) نذكر من هذه الكتب : الشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات : وله رسائل أخرى في هذا الموضوع منها « رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها » ورسالة سماها « مبحث عن القوى النفسانية » ، كما عرض لذلك في « الرسالة العرشية » . وله فيها عدداً ذلك كآه قصيدة مشهورة في النفس نذكرنا بأساطير أفلاطون . وسنشير إليها حين نعرج لذكر بعض آرائه في طبيعة النفس .

ويفرق الرئيس ابن سينا بين ثلاثة أنواع من النفوس ، وهى النفس نباتية والنفس الحيوانية والنفس الإنسانية . أما أن للنبات نفساً فذلك لأنه يتغذى وينمو ويولد المثل ، وهذه الأفعال لاتأتيه من شىء خارجى عنه ؛ بل عن قوى فى ذاته ، وهى القوى المنمية والغاذية والمولدة . وهذه القوى يختلف بعضها عن بعض . فإننا نرى أن الحيوان إذا أدرك سنا معينة فإنه يتغذى لكنه لا ينمو ؛ بل يضمحل ويتدهور . ووظيفة القوة الغاذية هى أن تعمل على تحويل جسم خارجى حتى ينقلب ، مثلاً لجسم النبات ؛ وهكذا تعوضه ما تحال منه . أما المنمية فتزيد فى جوهر الأعضاء الأصامية طولاً وعرضاً وعمقاً لا كيفما اتفق ؛ بل على جهة تبلغ به إلى غاية النشوء <sup>(١)</sup> . ووظيفة القوة المولدة هى أن تنتج نموذجاً من النبات نفسه . وهذه القوى كلها ليست قوى مادية فى نظر الرئيس ؛ بل هى زائدة عن معنى الجسمية . وهى توجد أيضاً لدى الحيوان ، ويضاف إليهما قوى أخرى كالإحساس والحركة الإرادية . كذلك توجد لدى الإنسان نفس من مرتبة أسمى ، وهى النفس العاقلة . ويمكن تعريف كل نفس من هذه النفوس بوظائفها ، فيقال فى تعريف الأولى إنها : « كمال أول لجسم طبيعى آلى من جهة ما يتولد وبربو ويتغذى » ، وفى تعريف الثانية إنها « كمال أول لجسم طبيعى آلى من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة . » وأخيراً تعرف النفس الإنسانية بأنها « كمال أول لجسم طبيعى آلى من جهة ما يفعل الأفعال السكانية بالاختيار الفكرى والاستنباط بالرأى ، ومن جهة ما يدرك الأمور السكائية . »

### ١ - البرهنة على وجود النفس :

١ - شغلت النفس الإنسانية تفكير أبى على الحسين إلى أكبر حد ،

(١) النجاة - القسم الثانى ، المقالة السادسة من ١٥٨ .

فحاول البرهنة على وجودها قبل أن يتحدث عن صفاتها ، أى أن هذا الفيلسوف رأى أنه من الضروري للباحث في النفس أن يبدأ بإثبات وجودها قبل أن يعرض لتعريفها وبيان وظائفها والحديث عن مصيرها ؛ لأن المنهج السليم يوجب على المرء أن يشرع ، قبل كل شيء ، في إثبات ما يريد الحديث عنه . ولذا نراه يقول في كتاب الشفاء : « إن أول ما يجب أن نتكلم فيه إثبات وجود الشيء الذى يسمى نفساً ثم نتكلم فيما يتبع ذلك . » <sup>(١)</sup> ويذكرنا هذا البدء لديه بما سبق أن رأيناه في حوار سقراط مع السيبيا . <sup>(٢)</sup> فقد رأينا أن سقراط يقول إنه من الواجب أن يبرهن لصاحبه أولاً على وجود النفس ومخالفتها للبدن فى جوهرها ، قبل أن يشرع فى دراسة ما يترتب على ذلك من البحوث الأخرى التى تتصل بالمعرفة والفضيلة والسعادة .

ونستطيع القول بأن هناك سببين حفزا الرئيس أبا على الحسين إلى اتخاذ هذه البرهنة نقطة بدء لدراسته <sup>(٣)</sup> ؛ لأنه رأى من جانب أن يتصدى بالرد على من ذهب من علماء المسلمين إلى إنكار استقلال النفس ، أى إلى القول بأنها عرض يتجدد كما تتجدد بقية أعراض الجسم وأجزائه . وأما السبب الآخر فسبب منهجى ؛ إذ المنهج السليم يوجب على الباحث أن يبدأ بإثبات الشيء الذى يريد دراسته . وقد رأينا منذ قليل أن ابن سينا نفسه قد ذكر لنا هذا السبب ذكراً صريحاً . ونعتقد من جانبنا أن هذا السبب الأخير هو السبب الجوهري حقيقة ؛ بل نستطيع أن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، فنقول : إنه

(١) كتاب الشفاء — طبعة طهران الجزء الأول ص ٢٧٨ .

(٢) أظن الفصل الأول .

(٣) أرجع فى هذه المسألة أيضاً إلى الكتاب القيم الذى ألفه الأستاذ الدكتور إبراهيم مذكور : « فى الفلسفة الإسلامية ، منهج وتطبيقه » وبخاصة من صفحة ١٨٠ إلى ١٩٤ طبعة دار لإحياء الكتب العربية — عيسى البابى الحلبي .

أراد أن يعرض آراءه في طبيعة النفس على طريقة البرهان ومن ثم يحق لنا القول أيضاً بأن السبب المنهجي يتضمن السبب الأول . ونريد بذلك أنه اتخذ البرهنة على وجود النفس سبيلاً إلى بيان طبيعتها ومخالفتها للبدن ، كما سنرى ذلك في ختام كل دليل من أدلته على وجودها . فإذا تقرر ذلك ثبت في الوقت نفسه أنها ليست بعرض للجسم توجد بوجوده وتنفى بفنائها . وليس مسلك الرئيس في هذا الصدد بغريب . فقد سبقه إليه سقراط في حوار ، كما سبقه إليه أفلاطون في أساطيره .

وحقيقة لا تميل كل الميل إلى القول بأن الفيلسوف المسلم كان يريد دحض مذهب الماديين الذين ينكرون استقلال النفس ؛ فإن هذا المذهب لم يبلغ قط ، في أى عصر من العصور ، مبلغاً من القوة بحيث يدعو إلى فزع أنصار المذهب الروحي ، أو إلى بذل كثير من الجهد في بيان فساد . ومما يدل أيضاً على أن ابن سينا لم يكن بدءاً من الفلاسفة أن ديكارت نهج هذا السبيل حينما شك في وجود كل شيء : في جميع الآراء التي تلقاها عن غيره ، وفي وجود العالم الحسي ، وفي وجود جسمه ؛ لكي يبرهن على أنه لا يستطيع الشك أبداً في أنه ذات مفكرة . ومن ثم استخدم هذا البرهان ، أو هذا الشك المنهجي ، في التدليل على وجود النفس وفي بيان طبيعتها ومخالفتها للبدن . وقد عبر عن نتيجة شكه بعبارة المشهورة : « إني أفكر : إذن أنا موجود »<sup>(١)</sup> ، وهي العبارة التي تريد القول بأن جوهر النفس عقل وتفكير . فمن هذا نرى أن « ديكارت » استخدم الشك حتى يبين طبيعة النفس وينص على أنها العنصر الجوهرى في الإنسان . فهو لم يفعل إذن سوى ما سبقه إليه كل من سقراط وابن سينا . وسيتاح

(١) استخدم ديكارت العبارة اللاتينية الآتية : Cogito ergo sum . وإذا بطلق

على برهانه اسم الكوجيتو :

لنا أن نذكر فيما بعد كيف تقوم جميع براهين الرئيس على فكرة سابقة لديه عن طبيعة هذا الجوهر الذى يسمى نفسا . وسوف نبين كيف أخذ عن أرسطو تعريفه للنفس ، وعن أفلاطون كثيراً من آرائه فى طبيعتها . وسنرى إلى أى مدى نجح فى التوفيق بين هذين الفيلسوفين ، ولأيهما يدين بالكثير من آرائه ، كذلك سنبين كيف استطاع أن ينشئ مذهباً ثالثاً فى تفسير ماهية النفس تبعه فيه إلى حد كبير أبو الوليد بن رشد وبعض الفلاسفة من المدرسين الأروبيين . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الفكرة التى بنيت عليها تلك البراهين الخاصة بوجود النفس تقوم فى الواقع على الاعتراف بأنها جوهر روحى بسيط يحل فى البدن ليعنى بأمره وليديره ، كما يحل الربان فى السفينة ليدبر أمرها ويعنى بها .<sup>(١)</sup>

وللرئيس براهين عدة على وجود النفس : وسوف نكتفى هنا بالإشارة إلى أهمها وأكثرها شهرة .

### ١ - البرهان الطبيعى :

ليس هذا البرهان جديداً فى الواقع . فهو نفس الدليل الذى استخدمه سقراط من قبل . وهو يقوم - كما نعلم - على التفرقة بين النفس والبدن على أساس نسبة الحركة إلى كل منهما ، وذلك لأن الجسم ليس مصدراً للحركات التى يقوم بها ؛ بل يتقبلها عن مصدر آخر ، وهو النفس . كذلك فعل ابن سينا حين فرق بدوره بين نوعين من الحركة ، وهما الحركة الإرادية والحركة القسرية . فقال إن ناك أشياء تتحرك بذاتها وأخرى تتحرك بغيرها . فإذا كانت النفس هى التى تحرك البدن وجب أن تكون مختلفة عنه فى طبيعتها ؛ لأن الحركة صفة ذاتية فيها ؛ فى حين أنها ليست كذلك فيما يتعلق بالجسم . وهكذا نرى أنه لم يتخذ هذا

(١) الشفاء : الجزء الأول صفحة ٢٧٨

البرهان وسيلة إلى تقرير وجود النفس بحسب ؛ بل استخدمه ، قبل كل شيء ، لإثبات أنها من جنس مخالف للبدن . وقد ذكر الرئيس هذا البرهان في كتاب الشفاء فقال : « إنا نشاهد أجساماً تحس وتتحرك بالإرادة ؛ بل نشاهد أجساماً تقتذى وتنمو وتولد المثل . وليس ذلك بجسميتها . فبقي أن يكون في ذواتها مبادئ لذلك غير جسميتها . والشئ الذى يصدر عنه هذه الأفعال فإننا نسميه نفساً . »<sup>(١)</sup>

### ب - برهان الإدراك والأفعال الوجدانية :

يعتمد هذا البرهان على التفرقة بين أفعال الإنسان وغيره من أنواع الحيوان . فإن الإنسان يمتاز عن غيره من الحيوان ببعض الخواص كالسكلام واستخدام الإشارة . ومن خواصه أيضاً أنه يحس ألواناً من الانفعالات كالتمعجب والضحجر . وقد قال ابن سينا : « ومن خواص الإنسان أن يتبع إدراكه للأشياء النادرة افعال يسمى التمعجب ويتبعه الضحك . ويتبع إدراكه للأشياء المؤذية افعال يسمى الضحجر ، ويتبعه البكاء . »<sup>(٢)</sup>

لكن هناك ما يفوق هذه الأفعال الوجدانية أهمية وشرفاً ، ونعنى بذلك العمليات العقلية السامية التى تنتهى لدى الإنسان وحده بإدراك المعانى المجردة من الأمثلة الحسية : « وأخص الخواص بالإنسان تصور المعانى العامة المجردة عن المادة كل التجريد . . . والتوصل إلى معرفة الجهولات تصديقاً وتصوراً من المعلومات العقلية . فهذه الأحوال والأفعال المذكورة هى مما يوجد للإنسان ، وچلها يختص به الإنسان ، وإن كان بعضها بدنياً ، لكنه موجود لبدن الإنسان بسبب النفس التى للإنسان . »<sup>(٣)</sup>

(١) نفس المصدر ص ٢٧٩ (٢) نفس المصدر ص ٣٤٦ (٣) نفس المصدر ص ٣٤٧

كذلك يمتاز الإنسان من جهة أخرى بالقدرة على التفارقة بين الخير والشر ،  
حيث بين الحسن والقيح . ويقول ابن سينا : إن النفس ليست إحدى هذه القوى سالفة  
الذكر ، ولسكنها الشيء الذى له هذه القوى .

ومما يدل على صدق دعوانا القائلة بأنه يتخذ البرهنة على وجود النفس  
سبيلا إلى بيان طبيعتها ، وأنها هى الجوهر الذى تنسب إليه هذه الأفعال دون  
البدن ، أنه يقول فى نهاية هذا البرهان : « النفس هى الشيء الذى له هذه القوى .  
وهو ، كما تبين ، جوهر منفرد ، وله استعداد نحو أفعال لا يتم بعضها إلا بالآلات  
وبالإقبال عليها بالسكنية ، وبعضها يحتاج فيه إلى الآلات حاجة ما ، وبعضها  
لا يحتاج إليه أبته . » (١)

#### م — وهمرة النفس :

بنى ابن سينا هذا البرهان على ما رآه من وجود علاقات وثيقة بين مختلف  
وظائف النفس . فهو لا يرى رأى أفلاطون القائل بوجود ثلاث نفوس أو ثلاثة  
أجزاء للنفس فى البدن الواحد ، كل منها مستقل عن الآخرين . وقد رأينا كيف  
ذهب أفلاطون إلى أن اتصال النفس بالجسم كان سببا فى مسخها وتشويهها ، وداعيا  
إلى تطرق الكثرة إليها ، أى إلى انقسامها إلى ثلاث نفوس : هى النفس  
الشهوانية ، والنفس النضوية ، والنفس العاقلة . ورأينا كذلك أن هذا الانقسام  
ليس لديه أسراً مجازيا ؛ فإنه كان يعتقد أن كل نفس من هذه تحمل فى جزء خاص  
بها من الجسم . فهى مستقلة حقيقة وقائمة بذاتها ، على الرغم مما عسى أن يكون  
بينها من صلات . وعلى خلاف ذلك يرى الفيلسوف المسلم ، أن النفس جوهر  
بسيط ، وأن وجوده فى البدن لا يشوه طبيعته ، فيظل واحداً على الرغم من تعدد

(١) نفس المصدر صفحة ٣٤٨

وظائفه ، فالنفس لديه إذن هي ذلك الرباط الذي يجمع هذه الوظائف المختلفة ، ويلم شعنها ، حتى لا تتعارض وتتنافى ؛ فيؤدي أعمارها إلى فسادها جميعا . وقد بين الرئيس معنى وحدة النفس بقوله : « إنه يجب لهذه القوى [ الشهوانية والغضبية والمدركة ] رباط يجمع بينها كلها ، وتكون نسبتها إلى هذه القوى نسبة الحس المشترك إلى الحواس . . . فإننا نعلم أن هذه القوى يشغل بعضها بعضا ، ويستعمل بعضها بعضا . . . وهذا الشيء لا يجوز أن يكون جنسا . . . ولا اعتراض على أن النفس غير جسم ؛ لأن هذا الذي ليس بجسم يجوز أن يكون منبع القوى ، فيفيض عنها بعضها في الآلة ، وبعضها يختص بذاتها . . . وأما الجسم فلا يمكن أن تكون هذه القوى كلها فائضة عنه . فإن نسبة القوى إلى الجسم ليس على سبيل الفيضان ؛ بل على سبيل القبول . » (١)

ومن البداهة أن هذا النص ليس برهانا على وجود النفس بحسب ؛ بل هو بالأحرى تفسير لما هيتهما وبيان لخالفتهما للبدن .

وقد استعان ابن سينا ببعض الأمثلة على تأكيد هذا المعنى الأخير ، فنجا إلى بعض الفروض أو الصور الخيالية التي تقوم على أساس من تخيل عدم وجود البدن ؛ إذ لا يستطيع المرء ، في هذه الحال ، إلا الاعتراف بوجود جوهر آخر هو نفسه ، ونجد لديه صورتين أخادتين في كتاب الشفاء :

#### أولا : صورة الثياب :

أما الصورة الأولى فتتلخص في هذا الأمر ، وهو أنه يمكن تشبيه الجسد وأعضائه بالثياب التي أقمناها واشتد إلغنا إياها إلى حد أننا أصبحنا نعتقد أنها جزء من ماهيتنا وحقيقتنا ، مع أنها ليست كذلك . وقد عبر الفيلسوف عن هذه

(١) نفس المصدر ص ٣٦٢ .

الصورة بقوله: « لو خاق إنسان دفعة واحدة ، وخلق متباين الأطراف . . . »  
ولم يبصر أطرافه ، واتفق أن لم يمسه ولا تماسه ، ولم يسمع صوتا جهل وجود جميع  
أعضائه وعلم بوجود إنثيته شيئا ، مع جهل جميع ذلك . وليس المجهول بعينه هو  
المعلوم . وليست هذه الأعضاء لنا في الحقيقة إلا كالثياب التي صارت لدوام لزومها  
إيانا كأجزاء منا عندنا . وإذا تخيلنا أنفسنا لم نتخيلها عراة ؛ بل نتخيلها ذوات  
أجسام . . . والسبب فيه دوام الملازمة ؛ إلا أنا قد اعتدنا في الثياب من التجريد  
والطرح ما لم نمتد في الأعضاء . وكان ظننا الأعضاء جزءا منا آكد من ظننا  
الثياب أجزاء منا . . . فبين من هذا أن لهذه القوى مجعما هو الذي يؤدي كلها  
إليه ، وأنه غير جسم ؛ وإن كان مشاركا للجسم ، أو غير مشارك . « (١)

والحق أن ابن سينا أخذ هذه الصورة عن أبي نصر الفارابي ، فإن هذا الأخير  
يقول : « إن لك منك غطاء فضلا عن لباسك من البدن . فاجتهد أن ترفع الحجاب  
وتتجرد . وحينئذ تلحق ، فلا تسأل عما تباشره ، فإن ألمت فويل لك ، وإن سلمت  
فطوبى لك . وأنت في بدنك كأنك لست في بدنك . » (٢)

### ثانيا : صورة الرجل الطائر :

أما الصورة الثانية فهي صورة رجل يهوى في الفضاء بحيث يوجد في وضع  
لا يحس فيه أي عضو من أعضائه ، لا باطنا ولا خارجا ، ولكنه يشعر بوجود نفسه ،  
أي بوجود ذلك الجوهر البسيط الخالف البدن . وتعرف هذه الصورة ببرهان  
الرجل الطائر . وهو الذي يعبر عنه ابن سينا بقوله : « يجب أن نشير في هذا  
الموضع إلى إثبات وجود النفس التي لنا إثباتا على سبيل التنبيه والتذكير إشارة  
شديدة الوقع عند من له قوة على ملاحظة الحق نفسه من غير احتياج إلى تثقيف

(٢) الثمرة المرضية ص ٧١

(١) نفس المصدر ص ٣٦٣

وقرع عصا فنقول : يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة ، وخلق كاملاً ..  
لكنه حُجب بصره عن مشاهدة الخارجات ، وخلق يهوى في هواء أو خلاء .  
هو يلا يصدمه فيه قوام الهواء صدماً ما يحوج إلى أن يحس ، وفُرق بين أعضائه  
فلم تتلاق ولم تتماس ، ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته ، ولا يشك في إثباته  
لذاته موجوداً ، ولا يُثبت مع ذلك طرفاً من أعضائه ، ولا باطناً من أحشائه ، ولا قلباً  
ولا دماغاً ، ولا شيئاً من الأشياء من خارج ؛ بل كان يثبت ذاته ، ولا يثبت لها  
طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً ، ولو أنه أمكنه ، في تلك الحال ، أن يتخيل يداً أو عضواً  
آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته ولا شرطاً في ذاته . وأنت تعلم أن المثبت غير الذي  
لم يثبت . والمقرّ به غير الذي لم يقر به . فإذاً للذات التي أثبت وجودها خاصية  
لها على أنها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التي لم يثبت .<sup>(١)</sup>

ويتمين لنا من هذا البرهان ومن سابقه أن ابن سينا كان يعنى قبل كل شيء  
ببيان طبيعة النفس وبالتفرقة بينها وبين الجسم ، وأنه لم يسلك طريق البرهان  
إلا لأنه كان يرى أنه أشدّ وقماً في النفس . وقد ذكر ابن سينا برهان الوحدة  
على نحو آخر في رسالته المسماة : « رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها » ،  
فقال : « إن الإنسان يقول أدركت الشيء الفلاني بصري واشتهيته أو غضبت منه ،  
وكذا يقول أخذت بيدي ، ومشيت برجلي ، وتكلمت بلساني ، وسمعت بأذني ،  
وتفكرت في كذا ، وتوهمت وتخيّلت ، فنحن نعلم بالضرورة أن في الإنسان شيئاً  
جامعاً يجمع هذه الإدراكات ، ويجمع هذه الأفعال ، ونعلم أيضاً بالضرورة أنه ليس  
شيء من أجزاء هذا البدن مجعاً لهذه الإدراكات والأفعال . فإنه لا يبصر بالأذن ،  
ولا يسمع بالبصر ، ولا يمشي باليد ، ولا يأخذ بالرجل ، ففيه شيء يجمع لجميع الإدراكات

(١) نفس المصدر . الجزء الأول . صفحة ٢٨١ .

والأفاعيل . فإذا الإنسان الذي يشير إلى نفسه « أنا » مغاير لجملة أجزاء البدن ، فهو شيء وراء البدن .

د — برهان الاستمرار :

ليس هذا البرهان في الحقيقة سوى نتيجة وتتممة للبراهين السابقة . فإن النفس لما كانت سبباً في حركة الجسم وحياته ، ومصدراً للأفعال الوجدانية والإدراك والعمليات العقلية السامية ومعياراً يفرق بين الخير والشر والحسن والقبيح ، ورباطاً ومجمعاً لوظائف الجسم ولتختلف القوى التي تنشأ بسبب اتصالها به ، كان من الواجب أن تختلف عنه في خواصها . فنحن نعلم أن البدن يقبل التحول والتغير ، ويخضع لعوامل النشوء والفساد . كذلك نعلم أن السبب في قابليته وخضوعه لهذه العوامل يرجع ، في حقيقة الأمر ، إلى أنه يتركب من عناصر مختلفة تخضع في الوقت نفسه لشتى العوامل وتقبل الزيادة والنقصان . فسألها لا شك إلى التفرق والدخول في مركبات جديدة . لكن لما كانت النفس وحدة قائمة بذاتها ، أى لما كانت جوهرًا بسيطًا ، فن الطبيعي ألا تخضع لنفس العوامل التي تؤثر في البدن . فهي ، على خلاف هذا الأخير ، ثابتة باقية على حالها ، أى لا تقبل الزيادة أو النقصان . وقد بين لنا ابن سينا هذا البرهان الذي يثبت وجود النفس ويفسر طبيعتها في آن واحد بقوله : « تأمل أيها العاقل في أنك اليوم في نفسك هو الذي كان موجوداً في جميع عمرك ، حتى أنك تتذكر كثيراً مما جرى من أحوالك . فأنت إذن ثابت مستمر لا شك في ذلك . وبدنك وأجزاءه ليس ثابتاً مستمراً ؛ بل هو أبدأ في التحلل والانتقاص ولهذا يحتاج الإنسان إلى الغذاء بدل ما تحلل من بدنه . . . ولهذا لو حبس عن الإنسان مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع بدنه . فتعلم نفسك أن ، في مدة عشرين سنة ، لم يبق شيء من أجزاء بدنك .

وأنت تعلم بقاء ذاتك في هذه المدة جميع عمرك. فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة. فهذا برهان عظيم يفتح لنا باب الغيب . فإن جوهر النفس غائب عن الحس والأوهام .<sup>(١)</sup>

\* \* \*

## ٢ — البرهنة على روحانية النفس :

بعد أن انتهى الرئيس ابن سينا من التذليل على أن النفس جوهر مخالف للبدن ، رأى أنه لا يكفيه تقرير هذا الخلاف ؛ بل ينبغي له أن يبين أيضاً أنها غير جسمية ، أي أنها جوهر روجي . وليست جوهرأ فردأ على النحو الذي كان يفهمه المتكلمون .

أما طريقته في هذه البرهنة فهي أنه بدأ بأن قال : إن النفس تدرك المعقولات ، أي المعاني السكلية المجردة من كل آثار المادة أو ما يتصل بها ، كالكلم والأين والوضع . وهي لا تدرك هذه المعاني إلا بعد أن تستعد لقبولها ؛ إذ تفيض عليها في هذه الحال وتشرق فيها ، كما تلوح الصورة في المرآة<sup>(٢)</sup> ، وإذن فما يحيله العقل القول بأن هذه المعاني المجردة من المادة تنطبع أو تنعكس في جسم مادي ، أو في محل هو جزء من جسم .

وقد سلك ابن سينا في البرهنة على أن مكان المعاني السكلية — ويعني به النفس — ليس جسماً مسلماً جديلاً يمتاز بالغموض والترديد بين أمور يبرهن على بطلان كل أسرها فيترتب على ذلك ثبوت القضية التي يريد تقريرها وهي عدم جسمية النفس ، أي روحانيتها . وسوف لانسلك معه كل تلك الشهاب

(١) أراجع إلى « رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها » ص ٧ نشرها الأستاذ محمد ثابت الفندي .

(٢) أراجع إلى الفصل السابع الفقرة السابعة — آراء ابن سينا في العقل .

التي يحلو أن يقودنا إليها ؛ بل سنجمل رأيه أكبر إجمال ، إن صح أن الإجمال قد يكون سبيلا إلى الوضوح في مثل هذه الحال . وسنجعل ذلك على هيئة برهانين هما برهان الإدراك العقلي وبرهان عدم التوازي بين النفس والبدن .

### ١ - برهان الإدراك العقلي :

بجمله أننا لو فرضنا جدلا أن المعاني السكلية يمكن أن تجل في مكان مادي فإن هذا المكان لا يحلو من أحد أمرين : إما أن يكون مكانا لا يقبل القسمة ، أو يقبلها . وفي الحالة الأولى تكون النفس جسما لا يقبل القسمة ، أى جوهرأ فردا . لكن هذا الفرض الأول لا يمكن قبوله ؛ لأن النفس تشبه حينئذ النقطة الهندسية في عدم قبولها للانقسام . لكننا نعلم أن هذه النقطة لا توجد وجودا ذاتيا ؛ بل هي عنصر في الخط المستقيم ونهاية ذهنية أو اعتبارية له ، أى أنها لا توجد منفردة بحال ما . وإذن فلا يمكن أن تكون محلا لشيء من الأشياء التي يوصف بها الخط كالسك واللون الخ . فلو كانت النفس جسما لا يقبل الانقسام لما صح أن يكون لها وجود ذاتي ، ولما أمكن تبعا لذلك أن تكون موضعا للمعقولات . بقي الاحتمال الثاني وهو أن تكون النفس جسما أو محلا منقسما . ومعنى ذلك أننا إذا فرضنا أن هناك صورة عقلية أى معنى كليا يوجد فيها فإنه ينقسم بانقسامها . وعندئذ لنا أن نساءل : أهذه الأقسام التي ينقسم إليها متشابهة أو غير متشابهة . فإذا كان متشابهة فلماذا كانت متعددة ، أى إذا كان المعنى السكلي يتركب من عنصر واحد يتكرر فما السبب في تكراره ، وكيف يجمع بسبب هذه العناصر معنى كلي متنوع يختلف عن كل عنصر من العناصر الداخلة في تركيبه<sup>(١)</sup> ؟ ، ولماذا يجب إدخال عناصر عدة إذا كان عنصر واحد منها

(١) النجاة . القسم الثاني ص ١٧٦

يكفى؟ أما إذا كانت الأقسام غير متشابهة فإنه يترتب على ذلك أن المعنى الكلى أو الصورة العقلية تقبل الانقسام إلى مالا نهاية له، باعتبار أن المكان الذى تحمل فيه هذه الصورة ينقسم هو الآخر إلى غير نهاية. لكننا نعلم أن أجزاء المعنى الكلى إنما تكون غير متشابهة إذا كانت أجزاء فى ماهية من الماهيات، أى إذا كانت أجناسا وفصولا كالحيوانية والنطق اللذين تتألف منهما ماهية الإنسان مثلا. وفى مثل هذه الحال نجد أن الصورة العقلية تنقسم إلى حد معلوم. فكيف نجتمع إذن بين النقيضين فنقول من جانب إنها تنقسم إلى مالا نهاية له باعتبار المكان المادى الذى تحمل فيه، ونقول من جانب آخر إنها تنقسم إلى نهاية باعتبار الأجناس والفصول؟<sup>(١)</sup> كذلك ليس لنا أن نزعم أن كل صورة عقلية تقبل القسمة؛ بل هناك صور عقلية بسيطة، أى ليست أجناسا ولا أنواعا، ولا تقبل القسمة لا باعتبار السكم أى المقدار، ولا باعتبار المعنى. فكيف نقول بعد ذلك إن هذه الصور غير المركبة تحمل فى محل يقبل الانقسام إلى مالا نهاية له، وأنها تنقسم بانقسامه؟

تلك هى بعض الاحتمالات التى ذكرها ابن سينا، وبرهن على فسادها جميعا؛ لسكى يفتخم برهانه على روحانية النفس فيقول: « فإذا كان ليس يمكن أن تنقسم الصورة المقولة، ولا أن تحمل طرفا من المقادير غير منقسم، ولا بد لها من قابل فينا، فبيّن أن محل المقولات جوهر ليس بجسم، ولا أيضا قوة فى جسم، فيلحقه ما يلحق الجسم من الانقسام، ثم يتبعه سائر الحالات. »<sup>(٢)</sup>

(١) يقول ابن سينا: « ويلزم من هنا محاولات: منها أن كل جزء من الجسم يقبل القسمة أيضا فى القوة قبولاً غير متناه، فيجب أن تكون الأجناس والفصول بالقوة غير متناهية، وقد صح أن الأجناس والفصول الذاتية للمعنى الواحد ليست فى القوة غير متناهية. » النجاة ص ١٧٦.

(٢) نفس المصدر ص ١٧٧

وقد أراد تأكيدها البرهان فقال : إن أهم ما تتميز به النفس هو الإدراك العقلي ، وهذا الإدراك لا يستخدم آلة جسمية ما ، على غرار الإدراك الحسي الذي يعتمد على أعضاء معينة ، كالعين والأذن وغيرها . وبالإدراك العقلي تدرك النفس ذاتها ، وتدرك أنها تدرك . وهذا شيء لا يستطيعه أى عضو جسمى من الأعضاء التى تحس ، فهذا دليل إذن على أنها لا تحتاج فى قوامها إلى جسم ، وإلا لوقف هذا الجسم حائلا دون إدراكها لنفسها .<sup>(١)</sup>

### ب — برهان عمرم التوازى بين النفس والجسم :

نحن نرى أن النفس لا تسير ، فى نموها وضعفها ، خطوة بخطوة مع الجسم ، ومعنى ذلك أن التوازى بينها ليس كاملا .

فالجسم يخضع لعوامل شتى فى نموه ، ثم يتوقف هذا النمو عند حد معلوم يأخذ بعده الجسم فى الضمور والذبول والانحلال . ولو كانت النفس تتبعه فى كل هذه التطورات تماما لوجب أن تذبل قواها عندما يبدأ الجسد فى مرحلة التدهور والانهياب التى تنتهى بالموت . وقد قال ابن سينا فى ذلك : « لا شك أن الجسم الحيوانى والآلات إذا استوفين سن النمو وسن الوقوف ، أخذن فى الذبول والتنقص وضعف القوة ، وكلال المنة ، وذلك عند الإنافة على الأربعين سنة . ولو كانت القوة الناطقة قوة جسمية لكان لا يوجد أحد من الناس فى هذه السنين إلا وقد أخذت قوته تنقص . ولكن الأمر فى أكثر الناس على خلاف هذا ؛ بل العادة جرت فى الأكثر أنهم يستفيدون ذكاء فى القوة

---

(١) نفس المصدر : ص ١٧٨ — ١٧٩ : « ونقول إن القوة العقلية لو كانت تعقل بالآلة الجسدية حتى يكون قلبها الحاس إنما يتم باستعمال تلك الآلة الجسدية لكان يجب ألا تعقل ذاتها ، وألا تعقل الآلة ولا أن تعقل أنها عقلت . . . لكنها تعقل ذاتها وآلتها التى تدعى آلتها . . . فإذا إنما تعقل بنا ، لا بالآلة . »

المقاولة وزيادة بصيرة . فإذاً ليس قوام القوة المنطقية بالجسم والآلة ، وإذن هي جوهر قائم بذاته . « (١)

ومن جانب آخر نجد أن الجسم يتأثر بشدة الإدراكات الحسية ، فيعجز عن إدراك ما هو منها أقل شدة ، وذلك عند ما يكون الانتقال من الأولى إلى الثانية انتقالاً مفاجئاً ، كما يحدث عند ما ينتقل المرء من مكان شديد الضوء إلى مكان أقل منه ضياءً ، فإنه لا يكاد يرى بعينه شيئاً . ومثال هذا أيضاً أن الإنسان يعجز عن إدراك الصوت القوي عقب سماع الصوت الضعيف أو العكس . وليس الأمر على هذا النحو فيما يمس الإدراك العقلي الذي تستقل به النفس ، أى الذى لا تحتاج فيه إلى آلة معينة . وبيان ذلك أن الإدراكات العقلية القوية لا تحول دون إدراك ما هو أقل قوة وحدة منها .

وحيث نرى أن النفس ، إذا لم تضعف بضعف البدن ، كان ذلك دليلاً على أنها ليست صورة ولا عرضاً للجسم ؛ بل جوهر روحى قائم بذاته . ومما يقوى ذلك البرهان أن الجسم إذا مرض ثم عوفى ، فإن النفس تستعيد جميع ما كانت تعلمه من قبل ، دون حاجة إلى البدن أو الحواس ، اسكى تكسب شيئاً فشيئاً ما فقدت بسبب مرضها . ولذلك يقول الرئيس ابن سينا : « ولو كانت الملكة العقلية المكتسبة قد بطلت وفسدت لأجل الآلة لكان رجوع الآلة إلى حالها يحوج إلى اكتساب من الرأس . وليس الأمر

---

(١) يبحث القوى الإنسانية من ٧١ . انظر أيضاً الشفاء الجزء الأول من ٣٥٠ . وكتاب النجاة من ١٨٠ : « وأيضاً فإن البدن تأخذ أجزاءه كلها تضعف توأماً بيد منتهى النشوة والوقوف ، وذلك دون الأربعين أو عند الأربعين ، وهذه القوة إنما تقوى بعد ذلك ، وأكثر الأمر . ولو كانت من القوى البدنية لكان يجب دائماً — فى كل حال — أن تضعف حينئذ . لكن ليس يجب ذلك إلا فى أحوال وبوفاة هوائى دون جميع الأحوال . فليست إذن من القوى البدنية . »

كذلك ؛ فإنه قد تعود النفس إلى ملكتها وهيئتها عاقلة بجميع ما عقلته ، إذا عاد  
البدن إلى سلامته . فقد كان إذن ما كسبته موجوداً معها بنوع ما ؛ إلا أنها  
كانت مشغولة عنه . . . . . »

\* \* \*

### ٣ - طبيعة النفس :

والآن يتبين لنا بوضوح أن البراهين السابقة بنوعها تقوم جميعها على أساس  
واحد هو طبيعة النفس . فقد رأينا أن الرئيس لم يسق هذه البراهين واحداً  
تلو آخر إلا لكي يبين لنا أن النفس جوهر روهى مخالف للبدن . ولكن ليست  
هذه الأدلة في الواقع سوى أدلة سلبية . فإنها تفرق بين جوهرى النفس والبدن ،  
دون أن توقفنا على الصفات الإيجابية للنفس . ومع ذلك ، فهى خير دليل على أن  
ابن سينا لم يقبل تعريف أرسطو للنفس على علته .

حقاً لقد عرّف الفيلسوف المسلم النفس بأنها « كمال أول لجسم طبيعى آلى ،  
وإن شئنا قلنا كمال أول لجسم طبيعى ذى حياة بالقوة ، أى مصدر الأفاعيل الحيوانية  
بالقوة . » (١) كذلك قال بأن النفس صورة للبدن ، فذكر « أن الجسم الحى جسم  
مركب طبيعى يمايز غير الحى بنفسه لا ببدنه . ويفعل الأفاعيل الحيوانية بنفسه  
لا ببدنه . ونفسه فيه . وما هو فى الشىء وهذه صورته فهو صورته . فالنفس إذن  
صورة ، والصور كالات بها هويّات الأشياء . » (٢) ومع ذلك ، فإنه يفهم هذا  
التعريف الأرسطوطاليسى على نحو خاص ؛ فإنه لا يرى كصاحبه أن النفس  
صورة للجسم منطبعة فيه . وهى ، وإن كانت كالا وشرفا له ، فليس الكمال هنا

(١) مبحث عن القوى النفسانية ص ٢٥

(٢) نفس المصدر .

بالمعنى الذى ذهب إليه أرسطو من قبل . وحينئذ فإذا قال الرئيس ابن سينا (١) :  
إن النفس كمال أول لجسم آلى ذى حياة بالقوة أو كمال أول لجسم طبيعى آلى له  
أن يفعل أفعال الحياة ، فإنه ينفى لنا أن نترىث بعض الشيء قبل الحكم عليه بأنه  
لم يفعل سوى أن نقل تعريف أرسطو للنفس وآراءه فيها . وقد ينجيل إلى بعض  
الناس أنه ذقل أمين ؛ لأنه يقول أيضاً بحدوث النفس ، كما قال أرسطو من قبل .  
ولكن الحقيقة على خلاف هذا الظن . فإنه كان حربصاً كل الحرص على نفي  
هذه الشبهة . فإنه ، وإن استخدم لفظ السكمال فى وصف النفس ، فقد نص على  
أن السكمال هنا غير الصورة بالمعنى الأرسطوطاليسى ، وهى التى تتحد أحماداً  
جوهرياً بمادتها ، فلا تنفك إحداها عن الأخرى بحال ما . حقاً إن كل صورة كمال ،  
ولكن ليس من الضروري أن يكون كل كمال صورة . « فإن الملك كمال المدينة  
والريان كمال السفينة ، وليس بصورتين للمدينة والسفينة . فما كان من السكمال  
مفارق الذات لم يكن بالحقيقة صورة المادة وفى المادة . فإن الصورة التى هى  
فى المادة هى الصورة المنطبقة فيها القائمة بها . . فبين من هذا إذا قلنا فى  
تعريف النفس إنها كمال أول كان أدل على معناها . » (٢)

ومن ثم يتدرج هذا الفيلسوف إلى القول بأن تعريف النفس بأنها كمال أول  
ليس فى الواقع بياناً لطبيعتها ؛ إذ للزم أن يتساءل أهى جوهر أم عرض ؟  
ويمكن البت فى هذه المسألة بالفرقة بين النفس كجوهر مستقل وبينها وقد  
اتصلت بالبدن . وفى هذه الحال الأخيرة فقط يدخل البدن فى تعريفها ، ولكن  
لاعلى أنها صورة منطبقة فيه ؛ بل على أنها شرف وكمال له فى الوجود ، كما يدخل  
البناء فى تعريف البانى ؛ لأنه هو السبب فيه ، وإن كان مستقلاً عنه .

(١) الشفاء الجزء الأول صفحة ٢٧٩ .

(٢) نفس المصدر الجزء الأول ص ٢٧٨ و ٢٧٩ .

وهنا يبدو لنا بجلاء أن ابن سينا يميل إلى الجمع بين آراء كل من أفلاطون وأرسطو في طبيعة النفس . فهو يرى ، كأول ، أن النفس جوهر مستقل ومخالف للبدن ، ويرى ، كالثاني ، أنها كمال له ، وأنه يدخل في تعريفها بمعنى خاص . ولكنه يرفض تعريف أرسطو جملة إذا كان الأمر بصدد بيان طبيعة النفس على اعتبار أنها ذات مستقلة عن البدن . فإنها لديه جوهر روهي كإيداء ، وهى تفيض من العالم العلوى . فتحل في البدن كارهة . وقد تغادره كارهة أيضاً .

وقد ظن أكثر الناس وكثير من المتكلمين أن الإنسان هو هذا البدن ، المشاهد المحسوس ، ولكن هذا ظن فاسد فإنه — كما يقول الرئيس — : « .. جوهر روحانى فاض على هذا القالب وأحياء ، واتخذة آلة فى اكتساب المعارف والعلوم حتى يستكمل جوهره بها ويصير عارفاً بربه ، عالماً بحقائق معلوماته ، فيستمد بذلك للرجوع إلى حضرته ، ويصير ملكاً من ملائكته فى سعادة لا نهاية لها . وهذا هو مذهب الحكماء الألهيين والعلماء الربانيين . ووافقهم فى ذلك جماعة من أرباب الرياضة وأصحاب المكاشفة . فإنهم شاهدوا جواهر أنفسهم عند انسلاخهم من أبدانهم واتصلهم بالأنوار الإلهية . » وهذا المذهب الأخير هو الذى ساق ابن سينا براهينه من أجله (١) .

ويمكننا القول بأن قصيدته المشهورة فى النفس تعبّر أصدق تعبير عن آرائه فيها ؛ لأنها تتسق مع تعريفه للنفس ومع براهينه على وجودها وآرائه فى طبيعتها . وتذكرنا هذه القصيدة بأساطير أفلاطون بعض الذكر . فهو يقص علينا أن النفس كانت فى عالم قدسى علوى ، وأنها هبطت منه كارهة ، وأن من طبيعتها أن تحاول الصعود والفرار من العالم الحسى ، كما يدل على ذلك وجود ما يشبه الأجنحة لديها .

(١) رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها ، ص ٧ .

كذلك يذكر لنا أنها جوهر خفي يغيب عن الحس ، مع أنه يبدو سافراً شديداً الظهور لدى العقل ؛ إذ تبدو آثارها في تلك الوظائف والقوى التي تنشأ بسبب اتصالها بالبدن . وعلى الرغم من أنها حلت به كارهة ، فلربما ألفته ورضيت جواره ، واتبعت شهواته ، وخضعت لرغباته ، فيشتد كلفها به ، وتمز عليها مفارقتها .

ولا نستطيع إلا أن نلمح الصلة القوية بين نظريته في المعرفة الإنسانية وبين آراء أفلاطون في هذه المسألة بعينها . فإن ابن سبنا يشبه الجهل بالنسيان هو الآخر ، ويقول إن المعرفة نوع من التذكر ، كما يتحدث عن حنين النفس ورغبتها في الصعود إلى العالم الذي هبطت منه . ويذكر أنها إذا شارفت هذا العالم عطلت سعادتها ، وكشف عنها غطاء النسيان أو الجهل ، فأدرت الحقائق الخالدة الثابتة . ثم يتساءل في آخر الأمر عن الحكمة في هبوطها فيرى ، على عكس أفلاطون ، أنها لم تغادر عالمها الأول لتسفر عما ارتسكبت من خطايا ، وانكن هبوطها كان لحكمة إلهية . فإن اتصالها بالبدن يتيح لها معرفة كل ما يمكن معرفته في هذا العالم الحسى .

وفيا يلي بعض أبيات من هذه القصيدة :

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقاء <sup>(١)</sup> ، ذات تعزز وتمنع
محبوبة عن كل مقلة ناظر	وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما	كرهت فراقك وهي ذات تفجع

\* \* \*

وأظنها نسيت عهداً بالحى	ومنازلاً بفراقها لم تقنع
تبكى إذا ذكرت دياراً بالحى	بمدامع تهسى ولما تقطع
حتى إذا قرب المسير إلى الحى	ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

(١) يذكر أفلاطون في كتابه « فيدر » أن النفس كانت في الزمن الخالي مكسوة بالريش.

بأسرها « Phèdre 251, c » :

سجعت، وقد كشف الغطاء فأبجرت ما ليس يبصر بالعيون المحج

\* \* \*

فلأى شيء أهبطت من شاهنخ سام إلى قعر الحضيض الأوضع  
إن كان أهبطها الإله لحكمة طويت عن الفذ اللبيب الأروع  
فهبوطها لاشك ضربة لازب لتكون سامعة لما لم تسمع  
وتعود عالة بكل خفية في العالمين فخرقها لم يرقع  
وهي التي قطع الزمان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلاع  
فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

## ٦ — تعريف النفس لدى الغزالي

أخذ أبو حامد الغزالي<sup>(١)</sup>، على عاتقه مهمة دحض مذاهب فلاسفة الإسلام،

(١) ولد أبو حامد الغزالي سنة ٤٥٠ هـ . وتوفي في ١٤ جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ . وقد ذكر صاحب هيون الأخبار : أنه لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله . وقد اشتغل في مبدأ أمره بطبوس على أحمد الراذكاني ، ثم قدم نيسابور ، واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي الممالى الجوبى . وجد في الاشتغال حتى تخرج في مدة قريبة ، وصار من الأعيان المشاهير إليهم في زمن أسناده . وصنف في ذلك الوقت ، وكان أستاذه يتجسس به : ولم يزل ملازماً له إلى أن توفي . ثم رجع من نيسابور إلى المسكر ، واتى الوزير نظام الملك فأكرمه وعظمه . ثم فوض إليه التدريس بمدرسة النظامية ببنداد فجاءها ، وياشر إلقاء الدروس بها سنة ٤٨٤ هـ . ثم سلك طريق الزهد والانقطاع لمدة عشرة سنوات . وقصد الحج . فلما رجع منه توجه إلى الشام فأقام بمدينة دمشق مدة يذاكر الدروس في زاوية الجامع . . . وانتقل منها إلى بيت المقدس . واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة ، ثم أتجه إلى مصر ، وأقام بالإسكندرية مدة . وكان يريد الذهاب إلى بلاد المغرب للقاء الأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراکش . وبينا هو كذلك إذ بلغه نبأ وفاة الأمير ، فصرف هزمه عن تلك الناحية ، ورجع إلى طوس . لسكن الأرجح أن الغزالي لم يسافر إلى مصر . وكتبه مشهورة معروفة ، منها الوسيط والبسيط والموجز والحلاصة في الفقه ، وإحياء علوم الدين والنحول والمتنجل في علم الجدل ، وتهاافت الفلاسفة ، ومعيار العلم ، ومقاصد الفلاسفة والنقذ من الضلال ، وفيصل التفرقة ، والسطاس المستقيم ، ومسكاة الأنوار الخ .

(٧ — في النفس والعقل)

وبيان تهافت آرائهم وتداعيمها . ومن المعلوم أنه أفرد لتحقيق هذا الغرض كتابه المسمى « تهافت الفلاسفة » . كذلك نعلم أن هذا المفكر لم يقف في عداته لفلاسفة بنى ملته عند حد دحض الآراء وتسفيهها وتحقيرها وإثبات تناقضها ؛ بل تجاوزه إلى تكفير هؤلاء الفلاسفة في مسائل ثلاث ، هي : مسألة قدم العالم ، وقولهم إن الله لا يعلم الجزئيات ، وإنكارهم حشر الأجساد . ولسنا الآن بصدد بحث هذا الخلاف مرة أخرى ؛ وإنما نريد أن نشير إلى هذا الأمر ، وهو أن أبا حامد عرض في الكتاب آنف الذكر إلى مسألة تتصل اتصالا وثيقا بموضوع بحثنا . فقد ذكر أنه يستطيع التدليل على عجز الفلاسفة قبله عن إقامة البرهان على أن النفس الإنسانية جوهر روحاني قائم بذاته . وليس لنا أن نناقش أدلته في هذا المقام ؛ لسكنا نكتفي بالقول بأنه على الرغم من هذه الخصومة الصريحة ، والنعيفة في آن واحد ، قد أخذ عن هؤلاء الفلاسفة تعريفهم للنفس وكثيرا من آرائهم في طبيعتها ، وبخاصة آراء أبي علي الحسين بن سينا ، كما أخذ عن هذا الأخير جل براهينه على وجودها وخلودها . وسنرى ذلك فيما بعد .

ومهما يكن من أمر ، فإن الغزالي يفرق ، مثل أبي نصر وابن سينا ، بين ثلاث نفوس : النفس النباتية والنفس الحيوانية ، والنفس الإنسانية ، ويعرف كلا منها بأنها كمال أول لجسم طبيعي آلي ، مع إضافة الصفة أو الصفات التي تميز كل نفس منها عن النفسين الأخريين : فهو يقول في تعريف النفس النباتية : « إنها كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفتنذ وينمو ويولد المثل » ، وفي تعريف النفس الحيوانية : « إنها كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة » . وأما النفس الإنسانية فقد عرفها بقوله : « إنها كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الأفعال بالاختيار العقلي والاستنباط بالرأى ، ومن جهة ما يدرك الأمور السكوية » .

ونحن لا نلوا عندما نقول إن آراء ابن سينا حالت دون اتباع أبي حامد لتعريف أرسطو . فليست النفس لديه صورة منطبعة في الجسم توجد بوجوده وتغنى بفنائها ، كما أنها ليست عرضاً كما يقول المتكلمون ؛ بل هي جوهر روحي قائم بذاته . ويرجع السبب في عدوله عن تعريف أرسطو إلى هذا الأمر وهو أنه رأى أن هذا التعريف إما أن يقود رأساً إلى إنكار بقاء النفس بعد هلاك البدن ، وإما إلى القول بوجود نفس كلية يشترك فيها جميع أفراد النوع الإنساني بعد هذه الحياة الدنيا ، وذلك على فرض أن صور الأشياء تبقى بعد اندثارها ؛ لأن من يقول بأن النفس صورة للبدن ، وأن الأشخاص لا يختلفون فيما بينهم بالصورة أو الماهية ، وإنما يختلفون باختلاف أجسامهم يضطر إلى التسليم بأن النفوس إذا فارقت الأجساد اتحدت وكونت نفساً كلية ، أى عادت إلى طبيعتها الأولى ؛ وذلك لأن الصورة لدى أرسطو هي الماهية المشتركة بين جميع أفراد نوع من الأنواع . وقد صرف الغزالي كثيراً من جهده في بيان بطلان النفس الكلية . لكنه لم يكن منصفاً دائماً ؛ إذ نسبها إلى ابن سينا ، مع أن هذا الأخير لم يكن من أنصارها .

ومع ذلك ؛ لم يجد بدا من الاعتماد على آراء الرئيس في كل شيء . لأنه يعرف النفس بأنها جوهر مستقل مخالف للبدن يحل فيه فيكون كالأشرف . هذا إلى أنه إذا استخدم لفظ الكمال هنا فإنه لا يستخدمه للدلالة على المعنى الذى أرادته أرسطو . فالنفس لديه إذن جوهر روحي لا يقع تحت الحس ، وإن كان وجوده أظهر ما يكون للعقل . كذلك سلك الغزالي مسلك ابن سينا في بيان كيف تختلف النفس في جوهرها عن البدن ، وكيف تعد أصلاً ومنبعاً لجميع تلك القوى التى ليس من الممكن أن يكون الجسم مصدراً لها . وقد سبق أن رأينا هذه الفكرة بعينها في أول براهين ابن سينا في إثبات النفس ، أما

الغزالي فيقول في ذلك : « إنا نرى الأجسام النباتية تمتدّ وتتمو وتولد المثل وتتحرك حركات مختلفة من التشعيب والتعريق . فهذه المعاني إن كانت للجسمية فينبغي أن تكون لجميع الأجسام كذلك . وإن كانت لتغير الجسمية ؛ بل لمعنى زائد ، فذلك المعنى يسمى نفساً نباتية . ثم الحيوان فيه ما في النبات ، ويمس ويتحرك بالإرادة ، ويهتدى إلى مصالح نفسه ، وله طلب لما ينفع وهرب عما يضر ، فعلم قطعاً أن فيه معنى زائداً على الأجسام النباتية ، ثم نجد الإنسان فيه جميع ما في النبات والحيوان من المعاني ، ويتميز بإدراك الأشياء الخارجة عن الحس مثل أن الكل أعظم من الجزء ، فيدرك الجزئيات بالحواس الخمس ، ويدرك الكليات بالمشاعر العقلية ، ويشارك الحيوان في الحواس ويفارقه في المشاعر العقلية . فقابل الصورة الكلية جوهر لا جسم ، ولا عرض في جسم ، ولا وضع له ولا أين فيشار إليه ؛ بل وحوده أخفى من كل شيء عند الحس وأظهر من كل شيء للعقل . فثبت بهذا وجود النفس . »<sup>(١)</sup>

ومما يذكر للغزالي أنه فرق بين معنيين يدل عليهما لفظ النفس . أما الأول فهو الذي يعبر عن الصفات الحيوانية الشهوانية المذمومة . مثال ذلك أن النفس تستخدم في هذا المعنى حين تقول : « أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك » . وهو نفس المعنى الذي قصد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال : « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » . أما المعنى الآخر فهو الذي سبق أن رأينا لدى

---

(١) كتاب معارج القدس في مدارج معرفة النفس ص ١٦ ، ١٧ ، ١٨ . هناك شك في نسبة هذا الكتاب إلى الغزالي . لكن أسلوبه وهجاءه وموضوعاته أقرب شبهها بأسلوب الغزالي وأفكاره في كتبه الأخرى . لذلك فبإتقاد عليه في كل ما نجد له نظائر في تلك الكتب الأخرى . هذا إلى أن أسين بلاسيوس ، وإن كان يقرر أن كتاب معارج القدس لا يشير إلى كتاب آخر من كتب الغزالي ، إلا أنه يرى أن ذلك لا يعنى التشكيك في صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي .

كل من سقراط وأفلاطون وأبي نصر وابن سينا . فتطلق النفس في هذه الحال ، ويراد بها الدلالة على حقيقة الإنسان . فإن نفس كل شيء حقيقته . وهو في رأيه الجوهر الذى يصلح أن يكون محلا للمعقولات ، وهو من عالم الملكوت والأمر .

ويذكر له أيضا أنه فرق بين النفس والروح . فالنفس لديه هي ذلك الجوهر الذى يجمع بين عالمين هما عالم العقل ، أى العالم الإلهي ، وعالم الحس ، أى العالم المادى . وقد وصف الغزالي هذين العالمين على نحو قريب جداً مما فعل أفلاطون ؛ بل ذهب إلى أن العالم الثانى ظل وخيال للعالم الأول ؛ إذ يقول إن الرحمة الإلهية جعلت عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت ؛ لأنه لا يوجد شيء في العالم الأول إلا وهو مثال لشيء من ذلك العالم ، وربما كان الشيء الواحد مثالا لأشياء من عالم الملكوت ، وربما كان للشيء الواحد من الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة .<sup>(١)</sup> كذلك يعترف ، من جانب آخر ، بأن عالم الأمر يحتوى على جواهر نورانية شريفة هي الملائكة التى تفيض الأنوار على الأرواح البشرية . وسرى فيما بعد كيف تأثر أيضا بالأفلاطونية الحديثة ، وأخذ عنها نظريتها في الفيض وجعلها أساسا لنوع من التصوف . فالنفس إذن همزة الوصل بين عالمين . ويدل على ذلك أنها تحتوى على قوتين تتجه إحداهما شطر عالم الحق ، وتولى القوة الثانية وجهها نحو البدن فتحضمه لأمرها وترعى مصالحه . أما الروح فقد يطلق على نفس هذا المعنى . وقد يراد به ذلك البخار اللطيف الذى ينبع من القلب ليصعد في العروق إلى المخ ، ثم يهبط منه مرة أخرى بواسطة العروق ، فينتشر في جميع أنحاء الجسم ، ويكون سببا في حياتها وحركتها . وليست هذه

(١) مشكاة الأنوار طبعة مصر سنة ١٩٠٨ ص ٤٥ - ٤٦ .

الفكرة بجديدة. فإنها كانت موجودة من قبل لدى فلاسفة المسلمين وأطبائهم. وقد أخذها هؤلاء عن أطباء الإغريق. وهي نفس الفكرة التي نجدها أيضاً لدى ديكرت في القرن السابع عشر الميلادي؛ إذ يتحدث هذا الفيلسوف أيضاً عن الأرواح الحيوانية [ esprits animaux ] التي تسرى في الدم، فتأسر أعضاء الجسم بالحركة. وليس ثمة ريب في أن المصدر الذي استقى منه الفيلسوف الفرنسي هذه الفكرة كان مصدراً إسلامياً.<sup>(١)</sup>

كذلك فرق الغزالي من جهة ثالثة بين النفس والعقل. فهو يرى أن هذا اللفظ الأخير يستخدم في الدلالة على أحد معان ثلاثة. فقد يطلق ويراد به العقل الأول، وهو أول الخلقات تبعاً لما جاءت به نظرية الفيض لدى فلاسفة الإسلام، وهو الذي يطلقون عليه أيضاً اسم المعلول الأول أو اسم المبدع الأول. وقد ذكر حجة الإسلام أن هذا المعنى هو المقصود في القول الذي ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم: « أول ما خلق الله خلق العقل . فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال أدبر فأدبر » . وفسر الغزالي هذا الحديث بقوله: أي أقبل حتى تستكمل بي ، وأدبر حتى يستكمل بك جميع العالم دونك ، وهو الذي قال الله تعالى له : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعز علي ولا أفضل منك ، بك آخذ ، وبك أعطى... الحديث . وهو الذي يعبر عنه بالقلم كما قال عليه السلام : إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له اكتب ، فقال وما أكتب ؟ قال ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل وأثر ورزق وأجل ، فكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة<sup>(٢)</sup> .

(١) ترجمت كتب الفلاسفة والأطباء من المسلمين إلى اللغة اللاتينية . ومن المسلم به أن أهل أوروبا اعتمدوا طيلة قرون عديدة على آراء المسلمين في هذه الناحية .

(٢) وقد ذكر الغزالي هذا المعنى في أحد كتبه التي لا يرق إليها العطن ، ولغنى به كتابه فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، فنس على أن الله تعالى يعطي ويمنع بواسطة ملائكته . وهنا استشهد بحديث العقل ، وقال إنه ليس من الممكن أن يكون المقصود به شيئاً آخر سوى ذات =

أما المعنى الثانى فلخصه أن العقل يطلق ويراد به النفس الإنسانية ، بمعنى أن جوهر النفس عقل وتفكير ، وأنها من عالم العقل . وهناك معنى ثالث دارج ؛ إذ يستخدم لفظ العقل للدلالة على إحدى صفات النفس ، وهى الإدراك الذى يقابل الإحساس .

وينبغى أن نشير هنا إلى أن هذا الفيلسوف لم يأخذ عن الرئيس أبى على الحسين تعريف النفس فحسب ؛ بل أخذ عنه أيضاً منهجه فى البرهنة على وجودها وعلى مخالفتها للجسم ، كما تبعه فى بيان طبيعتها .

١ — برهنته على وجود النفس :

(١) البرهان الشرعى :

وبيان هذا البرهان ينحصر فى أن الشرع يخاطب النفوس دائماً ويحذرها عن عقاب من يخطئ منها وعن ثواب من يطيع . ومن البديهي أن البدن ليس هو المقصود بهذا العقاب ؛ بل الجزء موجه بالذات إلى النفس . أضف إلى هذا أن هناك أنواعاً من العقاب خاصة بالنفس دون سواها . وحينئذ فإذا خاطب الشرع النفوس ، وحذرها الوقوع فى الرذيلة ، وخوفها من العقاب ، كان ذلك دليلاً على أن النفس جوهر موجود بالفعل . وقد قال الغزالي يعرض هذا البرهان : « فجميع خطابات الشرع تدل على أن النفس جوهر . فإن الألم ، وإن حل بالبدن ، فلاجل

---

== ملك من الملائكة » يسمى عقلاً من حيث يقبل الأشياء بجوهره وذاته من غير حاجة إلى العلم . وربما يسمى قلماً باعتبار أنه تنقش به حقائق العلوم فى قلوب الأنبياء والأولياء وسائر الملائكة وحيا وإلهاما . فانه قد ورد فى حديث آخر إن أول ما خلق الله تعالى القلم فان لم يرجع ذلك إلى العقل تناقض الحديثان . . . . .

النفس . ثم للنفس عذاب آخر يخصصه ، وذلك كالخزي والحسرة وألم الفراق <sup>(١)</sup> ،  
وليس هذا البرهان جديداً فقد رأيناه لدى أفلاطون أيضاً في معرض آخر ،  
البرهنة على خلود النفس .

### (ب) برهان الاستمرار :

وهو نفس البرهان الذي رأيناه من قبل لدى الرئيس ابن سينا . وهو يعتمد  
على التفرقة بين النفس والجسم من حيث البساطة والتركيب ؛ لأن الجسم لما كان  
مركباً فإنه يقبل التغيير والتحول والزيادة والنقصان . وأما النفس فلما كانت بسيطة  
فإنها تبقى على حالها . وقد تتغير أجزاء البدن جملة ، دون أن يلحق النفس أدنى  
تبديل بسبب ذلك . هذا هو الأساس الذي بنى عليه ابن سينا برهانه . وقد أخذ  
عنه أبو حامد كل شيء ، بمعنى أنه أخذ عنه الفكرة بتفاصيلها ، كما استعار منه  
بعض عباراته . ويتبين لنا ذلك بالمقارنة بين النص الذي سنورده وبين ذلك الذي  
رأيناه من قبل لدى ابن سينا <sup>(٢)</sup> . أما نص النزالي فهو : « فإنك تعلم أن نفسك  
منذ كنت لم تتبدل ، ومعلوم أن البدن وصفات البدن كلها تتبدل ؛ إذ لو لم تتبدل  
لكان لا يتفدى لأن التفدى أن يحل بالبدن بدل ما تحل . فإذا نفسك ليس من  
البدن وصفاته في شيء . » <sup>(٣)</sup> ولسنا في حاجة إلى الإلحاح في بيان أن هذا  
الفيلسوف الأخير يستخدم هذا البرهان لتحقيق عين الغرض الذي كان يرمى  
إليه الفيلسوف الأول ، وهو أن إثبات وجود النفس وبيان طبيعتها ومخالفتها  
للبدن في آن واحد .

(١) مدارج القدس ص ٢٠ .

(٢) أنظر ص ٨٧ .

(٣) مدارج القدس ص ٣٣ .

( ح ) برهان الرجل الطائر :

وقد استعار الغزالي أحد الأمثلة التي استشهد بها ابن سينا وجعله برانا مستقلا ، وهو الذى يصفه بقوله إنه برهان عقلى خاص لا يفتن إليه سوى ذوى العقول الراجحة والفتن السليمة . وسنقدم الآن برهان الغزالي وندع مهمة المقارنة بينه وبين برهان ابن سينا لمن يريد<sup>(١)</sup> . وقد عرض أبو حامد هذا البرهان بطريقته ، وبأسلوبه الخاص فقال : « وأما الوجه الثانى ، وهو البيان الخاص فهو الذى يصلح لأهل الفطانة ، ومن فيه لطف الفهم والإصابة ، فهو أنك إذا كنت صحيحاً مطرماً عنك الآفات ، مجنباً عنك صدمات الهوى وغيرها من الطوارق والآفات فلا تتلامس أعضائك ولا تتماس أجزاءك ، وكنت فى هواء طلق فى هذه الحالة أنت لا تغفل عن إنيتك وحقيقتك ؛ بل وفى النوم أيضاً . فكل من له فطانة ولطف وكياسة يعلم أنه جوهر ، وأنه مجرد عن المادة وعلاقتها ، وأنه لا تعزب ذاته عن ذاته » .

٢ — براهينه على روحانية النفس :

لم يكن أبو حامد مجدداً فى هذه الناحية أيضاً ، فقد تبع آثار ابن سينا وذكر نفس الأدلة التي اعتمد عليها ، فمنها :

( ١ ) برهان الإدراك العقلى :

رأينا أن هذا البرهان يعتمد على الأساس الآتى وهو : أن النفس تدرك المعقولات ، أى المعانى السكلية المجردة من كل طابع حسى ، والتي لا تنقسم انقساماً مادياً ، وإن أمكن تحليلها عن طريق العقل . فإن معنى الإنسان مثلاً معنى مجرد من كل صفة جسمية ، وهو يحتوى على بعض المعانى الجزئية كالحيوانية والنطق .

(١) انظر ص ٨٥ وما بعدها .

حقاً إنه ينطبق في الواقع على كثرة من الأفراد ، ولكنه لا ينقسم في النفس بطريقة مادية ، ولا يشغل فيها حيزاً . وذلك لأنه لا يحل فيها إلا مجرداً من كل الصفات العرضية التي تميز أحد الأفراد عن الآخرين . وإذا كانت النفس محلاً للمعقولات فإنه يجب أن تكون من جنسها أى غير منقسمة ، وإلا لوجب أن يحل غير المنقسم في المنقسم . وفي ذلك من التناقض ما فيه .

وقد أخذ الغزالي هذا البرهان فيما أخذ عن ابن سينا وعرضه بطريقة الخاصة لأنه يرى ، هو الآخر ، أن النفس إذا كانت جسماً فلا يخلو إما أن تكون حالة في البدن أو غير حالة فيه . ولا يعقل أن تسكون غير موجودة فيه ، وإلا كان لنا أن نتساءل كيف تستطيع التأثير فيه لتوجيهه وتدبيره ، وكيف يتوقف وجود البدن واستمراره في الحياة عليها ؟ أما إذا كانت موجودة فيه فإما أن تسكون حالة بجميع أجزائه أو في جزء معين منه . أما في الحالة الأولى فيترتب على ذلك أنه لو فصل جزء من أجزائه لوجب أن تنزوى النفس وتنتقل من عضو إلى عضو ، ومتى زاد هذا الجسم أو نقص وجب أن تمتد النفس بامتداد الأعضاء ، كما يقول أبو حامد ، أو تتقلص بذبول الأعضاء . لكن هذا أمر تبدو استحالاته لدى كل إنسان ذى عقل وفضيلة سليمة . أما في الحالة الثانية وهي أن تسكون حالة ببعض أجزاء الجسم فإننا ننتهي إلى نتيجة ليست أقل استحالة وهي : أن تنقسم النفس حتى تنتهي إلى أقل شيء وأحقره . وكيف يمكن التسليم بذلك إذا كانت النفس هي أشرف عنصر في الإنسان ، وإذا كانت هي الجوهر الذي يستعد به للقاء الله تعالى .

وليس من الممكن أن تكون النفس قوة جسمية إذا كان العقل أحد مظاهرها . فنحن نعلم أن العقل الإنساني قادر على إدراك الأشياء الخارجية وعلى إدراك نفسه ، وإدراك أنه يدرك نفسه . وهذا يستحيل تصوره في الحواس لأن

العين لا تدرك نفسها إلا إذا استعانت بشيء خارجي كالمرآة أو صفحة الغدير ،  
في حين أن العقل يدرك نفسه ، دون حاجة إلى استخدام آلة جسمية أو شيء  
خارجي عن الذات . ويمتاز الإدراك العقلي إلى جانب ذلك بأنه يستوى لديه  
القرب والبعد، ولذا فإنه يبرج في طرفة عين إلى أعلى السماء ثم يهبط إلى الأرض .  
«والعقل يتنازل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها ويستنبط  
أسبابها وعللها وحكمها ، وأنها مم حدثت وكيف خلقت ... والموجودات كلها  
بجمال العقل .. فيتصرف في جميعها ويحكم عليها حكما يقينيا صادقا . فالأسرار  
الباطنة عنده ظاهرة والمعاني الخفية عنده جلية . فمن أين للعين الباصرة مساواته  
في استحقاق اسم النور ؟ كلا إنها نور بالإضافة إلى غيرها ، ولكنها ظلمة  
بالإضافة إليه ، بل هي جاسوس من جواسيسه . . . والعقل يدرك المعقولات ،  
والمعقولات لا يتصور أن تكون متناهية ... فإن أردت له مثلا فخذ من الحساب؛  
فإنه يدرك الأعداد ، ولا نهاية لها والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر  
من الأرض أضعافا مضاعفة .»<sup>(١)</sup>

وقد استعار الغزالي هذا الدليل بحذافيره ، وتبع ابن سينا خطوة بخطوة ،  
ورغب مثله عن تعريف أرسطو للنفس ، و انتهى إلى تقرير هذه النتيجة وهي :  
أن النفس ، وإن كانت كالا أول لجسم طبيعي ذي حياة القوة ، فإنها ليست منطبعة  
فيه أو قائمة به . وقال : « فقد ظهر من أصولنا التي قررنا أن النفس ليست  
منطبعة في البدن ولا قائمة به . فيجب أن تكون علاقتها بالبدن علاقة التدبير  
والتصرف . »<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

(١) مشكاة الأنوار ص ٢٣ — ٣٤ .

(٢) معارج القدس ص ٢٦ .

### ٣ - طبيعة النفس :

لسكن تعريف النفس والبرهنة على كل من روحانيتها واستقلالها عن البدن لا يوفقان المرء على طبيعتها وحقيقة جوهرها . ولذا وجب على الغزالي أن يلجأ من جديد إلى ابن سينا ، وأن يتبع خطاه في هذه المسألة أيضا . فهو يقول مثله - ومثل أبي نصر - إن النفس جوهر أو ذات روحية تفيض من واهب الصور وهو آخر مراتب العقول التي يحتوي عليها عالم المسكوت ؛ ومنه تفيض أنوار المعارف على عقول البشر . « فبالحرى أن يكون مقتبس الأرواح الأرضية من الأرواح العلوية التي وصفها على وابن عباس رضی الله عنهما ، فقالا إن لله ملكا له سبعون ألف وجه ، في كل وجه سبعون ألف فم ، في كل فم سبعون ألف لسان يسبح الله بجميعها ، وهو الذي قوبل بالملائكة كلهم فتبيل يوم يقوم الروح والملائكة صفا ... »<sup>(١)</sup> ويمكن تشبيه مراتب العقول السماوية أو الملائكة في نظر الغزالي بمثال حسي ، وهو أن الإنسان يستطيع أن يرى ضوء القمر ينساب في كوة منزل فينعكس على مرآة معلقة على الحائط ، ثم تنعكس صورته في المرآة على حائط مقابل لها ثم على الأرض . وهكذا يكون الضوء الذي يقع على الأرض « تابع لما على الحائط ، وما على الحائط تابع للمرآة ، وما على المرآة تابع للقمر ، وما على القمر تابع لما في الشمس . . . » ويقول الغزالي بعد ذلك كله إن تجارب أهل

(١) أنظر مشكاة الأنوار طبعة مصر من ٣٧ - ٣٨ . ونجد أيضاً نفس الفسكرة في كتاب معارج القدس بل بعض الألفاظ ، كلفظ الانتباس أنظر من ١٢٢ « ولو انتج لك باب المعرفة الملكية لرأيت الأرواح البشرية كسراج انتيس من نار عظيمة طبقت العالم ؛ وذلك النار العظيمة هي الروح الأخيرة من أرواح الملائكة . » وبني بهذه الروح الأخيرة العقل الفعال الذي يحتل في نظرية الفيلسوف ، لدى كل من أبي نصر وابن سينا ، آخر مرتبة في العقول المفاخرة أو الملائكة . وهي المشرفة لديهما على حركة الأفلاك السماوية . وهكذا يتبين لنا أن الغزالي ، وإن هاجم نظرية الفيض في مواطن أخرى ، فإنه لم يتحرر منها تماما ؛ بل تظهر رواسب هذه النظرية في آرائه بين حين وآخر .

التصوف تكشف لهم عن مثل هذا التدرج ؛ بل تبين لهم أيضاً أن العالم العلوى يعج بالأنوار العقلية ، وهى جواهر الملائكة ، كما يوجد فى العالم الحسى ظلال لهذه الأنوار وهى النفوس الإنسانية والحيوانية ، وأن الأرواح النبوية مقتبسة من أرواح الملائكة اقتباس السراج من النار ، كما أن أرواح الملائكة يفيض بعضها عن بعض ، وأن لها مقامات متدرجة حتى تنتهى إلى نور الأنوار، أى إلى منبعها الأول، وهو الله وحده لا شريك له ، يعنى أن كل الأنوار كلها مستعارة منه ، وأنه هو النور الحقيقى وحده <sup>(١)</sup> . ولا شك فى أن هذه الفكرة التى يقول بها الغزالى اعتراف صريح كل الصراحة بقبول نظرية الفيض .

وحيث أن الأكد أن الغزالى - على الرغم من عدائه وتحامله على الفلاسفة قبله - يستعين بنظريتهم فى الفيض أو الصدور على تفسير حدوث النفس وبيان طبيعتها ؛ فالنفس لديه وسط بين عالمين : عالم الحق أو الأمر وعالم الحس أو البدن . ولما كانت هذه هى طبيعتها وجب أن تحتوى على قوتين . أما القوة الأولى فهى التى تتجه بها النفس صوب عالم الملكوت لتلتقى منه فيض الحقائق والعلوم . وأما القوة الثانية فتتجه نحو البدن لى تدبره وتصرفه ، وهى التى يدرك بها الإنسان الحسن والقبيح والخير والشر . ويطلق أبو حامد على هذه القوة اسم العقل العملى ، كما يطلق على القوة الأولى اسم العقل النظرى . ولا تكتسب النفس المعارف عن طريق الحس والتجريد من الأمور الخارجية الحسية وإنما تلتقها من الملائكة الأعلى . فليست المعرفة كسباً ، ولكنها فيض إلهى .

وتفسر لنا طبيعة النفس مصيرها ، فإنها إذا استحطت التحرر من شهوات البدن وأثقاله أتجهت صاعدة إلى العالم العلوى سالكة طريقها إلى السعادة الكاملة .

(١) أنظر المصدر السابق ص ٤٢ .

وذلك لأنها إذا أعرضت عن العالم الحسى وولت وجهها شطر الحق انخرطت في سلك القدس ، وظلت على أهبة دائماً للاتصال ، أى لشروق الحق عليها . أما إذا أعرضت عن حضرة الجلال ، والتفتت إلى عالم الجسد واتبعت شهواتها ، أعرضت عنها الأنوار الإلهية . فليس للنفس سوى أحد أمرين : فإما أن تقترب من عالم الروح عالم الجلال والحق ، وإما أن تتبتعد عنه<sup>(١)</sup> . وهذا هو القرب والبعد بالمعنى الصوفى الذى يقصد إليه الغزالى . ولا يتحقق القرب لديه إلا بالمعرفة والفضيلة ، أى بكمال كل من العقليين النظرى والعملى . وأما البعد فنتيجة للجهم والذيلة . وقد قال أبو حامد فى هذا المعنى : « وفى هذا العالم | عالم الغيب | عجائب يستحق بالإضافة إليها عالم الشهادة . ومن لم يسافر إلى هذا العالم وقعد به القصور فى حضيض عالم الشهادة فهو بهيمة . . . محروم من خاصية الإنسانية بل أضل من البهيمية ؛ إذ لم تعط البهيمية أجنحة الطيران إلى هذا العالم واذلك قال تعالى : « أولئك كالأنعام بل هم أضل » وأعلم أن عالم الشهادة بالإضافة إلى عالم المسكوت كالقشرة إلى اللب ، وكالصورة والقالب بالإضافة إلى الروح ، وكالظلمة بالإضافة إلى النور ، وكالسفل بالإضافة إلى العلو<sup>(٢)</sup> . »

فانقرب من الله بالرقى إلى أفق الملائكة أكبر سعادة يستطيع الإنسان الوصول إليها . وفى هذا الرقى يتجرد المرء من كل شىء يشغله من الحس والخيال والشهوة لأنه لا يريد شيئاً سوى الله ، ولابقى لديه شوق إلا فى لقاء الله ، كما أنه لا يفرح إلا إذا علم أنه فى حضرة الربوبية . وعندئذ « لو عرضت عليه الجنة وما فيها من نعم لم يلقى همته إليها ، ولم يقنع من الدار إلا برب الدار<sup>(٣)</sup> . »

(١) و(٢) ص ٣٦ — ٣٧ وانظر أيضاً المقصد الأسنى طيبة المكتبة الملامية ص ١٧ و ١٨ .  
(٣) المقصد الأسنى ص ٢٦ .

## ٧ - تعريف النفس لدى ابن رشد

أراد أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد<sup>(١)</sup> - أكبر شراح أرسطو وأبعد فلاسفة الإسلام شهرة وذكرا لدى مفكرى الغرب قبيل عصر النهضة - التوفيق بين تعريف النفس الأرسطوطاليسى وتعريفها لدى الرئيس ابن سينا . فقال إنها صورة للبدن وجوهر مستقل فى نفس الوقت . فهى صورة للبدن بمعنى خاص ، وهو أنه لا وجود للبدن دونها ، ولا يمكن للعقل تصوره إلا بها ، كما أنه لا وجود للمثال إلا بصورته . ومن هذا يتبين لنا أن الفيلسوف القرطبي أخذ عن أرسطو عبارته فى تعريف النفس . فقال إنها « هى التى تجرى منا مجرى الصورة لا مجرى الهوى [ المادة ] . » ولكنه لم يكن أرسطوطاليسيا بمعنى الكلمة . فقد فسر أرسطو على نحو يقربه إلى حد كبير من آراء المسلمين فى طبيعة النفس .

وقد سلك مسلك سابقه ، فقال فى تلخيص كتاب النفس<sup>(٢)</sup> : إنه يجب التفرقة

---

(١) هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد . ولد فى قرطبة . ونشأ فيها ، واشتهر بالفضل وتحصيل العلوم ، وكان أوحد عصره فى علم الفقه . وكان مبرزاً فى الطب . وقد وصفه أحد معاصريه بأنه كان حسن الرأى ذكياً رث البزة قوى النفس . وقد ألف فى الفقه ، وله فيه كتاب التحصيل وكتاب المقدمات فى الفقه وكتاب نهاية المجتهد . ومن كتبه فى الطب المسكليات وشرح الأرجوزة المنسوبة إلى الشيخ الرئيس ابن سينا . كذلك ألف فى المنطق ولخص كتب أرسطو فيها وراء الطبيعة والأخلاق والبرهان والسمع الطبيعى - وله كتب خاصة فى الفلسفة ككتاب تهافت التهافت وكتاب مناهج الأدلة ، وفصل المقال ، ومقالة فى العقل ، وأخرى فى القياس ، وعدد كبير من المقالات التى طالع فيها نظرية الاتصال ، وكان مولده سنة ٥٢٥ هـ . وتوفى فى مراكش سنة ٥٩٥ هـ . أنظر كتابنا « الفيلسوف المغزى عليه : ابن رشد » وكتاب ومناهج الأدلة فى عقائد الملة مع مقدمة فى نقد مدارس علم الكلام . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية .

(٢) وجدنا نسخة من هذا التلخيص فى مخطوط عربى مكتوب بالحروف العبرية ومعه مقالات عديدة أخرى فى الحس والحسوس والسماء والكون والفساد . ويوجد هذا المخطوط فى مكتبة باريس الأهلية تحت رقم : Mss fomds hébreu 1009

بين نفوس ثلاث هي : النفس النباتية والنفس الحيوانية والنفس الإنسانية أو العاقلة . أما النفسان الأوليان فليسا مفارقتين للبدن . ومعنى ذلك أنهما منطبعتان فيه . ولا يمكن أن تنفصلا عنه بحال ما ؛ لأنهما توجدان بوجود النبات أو الحيوان وتفتيان بفنائهما . أما النفس الإنسانية فهي من جنس آخر . وقد فسر ابن رشد أرسطو تفسيراً يتفق مع ما ذكره هذا الفيلسوف في كتابه عن النفس فقال : إن أرسطو كان يرى إمكان مفارقتها للبدن واستقلالها عنه<sup>(١)</sup> . ومن ثم زى أن أبا الوليد كان يميل إلى تفسير مذهب أرسطو في النفس على نحو يتفق مع القول بروحانيتها . ويدل على هذا الاتجاه لديه أنه يعرفها في موضع آخر بأنها الجوهر الذى هو الصورة<sup>(٢)</sup> . ومن يقول مثله بأنها جوهر يمتزج ضمناً بأنها قائمة بذاتها ، وبأن الإنسان مركب من جوهرين أحدهما نفسه والآخر بدنه .

ولا شك في أن السبب الذى دعاه إلى اتباع آراء ابن سينا والغزالي في هذه المسألة ، وإلى تفسير أرسطو على هذا النحو الخاص ، أنه فطن إلى ما يجره تعريف هذا الأخير للنفس من صعوبات ليس من اليسير حلها ؛ لأنها لا تتفق مع روح الإسلام وعقائده . لأننا بين أن نسلم بأن فساد البدن يصحبه فساد النفس أى فناؤها ، وهذا يتفق أتم اتفاق مع روح مذهب أرسطو ؛ أو نقول بوجود النفس الكلية ، أى بضرورة اتحاد النفوس بعد مفارقتها للأبدان ؛ لأنها صور وليس هناك ما يدعو إلى التفرقة بينها بعد فناء المواد التى كانت سبباً في اختلافها أو تفرقها . وقد رأينا كيف عرضت هذه المشكلة لسكل من الفارابي وابن سينا ، ورأينا كيف سلم الأول بها ، فقال بوجود النفس مشتركة بين أفراد البشر ، وكيف رغب الثانى عن تعريف أرسطو للنفس لهذا السبب ، وكيف احتار انفظ السكال

(١) نفس المصدر Fol 121, R . (٢) نفس المصدر Fol 121, V .

عوضاً عن الصورة ، ونص صراحة على ان السكّال هنا مخالف لما كان برى  
إليه الفيلسوف الإغريقي .

أما أبو الوليد فإنه يسلم بقيام هذه المشكلة ، ويعترف بأنها لا تتفق مع  
عقيدته ، ويرى أن حلها ليس من اليسير . فإن مسألة النفس من أعقد المسائل ،  
ولا يستطيع البت فيها إلا العلماء الذين أوتوا حظاً كبيراً من المعرفة . « قال كلام  
في أمر النفس غامض جداً ، وإنما اختص الله به من الناس العلماء الراسخين  
في العلم . ولذلك قال سبحانه مجيباً في هذه المسألة الجمهور عندما سألوه بأن هذا  
الطور من السؤال ليس من أطوارهم ، في قوله سبحانه ( ويسألونك عن الروح  
قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ) . » (١)

وقد رمى بعض مؤرخي الفلسفة ابن رشد بأنه كان أشد الشراح تعصباً  
لأرسطو ، وأنه أفنى شخصيته من أجله ومحامها . وربما قيل — وقد قيل بالفعل —  
إن آراه في النفس متهافنة متداعية . ولكننا لا نميل إلى هذا الرأي ، لأننا نرى  
لديه استقلالاً في التفكير لا نجده لدى أبي نصر الفارابي أو غيره من فلاسفة  
المسلمين . وما يدل على ذلك أنه يرى أن تعريف النفس لدى أرسطو تعريف  
قاصر ؛ إذ لا يكفي في بيان طبيعتها ، وكل ما هنالك أنه يمكن اتخاذه كنقطة بدء  
فقط لدراستها ، أي كتمهيد أو خطوة أولى نحو معرفة حقيقتها وإدراك الصفات  
التي تختص بها . ولذا يقول أبو الوليد « مثل ما قيل في حد النفس إنها استكمال  
لجسم طبيعي آلي ، ومثل ما قيل في حد الجوهر إنه الموجود لافي موضوع . لكن  
ليس تكفي هذه الحدود في معرفة الشيء . وإنما يؤدي بها ايتطرق من ذلك إلى

(١) كتاب تهافت التهافت طبعا بيروت سنة ١٩٣٠ صفحة ٢١٩ - III, 143 .

( ٨ في النفس والعقل )

كل واحد مما يدخل تحت أمثال الحدود هذه، وإلى تصوره بما يخصه . » (١) . فإذا أردنا بيان حقيقة النفس فإنه ليس بكاف إذن أن نقول بأنها صورة أو كمال أول لجسم طبيعي له أن يفعل أفعال الحياة ؛ بل يجب أن نعتد في بيان هذه الحقيقة على أساس آخر ، فنقول : « النفس هي ذات ليست بجسم حية عالمة قادرة مريدة سمیة بصيرة متكلمة . » (٢)

ولنا أن تتساءل الآن عن السبب الذي بدت من أجله مسألة النفس شديدة الغموض في نظر الفيلسوف القرطبي . من الأكيد أن هذا الغموض يرجع في الواقع إلى عسر التوفيق بين مذهبين متناقضين ، وهما مذهب أرسطو الذي ينكر روحانية النفس ، ومذهب الرئيس ابن سينا الذي يفصل بين معني الكمال والصورة ، فينكر أن النفس صورة للبدن . وليس لنا أن نعجب مما يشعر به أبو الوليد من حرج تجاه موقف أرسطو من أمر النفس الإنسانية . ذلك أنه كان من أشد مفكرى الإسلام إعجاباً بهذا الفيلسوف الإغريقي ومع ذلك ، فإن هذا الإعجاب العظيم به لم يكن سبباً في أن يسلك مسلك التقليد ، وأن يتابع أرسطو في كل ما ذهب إليه . لأن تعريف النفس لديه يقضى لا محالة إلى إنكار خلودها ؛ فقد علمنا أنه ينص على أنها تتحد مع البدن فتسكون معه جوهراً واحداً .

وقد رأى ابن رشد أنه يستطیع التوفيق بين هذين المذهبين المتناقضين إذا قال إن النفس ، وإن كانت صورة للبدن كما يقول أرسطو ، فإنها صورة من جنس خاص ، ومعنى ذلك أنها ليست كباقي الصور الأخرى التي تتحد مع

(٢) نفس المصدر ( s ' xlx ) .

موادها . فإن عذة الصور الأخيرة بما فيها النفس النباتية والنفس الحيوانية لا تنفك عن أجسامها لأنها منطبعة فيها وملتحدة بها اتحاداً جوهرياً ، فلا يمكن تصورها مستقلة عنها وقائمة بذاتها : وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالنفس الإنسانية . فإنها جوهر مستقل ، وهي في الوقت نفسه صورة للبدن حلت فيه لحكمة إلهية . وهي إلى جانب ذلك ذات روحية أن غير جسمية .

حقاً إنه من العسير كل العسر أن يتصور المرء وجود كائن غير جسمى في البدن . غير أن ذلك لا ينهض دليلاً على فساد هذا الرأي . ويقول أبو الوليد إن هذا العسر هو السبب الذي من أجله رغب الشرع عن تعريف النفس ، واكتفى بالقول بأنها من أمر الله . « وذلك لأنه من العسير قيام الإبرهان عند الجمهور على موجود قائم بذاته ليس بجسم . ولو كان انتفاء هذه الصفة [الجسمية] مما يقف عليه الجمهور لاكتفى بذلك الخليل صلى الله عليه في محاجة الكافر حين قال له : « ربى الذى يحيى ويميت . قال أنا أحيى وأميت . قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » ؛ لأنه كان يكتفى بأن يقول له أنت جسم والله ليس بجسم . » (١)

ويمكن تحديد فكرة أبى الوليد فى هذه المسألة بقولنا إنه يقضى بأن العلماء هم وحدهم الذين يستطيعون فهم وجود النفس باعتبار أنها ذات روحية مستقلة وصورة للبدن فى وقت واحد . وليس يعسر عليهم إدراك هذا الوجود فإنهم يستطيعون أيضاً ، دون تناقض ما ، أن يتصوروا وجود إله غير جسمى يدبر العالم

(١) مناهج الأدلة طبعة ميونخ سنة ١٨٥٩ ص ٦٣ ، وطبعة الأنجلو المصرية صفحة

ويصرفه . ولا يعد هذا التفسير خروجاً في الواقع على مبادئ أرسطو ، فإنه يشبه النفس بللّه في أنها المحرك الذي لا يتحرك ( *moteur immobile* ) ، وأنها مصدر حركة الجسم<sup>(١)</sup> . فكان ينبغي لهذا الفيلسوف حينئذ أن يقول باستقلال النفس عن البدن ، كما ذهب إلى أن الإله ذات مستقلة غير جسمية . لكنه لم يفعل . فجاء ابن رشد وفسره خير تفسير بأن رفع التناقض في مذهبه ، وجعل النفس ذاتاً مستقلة تدبر الجسم ، وهي في نفس الوقت صورته ؛ إذ لا وجود له إلا بها . فليس اتحادها به اتحاداً عرضياً ، كما كان يقول ابن سينا ، أو جوهرياً كما كان يقول أرسطو ؛ بل هو اتحاد من جنس آخر اقتضته العناية الإلهية حتى تستكمل النفس وجودها .

وقد تحرر أبو الوليد إلى جانب ذلك من بعض آراء فلاسفة الإسلام قبله ، كإبي نصر وابن سينا والغزالي ، ونص صراحة على مخالفتهم لمذهبهم في بعض تفاصيله الهامة . فإن هؤلاء كانوا يقولون بنظرية الفيض ، ويزعمون أن النفوس الإنسانية تفيض من آخر العقول المفارقة مرتبة ، ويمنون به العقل الفعال ؛ في حين أنه يرى أن نظريتهم هذه مستحدثة ، ويعترف بأنه لم يقف عليها عند القدامى ؛ بل هي من صنع بعض فلاسفة المسلمين . وبظن كثير من مؤرخي الفلسفة الإسلامية من المستشرقين<sup>(٢)</sup> أنه لا يفترق عن سابقه في هذه المسألة ؛ بل ذهب بعضهم إلى ضمّه إلى جماعة المتصوفين الذي كانوا يقولون بإمكان الاتصال بالعقل الفعال . وسنشير فيما بعد إلى فساد هذا الزعم . لكننا نسكتفي هنا بأن نذكر

---

(١) انظر كتاب النفس لأرسطو 30، 15، 408. b De Anima وارجع أيضاً إلى كتاب « *Histoire de la philosophie, Tome Ier page 230* » للإسلامة الأساذ « إميل برديه » رئيس قسم الفلسفة سابقاً بكلية الآداب بجامعة باريس .  
(٢) من هؤلاء « أرلست رينان » و « مونك » و « ماسينيرو » و « جونتييه » .

تأليفيلسوف القرطبي نصاً صريحاً يبين لنا أنه لم يرتض نظرية الفيض ، ولا القول بأن النفوس الإنسانية تصدر عن واهب فيه الصور . فهو يقول في كتاب تهافت التهافت : « وأما الذين قالوا بواهب الصور فإنهم جعلوا هذه القوى عقلا

مفارقا . وليس يوجد ذلك لأحد من القدماء إلا لبعض فلاسفة الإسلام . »<sup>(١)</sup>

وسوف يكون لهذا الخلاف بين أبي الوليد وبين سابقيه أثر كبير في اختلاف آرائه عن آرائهم اختلافا جوهريا في مسألة المعرفة الإنسانية . فإن أبا نصر وابن سينا والغزالي يرون أن المعرفة ليست إلا نوعا من الفيض أو الإشراق في النفس ، أما أبو الوليد فيرى على العكس من هؤلاء أن الله يخلق نفوس البشر خلقاً مباشراً ، أي دون واسطة العقول المفارقة ، وأن النفس لا تدرك حقائق الأشياء عن طريق الفيض ؛ بل تسكنسبها عن طريق الحواس والتجريد . وهكذا يتمين لنا أن له في هذه المسألة رأيا مستقلا ، وأنه أكثر اتفاقا من جهة مع العقيدة الإسلامية ، وأقرب ما يكون — من جهة أخرى — إلى رأى أرسطو في المعرفة ؛ لأن هذا الفيلسوف الأخير يقول باكتساب المعرفة ، وينكر عالم المثل الذي ذهب أفلاطون إلى تأكيده وجوده .

كيف عرض الفيلسوف القرطبي للنقد الذي وجهه الغزالي إلى تعريف النفس بأنها صورة للبدن . وينحصر هذا النقد في أن القول بأن النفوس صور للأجسام ينتهي بالمرء إلى العجز عن بيان السبب في تعددها بتعدد الأفراد ، إذا أخذ برأى أرسطو القائل بأن المادة هي سبب الاختلاف بين أفراد النوع الواحد ، وأن الصورة هي الماهية أو الحقيقة المشتركة بينهم جميعاً . ويعترف أبو الوليد بقوة هذا الاعتراض ، ويرى أنه قد يجوز لبعض الفلاسفة أن يدعوا أن للنفوس مادة

(١) تهافت التهافت طبعة بيروت (2, xix) .

لطيفة مخالفة للمادة التي تتركب منها الأجسام ، وتلك المادة هي الحرارة النفسانية التي تفيض من الأجرام السماوية والتي تعود بعد فساد الأبدان إلى مادتها الروحانية وأجسامها اللطيفة التي لا تحس (١) .

وقد وهم بعض المستشرقين فظن أن هذا هو رأى ابن رشد . ولكن هذا الأخير ليس من هؤلاء الذين يقولون بوجود بعض المواد الروحانية . وإنما قد تنسب هذه النظرية إلى اخوان الصفا أو إلى ابن جبريل أحد فلاسفة اليهود في القرون الوسطى ، فضلاً عن أن هذا الرأى يتعارض مع نظرية فيلسوفنا في النفس ، فقد رأيناه ينص صراحة على أنها ذات غير جسمية . وقد اضطر ابن رشد إلى الخروج عن تعاليم أرسطو ، فقال في بعض كتبه : إن أفراد الإنسان لا يختلفون بسبب أجسامهم ، ولكنهم يفترون بسبب أرواحهم . كما قال أيضاً بأن الإنسان ليس إلا ما أدرك ووعى . ولذا فإننا نراه يرتضى مذهب ابن سينا في هذه المسألة ، ويقول : « فالخيار عند ابن سينا أن تكون النفوس متعددة بتعدد الأبدان ، لأن كون النفس واحدة بالعدد من كل وجه في جميع الأشخاص تلحقه محالات كثيرة : منها أن يكون إذا علم زيد شيئاً يعلمه عمرو ، وإذا جهله عمرو جهله زيد ، إلى غير ذلك من المحالات . » (٢) وبما يدل على أنه قد ارتضى لنفسه هذا المذهب أنه يقول إن النفس لا تخرج عن طبيعة الشخص (٣) .

\* \* \*

ويمكننا القول في نهاية الأمر بأن موقف ابن رشد في هذه المسألة موقف واضح صريح . وهو موقف من يحاول التوفيق بين تعريف النفس لدى كل من

(١) تهافت التهافت طبعة بيروت xx,3/6 .

(٢) نفس المصدر xx,2 .

(٣) نفس المصدر ص ٤٧٤ .

أرسطو وابن سينا . فهو لا يأخذ تعريف الأزل على علانه ، لأنه يقود رأساً إما إلى إنكار خلود النفس جملة ، وإما إلى نفي بقاء نفوس الأشخاص . كذلك رأى من جهة أخرى استحالة التسليم بتعدد النفوس إذا كانت المادة هي السبب في الاختلاف بين الأفراد . ولكنه أبى أن يتبع الرئيس أبا على الحسين فيما ذهب إليه من أن النفوس الإنسانية تفيض من واهب الصور ، وأنها تصل إلى المعرفة عن طريق الفيض أو الإشراق ، ورضى أن يعود إلى رأى أرسطو فيما يتعلق بتفسير المعرفة الإنسانية . فليس الإنسان لديه جوهرأ واحداً ، كما كان يقول الفيلسوف الأغرقي ، ولكنه مركب من جوهرين : نفسه وبدنه . والنفس هي السبب في وحدة الجسم واتساق وظائفه . والإنسان لديه وسط بين عالمين هما عالم الحس وعالم العقل . بيد أن النفس هي جوهره الحقيقي . ولا شك في أنه كان في هذه النقطة الأخيرة بعيداً كل البعد عن الفلسفة المشائية ، وقريباً كل القرب من أفلاطون وابن سينا .

#### ٨ - تعريف النفس لدى مسيحي القرون الوسطى

من المعروف أن مفكرى الغرب أخذوا كثيراً من آرائهم عن الفلاسفة المسلمين . وقد كان الاتصال بين هاتين الثقافتين على أشده في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين . وكان فلاسفة الإسلام القنطرة التي عبرت عليها فلسفة أرسطو ، وبخاصة نظريته في النفس ، إلى أوروبا . وساهم يهود الأندلس من جانبهم في توثيق الصلات بين المسلمين والمسيحيين ، فنقلوا إلى هؤلاء الأخيرين كثيراً من آراء المتكلمين وأبي نصر الفارابي وابن سينا والغزالي ، وعنوا بصفة خاصة بفلسفة ابن رشد ، فنقلوها إلى أوروبا في القرن الثالث عشر . وقد تجمع

التفكير المسيحي خطأ هذا النقل . ومعنى ذلك أن المسيحيين في غرب أوروبا وقفوا أولاً على آراء الفارابي والغزالي وابن سينا وتأثروا بها . ثم جاءتهم شروح الفيلسوف القرطبي لأرسطو وكتبه الخاصة ، فظهر أثرها في تفكيرهم .

إذن يمكن القول بأن هناك مرحلتين لتأثير الفلسفة الإسلامية في الفلسفة المسيحية ، وأن هناك طبقتين من أتباع هذه الفلسفة في أوروبا . ونذكر من الطبقة الأولى « ألبرت الأكبر - Albert le grand » الذي تعلم على الفارابي وابن سينا ، وأخذ عنهما كثيراً من الآراء ، كمنظريّة الفيض ، وما استنبهه من القول بوجود عقل فعال تفيض منه المعاني على النفوس الإنسانية . ونذكر من الطبقة الثانية « توماس الأكويني » الذي أخذ عن الفيلسوفين سابقى المذكور وعن الغزالي ، ثم تبع إلى حد كبير جداً آثار أبي الوليد ابن رشد .

ومع ذلك ، فقد ادهى هذا المفكر الأخير - كما ادعى على إرثه كثير من مؤرخي الفلسفة في العصور الوسيطة والحديثة - أنه هدم فلسفة ابن رشد وأنقذ أوروبا المسيحية من إلحاده وزيف أتباعه من الباريسيين الذين يطلق عليهم اسم الباريسيين الرشدين . ولسنا في حاجة إلى تمحيص هذه الدعوى وتفنيدها في هذا المقام ؛ إذ سنعود إليها في مكان آخر . ويكفي أن نشير هنا إلى أن توماس الأكويني أخذ جل آرائه عن ابن رشد ، ونسبها إلى نفسه ، ثم نسب إلى خصمه جميع البدع والآراء الفاسدة التي كانت ذائعة في أوروبا حينذاك . وعاجه على هذا الأساس .

ومن العجب أن توماس الأكويني استخدم نظرية التوفيق بين الدين والعقل التي قال بها ابن رشد في محاربة أعوان الزيف في أوروبا ، فوصفه أهل ملته بالنبوغ والعبقريّة وخلعت عليه الكنيسة لقب القديس ومنقذ المسيحية وقاهر الإلحاد .

لكن يهمننا هنا ، قبل كل شيء ، أن نعرض بالذكر لتعريف النفس لدى « توماس الأكويني » وأن نرى كيف فهمه وكيف عرضه . فقد قال إنه من الواجب الأخذ بتعريف النفس الذي ذكره أرسطو في كتاب النفس حين قال :  
إنها الفعل الأول لجسم طبيعي عضوي<sup>(١)</sup> . وذكر أن هذا التعريف ينطبق على كل من النفس النباتية والحيوانية والإنسانية . ويترتب على هذا القول أن النفس الإنسانية ليست مفارقة للبدن . وشأنها في ذلك شأن النفسين الآخرين . وقد فسر تعريفه هذا على نحو لا غموض فيه فقال . إن هذه النفس ليست مستقلة أو جوهرًا كاملاً ؛ بل إن البدن يدخل في ماهيتها وطبيعتها ، لافي هذه الحياة الدنيا فحسب ؛ ولكن بعد موتها أيضاً . ولذلك فإنها تسمى بعد خروجها من البدن نفساً مفارقة [ *âme séparée* ] . ويتبين لنا حينئذ أنه يرى أن اتحاد النفس بالبدن اتحاد جوهري ، كما كان يقول أرسطو وليس عرضياً ، كما ذهب إلى ذلك ابن سينا .

وكان « توماس الأكويني » حريصاً على هذا التعريف كل الحرص . ويرجع السبب في حرصه إلى أنه كان يستعين به على تفسير بعض المسائل الدينية ، وأهمها التفرقة بين نفوس البشر وبين الملائكة . ذلك أنه كان يرى ، على غرار فلاسفة الإسلام ، أن هذه الأخيرة عقول مفارقة ، أي مجردة عن كل مادة ، على حين أن النفوس الإنسانية صور لأجسام ، ولا بد من أن يدخل الجسم في تعريفها . كذلك نص على ضرورة هذا التعريف حتى يمكن تفسير معرفة النفس للعالم الحسي بعد موتها ؛ إذ لولا دخول معنى اللحم في تعريفها

(١) كتاب وحدة العقل ضد أتباع ابن رشد من الباريسيين .

- كما يقول - لما استطاعت النفوس ، التي يتوفاها الموت ، أن تحيط علماً بما يقع في هذه الحياة الدنيا . وهي لا تستطيع ذلك إلا إذا استخدمت أعضاء الحس التي فارقتها . وقد قال : إن معنى اللحم [ la chair ] جزء من ماهية النفس .

ومع ذلك ، فإننا نراه ينسى هذا الحرص ، ويعدل عن ذلك التعريف حين يتبين له أنه لا يكفي في إثبات خلود النفس ؛ بل يهدمه . فإننا ، لو قلنا إن فسكرة اللحم أو الجسم تدخل في تعريف النفس ، ولأنها جزء من ماهيتها لترتب على ذلك أنه إذا فنى اللحم وجب أن تفنى صورته . ولذا نرى « توماس الأكويني » يسارع إلى تعريف ابن سينا فيقول : لما كانت النفس جوهرًا كاملاً فإنها تستطيع البقاء بعد فناء جسدها ، مع أنه كان يقول في مواضع أخرى بأن اتحاد النفس بالبدن اتحاد جوهرى ، وليس عرضياً وبأنها ليست جوهرًا مستقلاً يدبر البدن كما يدبر الرمان أمر السفينة .

ولما اطلع توماس الأكويني على فلسفة ابن رشد حاول تقايده في التوفيق بين تعريف كل من أرسطو وابن سينا فقال : إن النفس جوهر غير جسمى وهي في نفس الوقت صورة للبدن ، وهي السبب في أن الإنسان يحتل مكاناً وسطاً بين عالمين : عالم الحس وعالم العقل .

لكننا نستطيع القول بأنه كان أكثر ميلاً إلى تعريف أرسطو ، وفلسفة هذا الأخير هي الغالبة على تفكيره . وفي رأينا أن توماس الأكويني لا يستأهل أن يضم إلى صفوف كبار الفلاسفة الذين عنوا بدراسة النفس ، لأننا نجد أنه لا يثبت على تعريف بعينه ؛ بل يتمد على تعاريف مختلفة ومتباينة . ومعنى ذلك أنه يستخدم كل تعريف من هذه في الموضوع الذى يظن أنه أكثر اتساقاً مع

فكرته . فتارة يقول إن النفس جوهر قائم بنفسه ، وتارة يقول إنها تتحد اتحاداً  
جوهرياً في البدن ، وإنه يدخل في تعريفها حتى بعد مفارقتها إياه ، وتارة أخرى  
يقول إنها جوهر مستقل وصورة للبدن في الوقت ذاته . وليس هناك ما هو  
أكثر دلالة على الاضطراب في التفكير من هذا المسلك . ومع ذلك ، فسنعجب  
فيما بعد لصاحب هذا التفكير المضطرب القلق حينما ينسب إلى ابن رشد ،  
الذي لم يفهمه جيداً في هذه النقطة ، آراء لم يقل بها هذا الأخير قط .

## الفصل الرابع وحدة النفس الإنسانية

١ - تمهيد

رأينا كيف جزم أفلاطون بتعدد النفوس في الجسم الواحد ، وحدد لكل نفس منها جزءاً خاصاً بها . أما أرسطو فإنه كان يرى على خلاف أستاذه أن النفس الإنسانية واحدة ، وأن ما نراه فيها من اختلاف القوى لا يدل على انقسام حقيقي فيها ، ولكنها وظائف متعددة ومتدرجة تتعاقب على مادة واحدة . ومع ذلك ، فإننا نجد لديه بعض الاضطراب في تقرير هذه الوحدة . ويرجع هذا إلى تردده وعدم وضوحه في تحديد طبيعة العقل الفعال : أهو إحدى وظائف النفس أم هو نفس من جنس آخر ؟ . وقد ترك هذا الفيلسوف تلك المسألة دون حل ، فاختلف شراحه من الإغريق والمسلمين في تفسيرها . فذهب فلاسفة الإسلام ، ونعني بهم القارابي وابن سينا والغزالي ، إلى أن العقل الفعال شيء آخر سوى النفس . وأما أبو الوليد بن رشد فقد فسر أرسطو تفسيراً لم يسبقه إليه أحد فقال : إن جوهر النفس وحقيقتها نشاط وإدراك عقلي ، أي أنها عقل فعال . وكان لرأيه هذا أثر كبير في تغيير اتجاه التفكير المسيحي . فإن « ألبرت الأكبر » كان يرى رأى المتقدمين من فلاسفة الإسلام ؛ فلما اطلع تلميذه « توماس الأكويني » على تفسير الفيلسوف القرطبي عدل إليه . وعلى الرغم من اعتماده على آراء هذا الفيلسوف فإننا نلاحظ عنده اضطراباً في هذا الموضوع ؛ لأنه يقول تارة إن النفس الإنسانية عقل فعال ، ثم يقول تارة أخرى : ليس من

من المعقول أن تكون كذلك . وسنرى أن تردده يرجع في حقيقة الأمر إلى اضطرابه في تعريف النفس ، حين يذكر تارة أنها جوهر مستقل ، وحين ينص تارة أخرى على أنها صورة للبدن ، وأنها تتحد به اتحاداً ذاتياً .

## ٢ - نظرية أرسطو

تساءل أرسطو في كتاب النفس<sup>(١)</sup> فقال : أستخدم النفس بأمرها في التفكير والإحساس والحركة ، وفي كل ما تقوم به من أعمال ، أو نخضع له من أفعال ، أم يجب أن تنسب هذه العمليات المختلفة إلى أجزاء مختلفة منها ؟ ويترتب على هذا السؤال سؤال ثان وهو : أتحمل الحياة في جزء واحد معين بالذات ، أم في عدة أجزاء ، أم في جميع الأجزاء ، أم هي نتيجة لسبب آخر ؟ ثم يقول أرسطو : لقد ذهب بعض الفلاسفة إلى أن النفس تقبل الانقسام ، وأن جزءاً منها يفكر ؛ في حين أن جزءاً آخر منها يشتهي . ولا شك في أنه يشير هنا إلى رأى أفلاطون . ولذا فإذا رأينا أرسطو يعدد وظائف النفس ، ويتكلم عن نفس نباتية وأخرى حسية أو خيالية أو عاقلة أو محركة أو شهوانية ، فإنه ينبغى لنا ألا نفهم من هذا التعداد أنه يرى ، حقيقة ، انقسام النفس الإنسانية إلى هذه الأجزاء ، وذلك لأنه ينفي استقلال هذه النفوس . وقد استخدم في توضيح الصلة والتدرج بين هذه الأجزاء أو الوظائف إحدى نظرياته المعروفة ، وهي تلك التي تنص على أنه من الممكن أن تتعاقب عدة صور على موضوع واحد ، أى مادة واحدة ، بحيث تكون كل صور منها مادة للتي أسمى منها دون عكس . ومعنى ذلك أن النفس الغذائية تمد مادة للنفس الحسية ، وهذه الأخيرة مادة

(1) De Anima, 411, b

للنفس الخيالية ، وهكذا . فليست هذه الصور أو الوظائف إلا مظاهر مختلفة لشئ واحد بعينه وهو النفس .

ويذكر أرسطو في موضع آخر من كتاب النفس أن عدد هذه الأجزاء أو الوظائف لا نهاية له ، وأنه لا يسكنى أن يفرق المرء ، تبعا لبعض الفلاسفة ، بين ثلاث قوى . فإن هناك قوى أخرى بينها من الفروق أكثر مما بين تلك التي ذكرها هؤلاء . ومن هذه القوى : القوة النباتية التي يشترك الحيوان فيها مع النبات ، والقوة الحسية التي لا يمكن وصفها بأنها لا تخضع لحكم العقل أو تخضع له ، والقوة الخيالية التي تختلف بطبيعتها عن باقي القوى الأخرى ، والقوة الشهوانية التي تبدو ، بحسب طبيعتها وسيطرتها ، مستقلة عن جميع القوى السابقة . ومع ذلك فلا يمكن فصلها عنها ؛ وذلك لأننا نعلم أن الرغبة الرشيدة تصدر عن الجزء العاقل من النفس ؛ بينما تنجم الشهوة العمياء عن الجزء غير العاقل منها . فلو كانت النفس تنقسم كما يقول أفلاطون إلى ثلاث نفوس لكانت الرغبة مشتركة بين هذه جميعها<sup>(١)</sup> .

فإذا أراد الفيلسوف دراسة النفس فليدرسها إذن على غرار الطريقة التي يتبعها عالم الهندسة في دراسة الأشكال ؛ وبيانه أن هذا العالم لا يدرس الأشكال العامة التي لا تعبر عن أى شكل خاص بالذات ، وإنما يدرس المثلث والمربع وكثير الأضلاع وغيرها من الأشكال الأكثر تعقيدا ، وينتقل دائما من البسيط منها إلى المركب ؛ لأن كل شكل يتضمن الشكل الذي يسبقه لا الذي يليه . وكذا الأمر فيما يتعلق بدراسة الفيلسوف لوظائف النفس أو توأما التي تتضمن كل قوة منها ما يسبقها ، لا ما يليها من القوى .<sup>(٢)</sup> مثال ذلك

(1) Ibid, 4:32 ε 1 - 8

(٢) أنظر : Hlstoire de la philosophie, Tome I. P 231 • الأستاذ

« إميل برييه » .

أن الكائن الحي الذي يحس لابد أن يكون متغذيا ، والكائن الحي الذي يتخيل يجب أن يكون حساسا . وليس تعدد هذه الوظائف في الكائن الواحد معناه أن له نفوسا كثيرة .

وتتفق هذه النظرية ، فيما عدا ذلك ، مع آراء أخرى لأرسطو خاصة بتدرج الكائنات ، فقد ذكر أن عددا كبيرا من الحيوان يتصف ببعض الصفات التي تشبه تلك التي تبدو واضحة متميزة لدى الإنسان ، كالميل إلى الاجتماع والتوحش ، واللين والشدّة ، والشجاعة والجبن ، والأمانة والغدر ، والحياء والثقة بالنفس . أضف إلى ذلك كله أننا نشاهد لدى كثير منها أفعالا تدل على وجود بعض الصور أو المعاني العقلية . وهكذا يتبين لنا أن الطبيعة تنتقل بالتدرج من الكائنات غير الحية إلى الكائنات الحية ، وأن هذا التدرج مستمر وغير محسوس إلى حد أنه قد يخفى علينا ما بين هاتين المجموعتين من حلقات متوسطة ، فلا ندرى إلى أيهما يمكننا إرجاع بعض الكائنات التي توجد بينهما<sup>(١)</sup>

وليس لأحد أن يقول إن النفس تنقسم بانقسام البدن . فإن في ذلك القضاء على وحدتها . فليست وحدة البدن واتساق أجزائه سببا في وحدة النفس ؛ بل الأمر على خلاف ذلك ، فإن النفس مبدأ وسبب لوحدها واتساق وظائفها ، بمعنى أن طبيعتها هي التي تقتضي هذه الوحدة وهذا الاتساق .

وأخيرا يقول أرسطو : إنه ليس من الممكن أن يختص كل جزء من أجزاء النفس بمحفظ جزء من أجزاء الجسم ؛ وذلك لأنه من العسير أن يتخيل المرء الجزء الذي يقوم العقل بمحفظ وحدته . فإن العقل لا يستخدم آلة عضوية ، كما هي الحال فيما يتعلق بالوظائف النفسية الأخرى . وقد استشهد على استحالة

(١) Histoire des animaux, VIII, i.

التسليم رأى أفلاطون الخالص بتعدد النفوس بهذا المثال وهو : أن بعض النباتات أو الحشرات إذا قسم إلى أجزاء استمرت هذه الأجزاء في الحياة ، كما لو كانت ذوات نفوس مستقلة<sup>(١)</sup> .

ومن هذا نتهى إلى أن النفس لديه واحدة ، وأن مظاهرها المختلفة ، كالنمى والنمو والتوالد والإحساس والحركة والشهوة والتخيل والإدراك ، ليست لإلا وظائف يتبع بعضها بعضاً . وقد تجتمع هذه الوظائف كلها فى كائن واحد ، كما هى الحال فى الإنسان . وقد يوجد بعضها دون الآخر فى بعض الكائنات ، كما هى الحال فى الحيوان والنبات . مثال ذلك أن الحس والحركة مشتركان فى الحيوان والإنسان ولا يوجدان فى النبات .

### ٣ - وعرة النفس فى الفلسفة الإسلامية

تبع مفكرو الإسلام آراء أرسطو فى تعريف النفس وبيان وحدتها ، وإن كانوا ، على الرغم من ذلك ، أكثر ميلاً إلى مذهب أفلاطون فى تحديد طبيعتها ، أى فى القول بأنها جوهر مستقل عن البدن .

#### (١) الفارابى :

ما زلنا نذكر كيف نص أبونصر الفارابى<sup>(٢)</sup> على أن لكل جسم نفسه الخاصة به ، وعلى استحالة أن يحتوى الجسم الواحد على أكثر من نفس واحدة ، وكيف جزم بأن للنفس قوى منبئة فى جميع أنحاء البدن . وتنقسم هذه القوى لديه إلى قسمين رئيسيين أحدهما موكل بالعمل والآخر موكل بالإدراك . وينقسم الأول

(1) De Anima 411, 20.

(٢) أظرس ٥٦ .

منهما إلى ثلاثة أقسام فرعية ، وهى القوة النباتية والقوة الحيوانية والقوة الإنسانية .  
فوظيفة الأولى هى حفظ الشخص وتنميته والإبقاء على نوعه ، أى أنها تشمل  
التغذى والنمو والتوالد . وتندرج وظيفة الثانية - فى جذب النافع الذى تقتضيه  
الرغبة أو الشهوة ، وفى دفع الضار الذى يستدعيه الخوف ويتولاه الغضب .  
وأما وظيفة الثالثة فخاصة باختيار الجليل والنافع فى هذه الحياة الدنيا ، أى أنها  
قوة خلقية تشرف على سلوك الإنسان .

وينقسم القسم الثانى منهما إلى قسمين فرعيين : حيوانى وإنسانى . أما الحيوانى  
فوظيفته الإحساس ، وأما الإنسانى فيهدف إلى تحصيل المعرفة العقلية بمعنى  
الكلمة .<sup>(١)</sup> ويطلق على هذا القسم الأخير اسم العقل النظرى . ويقول الفارابى  
إن نسبة هذه القوة إلى النفس كنسبة الصقال إلى المرآة . ومعنى ذلك أن هذه  
القوة ترسم فيها المعانى من النقيض الإلهى ، كما ترسم الأشباح فى المرايا الصقيلة  
إذا لم يفسد صقالها بطبيع ، ولم تعرض النفس عن الجانب الأعلى بما قد يشغلها  
من الشهوة والغضب والحس .

ب - ابن سينا :

كذلك نهج الرئيس ابن سينا هذا النهج ، وزاد عليه أنه اتخذ وحدة النفس  
سبيلا إلى البرهنة على وجودها ومخالفتها فى جوهرها للبدن كما رأينا من قبل .<sup>(٢)</sup>  
وقد فرق بين ثلاث قوى رئيسية هى : النباتية والحيوانية والإنسانية ، وذكر أن  
بينها نوعاً من التدرج ، وهو ذلك التدرج الذى يعبر عنه عندما يقول : إن تلك  
النفوس مرتبة باعتبار العموم والخصوص . وبيان ذلك أن النفس النباتية أعم من

(١) أنظر ميون المائل ، وهى فى مجموعة الثمرة المرضية ص ٧٣ ، ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) أنظر من صفحة ٧٨ إلى صفحة ٨٨

الحيوانية والإنسانية ، لأنها توجد لدى هذه الكائنات الثلاثة . والنفس الحيوانية أعم من الإنسانية ، لأنها توجد لدى الإنسان والحيوان على السواء . وأما النفس الإنسانية فأكثرها خصوصاً ؛ لأنها قاصرة على أفراد البشر . وقد أشار إلى هذه الصلة وذلك التدرج بقوله : « . . ثم وجدنا الأجسام المركبة المتنفسة ، أعني ذوات النفوس ، قد اشتركت وافترتت في كلتا خاصتي تحريكها وإدراكها . أما في التحريك فلأن كافتها قد اشتركت في أنها تتحرك في السكم حركة النمو . وافترتت بأن شرطاً منها يتحرك مع ذلك حركات مكانية بحسب الإرادة ، وشرطاً منها لا يتحرك بها كالنبات . وبمثله الأجسام الحيوانية قد اشتركت في أنها حساسة مدركة ضرباً من الإدراك الحسى ، ثم افترتت بأن شرطاً منها مدرك بالإدراك العقلى ، وشرطاً منها لا يدرك به كالحمار والفرس . ثم وجدنا قوة التحريك أعم من قوة الإدراك ، لما رأينا أن النبات صفر عنها . . . وكل واحدة منها أعم من القوة الناطقة التى للإنسان . فحصلت لنا القوى النفسانية مترتبة بحسب اعتبار العموم والخصوص على ثلاث مراتب : أولها تعرف بالقوة النباتية لأجل اشتراك الحيوان والنبات فيها . وثانيها تعرف بالقوة الحيوانية . وثالثها تعرف بالقوة النطقية . فإذن الأقسام الأولى للنفس ، بحسب اعتبار قواها ، ثلاثة . » (١)

وهذه القوى مرتبطة أشد ارتباط فيما بينها ؛ لأنها تصدر جميعها عن أصل واحد هو النفس . (٢) وليس ثمة تناقض ما فى أن تسكون النفس

(١) مبحث عن القوى النفسانية ص ٢٤ و ٢٥ .

(٢) كتاب الشفاء الجزء الأول ص ٣٦٣ : « فنقول إنه يجب أن يكون لهذه القوى رباط يجمع بينها كلها ويكون نسبته إلى هذه القوى نسبة الحس المشترك إلى الجواس : فانا نعلم أن هذه القوى يشغل بعضها بعضاً . »

جوهرًا واحدًا، وتفيض منها مختلف القوى في مختلف الأعضاء .<sup>(١)</sup> ولكن ليست هذه القوى منفصلة بحسب الواقع ، وإنما تصدر جميعها عن أصل أو منبع واحد ، ويختلف ظهورها بعضها بالنسبة إلى بعض حسب استعداد الجسم لذلك . فالنمو والغذى والحركة تظهر في وقت مبكر بالنسبة إلى الخيال والإدراك العقلي مثلاً .

### ح - الغزالي :

لم يسلك الغزالي مسلكاً يختلف كثيراً عما ذهب إليه الرئيس ابن سينا ، وإن استمان على تصويره لقوى النفس بأمثلة تذكرنا بعض الشيء بآراء أفلاطون في الجمهورية . فإنه يقول من جهة : « مثل نفس الإنسان في بدنه كمثل وال في مدينته ومملكته . فإن البدن مملكة النفس وعالمه ، وقواه وجوارحه بمنزلة الصناعات والعملة . والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل ؛ والشهوة له كعبد سوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة ؛ والغضب والحمية له كصاحب شرطة . والعبد الجالب للميرة كذاب مكار مخادع خبيث يتصنّف بصورة الناصح ، وتحت نصحه الشر الهائل والسّم القاتل . وديده وعادته منازعة الوزير الناصح في كل تدبير يدره ، حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته في آرائه ساعة . . . كذلك النفس متى استعانت بالعقل وأدبت القوة النضيبية ، وسلطتها على الشهوة ، واستعانت بأحدهما على الأخرى ، فتارة بأن تقال من تيه الغضب وغوائه بخلافة الشهوة واستدراجها ، وتارة بقمع الشهوة وبقهرها بتسليط

(٣) نفس المصدر الجزء الأول من ٣٦٤ « فيقول إنه ليس يجب إذا كانت النفس واحدة أن لا يفيض عنها في أعضاء مختلفة قوى مختلفة . ولولا ذلك لكان خلق البدن مهطلا لها . »

القوة النضبية عليها . . . اعتدلت قواه وحسنت أخلاقه . (١) » ولكنه يقول من جهة أخرى : « إن هذه الأفعال تتعلق بمبدأ يسمى ذلك المبدأ نفسا . فيكون قوامها ووجودها وخاصيتها بذلك المبدأ الذي هو النفس . » (٢) ومما يدل على أنه من أنصار وحدة النفس — كما كان يراها كل من الفارابي وابن سينا — أنه يقول بفكرة التدرج بين وظائف النفس : فأدناها سرية النفس النباتية ، وهي التي تقوم بوظيفة التغذية والنمو ، ثم تليها النفس الحيوانية ، وهي تتضمن ما في النفس النباتية ، وتزيد عليها الحركة والإدراك . كذلك يفرق الغزالي ، مثلها ، بين العقل والعمل والعقل النظري في الإنسان فمثلا يقول : « والنفس الإنساني قوتان : إحداهما عالمة والأخرى عاملة . والقوة العالمة تنقسم إلى القوة النظرية كالعلم بأن الله تعالى واحد والعالم حادث ، وإلى القوة العملية ، وهي التي تفيد علما يتعلق بأعمالنا ، مثل العلم بأن الظلم قبيح ولا ينبغي أن يفعل . والقوة العاملة هي التي تنبثق بإشارة القوة العلمية التي هي نظرية متعلقة بالعمل ، وتسمى العاملة عقلا عمليا . ولكن تسميتها عقلا بالاشتراك . فإنها لا إدراك لها ، وإنما لها الحركة . وكما أن القوة المحركة الحيوانية ليست إلا لطلب أو هرب فكذا القوة العاملة في الإنسان ؛ إلا أن مطلبها عقلي ، وهو الخير والثواب . » (٣)

\* \* \*

(١) معارج القدس ص ١٠٥ . وقد ذكر الغزالي مثلا آخر فقال : « مثل العقل مثل فارس . متصيد ، وشهوته كفرسه ، وغضبه ككلبه . فمضى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكنابه هودبا معلما كان جديرا بالنتيج . ومضى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس مجموعا والكناب عقورا فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ، ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيما . فهو خليق بأن يبط ، فضلا عن أن لا يتال ما طلب . وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وثقة حكمته وكران بصيرته . » وجماح الفرس مثل لغبة شهوته . وعقر السكب مثل لغبة الغضب واستيلائه وغلوائه . »

(٢) نفس المصدر ص ١٨٥ .

(٣) مقاصد الفلاسفة ص ٢٧٥ وما بعدها .

وهكذا يتبين لنا أن هؤلاء الفلاسفة الثلاثة قد اتفقوا اتفاقاً تاماً في هذه المسألة<sup>(١)</sup> على الرغم من أنهم تبعوا أرسطو في آرائه ؛ فقد أدخلوا على هذه الآراء جميعاً تعديلاً وتحويراً بعيد المدى . وبيان ذلك أنهم ، وإن قالوا بأن للنفس وظائف كثيرة ومتدرجة كالالتغذى والنمو والتوالد والحس والحركة والإدراك العقلي والأفعال الوجدانية ، فقد استثنوا العقل الفعال من بين هذه الوظائف . والسبب في ذلك أنهم يرون أن هذا العقل ليس إحدى وظائفها ، كما هي الحال في كل من العقل الهولاني أو المادى والعقل بالفعل والعقل بالملكة<sup>(٢)</sup> ؛ بل يقولون إنه أحد العقول العشرة التي تفيض من العقل الأول أو الإله سبحانه على ما هو معروف لديهم في نظرية الفيض ، وهي النظرية التي تفسر لديهم كيف صدرت جميع الكائنات عنه تعالى .

كذلك استخدم فلاسفة الإسلام هذه النظرية في تفسير المعرفة الإنسانية ، فذكروا أن النفس ترقى في سبيل الإدراك من الحس إلى الخيال حتى تصل إلى مرتبة تستعد فيها لقبول المعاني التي تفيض عليها من العقل الفعال على هيئة الإشراق . ومعنى ذلك أن الإنسان لا يكتسب معارفه العقلية عن طريق التجريد ، كما يقول أرسطو وبعض شراحه ؛ بل تفيض عليه المعاني مجردة عن كل أثر مادى .

ومع ذلك ، فنستطيع القول بأنه على الرغم من هذا التحوير العميق والتعديل الجوهري فقد استطاع هؤلاء الفلاسفة أن يؤكدوا وحدة النفس الإنسانية إلى حد كبير . ويجب علينا أن نعترف بأن نظريتهم القائلة بأن هذه النفس جوهر

---

(١) كذلك نص ابن طفيل ، من فلاسفة الأندلس ، على أن وحدة النفس هي السبب في وحدة الجسم ، وعلى أنها تستخدم هذا الأخير كآلة لها .  
(٢) سنرى معنى هذه المصطلحات في الفصل السابع .

كامل ومستقل عن البدن تتفق أيما اتفاق مع القول بوحدها .

#### ٤ — وحدة النفس لدى ابن رشد

لا ريب في أن الفيلسوف القرطبي كان أكثر فلاسفة الإسلام عناية بتقرير وحدة النفس . فإنه فسر أرسطو في هذه المسألة تفسيراً فذا يخالف فيه ما ذهب إليه كل شراحه في العصر القديم ولدى العرب أيضاً . وقد دعم الشارح الأكبر فكرة أرسطو ووضعها وضوحاً قد لا نغلو في وصفه، إذا قلنا إن صاحبها نفسه عجز عن القيام به . وإنما نذهب إلى هذا الرأي لأننا نجد أن ابن رشد قد طهر مذهب الفيلسوف الإغريقي مما كان يعتوره من اضطراب في مسألة الصلة التي توجد بين النفس والعقل الفعال . ذلك أن أرسطو كان غامضاً كل الغموض فيما يتعلق بهذه المسألة . ويبدو ذلك بوضوح في كتابه عن النفس حيث يقول : « أما فيما يمس العقل فليس ثمة شيء بديهي بشأنه . ومع ذلك ، فإنه يبدو جيداً أنه نوع مختلف جداً من أنواع النفس ، وأنه وحده هو الذي يمكن أن يكون مفارقاً للبدن كمفارقة الخالد للشيء القابل للفساد <sup>(١)</sup> » .

وسرى أن شراحه من الإغريق قد اختلفوا اختلافاً كبيراً في تفسير هذا النص ، وذهبوا مذاهب شتى في تعيين المراد بالعقل الفعال [Intellect agent] . ويرجع السبب في خلافهم هذا إلى ذلك الغموض سالف الذكر . ولذا نجد أحدهم ، وهو الإسكندر الأفروديسي [Alexandre d'Aphrodite] يذهب إلى أن هذا العقل هو الإله ، وأنه يحل في الإنسان ، ويقوم مكانه بوظيفة التفكير . أما مفكرو الإسلام فقالوا ، كما ذكرنا ، إنه هو الملك الأخير الذي يدبر حركة أقرب الأفلام إلينا ، ويعنون به فلك القمر .

(1) Aristote, De Anima, II, 2, 413.

وقد وهم كثير من مؤرخى الفلسفة المسيحية ومن المستشرقين أيضا عندما نسبوا إلى فيلسوف قرطبة آراء كان أشد الناس خروجاً عليها وإنكاراً لها . فقالوا إنه من أنصار نظرية الفيض ، وإنه لم يفعل سوى أن سار على آثار أبي نصر والرئيس ابن سينا وأبي حامد الغزالي ، وإنه يرى مثلهم أن العقل الفعال ليس إحدى وظائف النفس . ، بل هو ذات خارجة عنها . ومما يدعو إلى العجب أنهم نسبوا إليه ذلك مع أن أحد كتبه ، وهو تهافت التهافت ، مليء بالنصوص التى يهاجم فيها ابن رشد تلك النظرية .

وقد غابت عن هؤلاء حقيقة ناصعة ، لم يفتنوا إليها بسبب فكرة سابقة وهمية ، وتلك الحقيقة هى أن أبا الوليد استطاع أن يبرز فكرة وحدة النفس الإنسانية ، وأن يدعمها خير تدعيم عندما بين أن لهذه النفس وظائف عديدة تبدأ من التغذى والنمو والحس والحركة ، وتنتهى بالاستعداد لقبول المعانى بعد تجريدها من كل طابع حسى . وقد سمى الوظيفتين الأخيرتين بالعقل المبولانى والعقل الفعال فالأول هو الذى يقبلها والثانى هو الذى يجردها . كذلك نص هذا الفيلسوف على أن هناك تدرجاً طبيعياً بين مختلف هذه الوظائف ، وعبر عن هذا التدرج بقوله : إن بينها اتصالاً من جهة الوجود والعلم . أما من جهة الوجود فذلك لأن كل وظيفة منها تعد شرطاً أو أساساً مادياً للوظيفة التى تليها ، كما تعد فى الوقت نفسه كلاً وصورة للوظيفة التى هى أدنى مرتبة منها . مثال ذلك أن الحس يعد شرطاً فى الإدراك العقلى ومادة أولية له . لكنه يعد أيضاً كلاً وصورة للوظائف الدنيا كالغذى والنمو . أما من جهة العلم فلأنه لاخيال دون حس ، ولا تفكير دون خيال ؛ بمعنى أن الحس والخيال شرطان ضروريان فى الإدراك العقلى بمعنى الكلمة . ونجد هذا الرأى مفصلاً لديه فى كتاب مشهور يسمى « كتاب الفحص هل يمكن للعقل الذى هو فينا ، وهو

العقل المسعى بالعقل الهولاني ، أن يعقل الصور المفارقة بآخره أو لا يمكن ذلك ؟  
وهو المطلوب الذي كان وعدنا أرسطو بالفحص عنه في كتاب النفس » .

ويمكننا تلخيص فكرة هذا الكتاب على النحو الآتي : وهو أن أبا الوليد  
كان يرى أن العقل الهولاني والعقل الفعال ليسا في حقيقة الأمر إلا شيئاً واحداً  
ويعنى به النفس الإنسانية . فإذا كانت هذه الأخيرة مستعدة للمعرفة سميت  
عقلاً هولانياً أو مادياً ، أى أنها تشبه لوحة ملساء يمكن أن تنقش عليها معاني  
الأشياء . وإذا أدركت ذاتها ، أى إذا علمت أنها ذات مدركة سميت عقلاً فعالاً ،  
وتسمى هذه المرحلة لديه مرحلة اتصال العقل الهولاني بالعقل الفعال . وسنرى  
فيما بعد أن هذا الاتصال ليس اتصالاً صوفياً ، كما ذهب إلى ذلك الفارابي وابن سينا  
والغزالي وغيرهم من الفلاسفة ؛ ولكنه اتصال من نوع آخر ، أى نوع خاص من  
الإدراك العقلي تستطيع به النفس أن تدرك ذاتها وتعلم أنها جوهر مستقل . وهذا  
هو ما يمكن أن نطلق عليه اسم الحدس العقلي [Intuition intellectuelle]  
ونجد لديه هذه الفكرة أيضاً في كتاب آخر هو « تلخيص كتاب النفس  
لأرسطو » . وفيه يبين ابن رشد أن النفس جوهر مفارق أى مستقل عن البدن ،  
وأن لها وظائف متعددة نشأت العالمية الكبرى منها بسبب اتصالها بالجسم .  
ومن هذه الوظائف العقل الهولاني والعقل الفعال ، وهما في الحقيقة شيء واحد  
هو النفس . وإنما سميت هذه عقلاً هولانياً لأنها تشبه المادة من جهة قبولها  
للمختلف الصور . ولكن ليس معنى ذلك أنها مادية حقيقة . أما إذا استطاعت  
أن تجرد المعاني من الأشياء ، وأن تعقل ذاتها . سميت عقلاً فعالاً . وفي ذلك يقول  
أبو الوليد<sup>(١)</sup> : « إذن تبين أنه يوجد في النفس منا فعلاً واحداً فعل المعقولات

(١) تلخيص كتاب النفس : 20 - fol 144, V, C . ويوجد هذا الكتاب بدار الكتب  
الأهلية بباريس .

والآخر قبوله . فهو من جهة فعله للمعقولات يسمى فعلاً ، ومن جهة قبوله إياها يسمى منفعلاً ، وهو في نفسه شيء واحد . « فهذا إذن نص صريح لا يقبل الشك أو النقد ، وهو رد قاطع على هؤلاء الذين شوهوا مذهب هذا الفيلسوف حين اكتفوا بدراسة سابقيه ، فجزموا أنه لا بد أن يكون مثلهم . وما هو ذا نص آخر يعضد الأول . فإن الشارح الأكبر يقول في حديثه عن العقل الهولاني : « وهذا العقل هو بعينه العقل الفعال الذي سيظهر وجوده بعد . »<sup>(١)</sup> وما هو ذا نص ثالث يعضد النصين السابقين ، إذا كنا حقيقة في حاجة إلى نصوص أخرى بعد أن رأيناها يرفض نظرية الفيض جملة : « إن النفس هي العقل الفعال لأنها تستطيع تجريد المعاني حسب إرادتها . »<sup>(٢)</sup>

من هذا كله يتبين لنا أن فيلسوف قرطبة استطاع تقرير وحدة النفس على نحو لم يهتد إليه أرسطو نفسه ولا شراحه . وذلك لأنه كان أكثر وضوحاً من أرسطو عندما قرّر دون لبس أن النفس الإنسانية جوهر روحى قائم بذاته ، وأن وظائفها المختلفة لم تنشأ إلا بسبب اتصالها بالجسد ؛ وذلك باستثناء العقل الفعال فهو ليس في حاجة إلى البدن ، وليست هذه الوظائف المتدرجة إلا صوراً وكالاً للجسم . ومعنى ذلك أن جوهرها عقل محض إذا حل في المادة اضطر إلى استخدام عدد كبير من الوظائف حتى يستطيع السمو إلى أرقى مراتب الإدراك ، فيهتدى آخر الأمر إلى إدراك حقيقته ، أى إلى معرفة أنه نشاط عقلى [ activité intellectuelle ]

\* \* \*

ومن ثم فإننا نستطيع الآن أن نكون لأنفسنا فكرة واضحة عن مدى تجنى

(١) نفس المصدر : 144 V. C. 2.

(٢) نفس المصدر : 146 V. C. 2.

مؤرخى الفلسفة من الأوروبيين - ومن تبعهم من أقرانهم فى الشرق - على أبى الوليد بن رشد عندما نسبوا إليه آراء لم يقل بها قط ، وحين وصفوه بأنه إمام المارقين وباعث موجة الإلحاد التى غمرت أوروبا فى القرون الوسطى . ونعتقد من جانبنا أنه من الممكن إرجاع هذه الأسطورة التى حاكها أولئك المؤرخون حول اسم هذا الفيلسوف إلى عاملين : أما أحدهما فينحصر فى أن بعض نظريات مفكرى الإسلام التى نقلت إلى أوروبا من مبدأ القرن الحادى عشر الميلادى بهرت جمعاً من الغربيين فجعلوها دعامة بنوا عليها آراءهم التى أرادوا التحرر بها من سلطان الكنيسة الفاهر . فلما أرادوا أن يخلعوا على آرائهم طابعاً فلسفياً بحثوا فلم يجدوا اسماً يفوق اسم الشارح الأكبر شهرة وذيوعاً ، فادعوا أنهم أنصاره وأتباعه . وأما العامل الآخر فببانه أن جماعة من المثقفين فى ذلك الحين استطاعوا الوقوف على كثير من الآراء الحقيقية لفلاسفة الإسلام . وكان هؤلاء هم جماعة من الدومينيكان رحلوا إلى شمال أفريقيا ، وتعلموا العربية ، وقرأوا كتب الحديث والمتكلمين والفلاسفة ، ونقلوا كثيراً مما كانت تحتوى عليه نقلاً صحيحاً أو عن طريق الاقتباس .<sup>(١)</sup> وكان أشهر هؤلاء رجلاً يدعى « ريموند مارتان » . ومن الثابت المقرر أن « توماس الأكويني » اطلع على فلسفة ابن رشد خاصة عن طريق « ريموند » . فقد كانا يتسبان معاً إلى طائفة الدومينيكان سالفة الذكر<sup>(٢)</sup>

وربما كان هذا العامل الثانى أبعد أثراً فى تشويه آراء الفيلسوف القرطابى ومسئولها . فإن « توماس الأكويني » لم يقنع بأن أخذ عنه كل ما استطاع وعيه

---

(١) ارجع فى هذه المسألة إلى الرسالة القيمة التى كتبها العلامة أسين بالاسيوس ( Aein y Palacios : El averroismo Teológico de Santo Tomas d'Aquino, Zaragoza, 1904. )

(٢) أنظر هنا للموضوع بالتفصيل فى كتابنا : « الفيلسوف المقترب عليه ابن رشد » .

وفهمه ؛ بل نسب إليه في الوقت نفسه جميع بدع عصره . فمن ذلك أنه بعزوه إليه ، في مسألة وحدة النفس التي تشغلنا الآن ، نظرية مفتراة في جميع تفاصيلها فيقول : إن الشارح الأكبر يفرق بين أمور ثلاثة هي : النفس والعقل الهولاني والعقل الفعال ، ويذكر أن العقل الهولاني ذات متارقة للنفس الإنسانية ومشتركة بينها جميعها ، وتستطيع الاتصال بذات عقلية أخرى هي العقل الفعال . ولا ريب في أنه ليس ثمة ما يفوق هذا التشويه قبحاً ، ولا هذه الرغبة في التدليس شناعة . فقد رأينا منذ قليل أن أبا الواليد ينص صراحة في أكثر من موضع واحد على أن العقل الهولاني والعقل الفعال ليسا في واقع الأمر ذاتين مختلفتين ؛ بل هما شيء واحد بعينه . فهما مظهران لذات واحدة هي النفس ، التي إذا اتصلت بالجسم ، استعدت لمعرفة جميع الأشياء الحسية ، وحينئذ تسمى عقلاً هولانياً أو عقلاً منفعلاً ، فإذا أتيح لها نصيب كبير من المعرفة أدركت ذاتها ، وحينئذ تسمى عقلاً فعالاً .

ومما يدل على أن هذا التشويه والتدليس لم يكونا عن سوء فهم لحسب ؛ أن « توما الأكويني » ادعى لنفسه آراء ابن رشد الحقيقية . وفيما عدا ذلك فلم تسكن هذه هي المرة الوحيدة التي يسلك فيها « توماس الأكويني » هذا المسلك الغريب . فقد حرف آراء خصمه في مسائل أخرى كسألة علم الله للجزئيات . ذلك أنه أخذ عنه طريقته في حل المشكلة التي فرقت بين علماء المسلمين والتي حفزت الغزالي إلى تكفير أبي نصر الفارابي وابن سينا ، ثم ادعاها لنفسه ، ونسب إليه الرأي القائل بأن الله لا يدرك الجزئيات . وتفصيل الأمر هنا على نحو ما هو أن الفارابي وابن سينا ذهبا إلى أن الله لا يدرك الجزئيات ، أي الأمور المتغيرة الحادثة ؛ لأن علمه بها يستدعي أن يكون متغيراً مثلها . وهذا محال عليه سبحانه . ثم قامت مناقشات عنيفة بين الفلاسفة وبين المتكلمين .

ومعهم الغزالي حول هذا الموضوع . وقد نبه ابن رشد إلى أن هذه مشكلة غير حقيقية ، لأنه ينبغي التفرقة بين علم الله وعلم الإنسان ؛ إذ العلم الأول سبب في وجود الكائنات ، على حين أن علم الإنسان مسبب عنها . ومن ثم فليس هناك وجه للمقارنة بين أمرين متضادين ، أي بين عالم الغيب وعالم الشهادة .<sup>(١)</sup>

وسنرى بعد قليل كيف كان رأى « توماس الأكويني » مضطرباً في مسألة وحدة النفس على الرغم من اطلاعه على آراء أبي البريد . ونشير هنا إلى أنه كان يتبع خطوات هذا الأخير . فإذا تصدى للرد على ملحدى الغرب والمارقين فيه نسي آراء الشارح الأكبر جملة ، وعاد إلى رأى أرسطو في تقريره لوحدة النفس على ما فيه من نقص وغموض . لقد كانت معرفته لآراء الفيلسوف القرطبي سبباً في خروجه على تعاليم أستاذه ألبرت الأكبر . وعلى الرغم من ذلك ، فإنه لم ينصفه ، ولم يعترف بكل ما أخذه عنه ؛ بل ذهب يوجه إليه أعنف النقد ، ويرميه بالزيف ، ويسفه تلك الآراء المزعومة التي افترها عايه ، أو التي كان يعلم أنها مفتراة ، فأثر تفنيدها على اعتبار أنها تنسب إليه حقيقة ، حتى يظهر في أعين بني ملته بمظهر الأصيل المبتكر .

ولن نقف طويلاً أمام هذه الدعوى نبين بطلانها وفسادها . فقد كفاه ابن رشد هذا العناء حين قرر وحدة النفس على نحو لا ايس فيه في تلخيص كتاب النفس ، وفي كتاب الفحص عن اتصال العقل الهولاني بالعقل الفعال .

### ٥ - وحدة النفس لدى توماس الأكويني

لا نجد حرجاً كبيراً إذا قلنا بأن هذا المفكر جمع بين أمرين كلاهما شر ، فنحن نعلم من جهة أنه شوه آراء الشارح الأكبر ، وأنه عجّز ، من جهة أخرى ،

(١) أنظر كتابنا « الفيلسوف المفترى عليه ابن رشد »

عن تكوين رأى متجانس عن هذه المسألة . وما كان ينبغى له أن يضطرب .  
على هذا النحو بعد وقوفه على فلسفة ابن رشد . ولذلك فإننا لنميل إلى تقرير هذه .  
الحقيقة ، وهو أنه كان يرى فى مسألة وحدة النفس رأين متناقضين . وهذا هو  
سبب الاضطراب الذى أشرنا إليه من قبل .

### أ - الرأى الأول :

لا يكاد يختلف هذا الرأى عن تلك الفكرة الواضحة التى سبق أن رأيناها .  
منذ قليل لدى الفيلسوف القرطبي . ولا نظن بحال ما أن هذه الفكرة قد خفيت  
على « توماس الأكويني » ، وإلا فكيف يمكننا تفسير هذه الظاهرة الغريبة ،  
وهى أنه يتبع هذا الفيلسوف خطوة بخطوة . فهو يبدأ مثله تماماً بالاعتماد على  
إحدى نظريات أرسطو ، ونعني بها تلك النظرية الخاصة بإمكان تعاقب عدة صور  
على مادة أو موضوع واحد . وهكذا اتخذ الفيلسوف المسيحي هذه النظرية بعينها  
وسيلة إلى تقرير أن النفس واحدة برغم تعدد وظائفها ، وإلى القول بأن هناك نوعاً  
من التدرج غير الملموس بين هذه الوظائف أو القوى بحيث تكون كل منها كالإحدى  
وصورة لتى تسبقها ، وبحيث تكون النفس العاقلة آخرها فى الظهور . وقد قال  
« توماس الأكويني » يعبر عن هذا الرأى : إن النفس الغذائية أساس للنفس  
الحسية ، وهذه الأخيرة أساس للنفس الخيالية ، وهذه الأخيرة أساس للنفس العاقلة .  
كذلك أشار فى موضع آخر إلى أن النفس العاقلة تحتوى على النفس الحسية بالقوة ،  
وذلك لأن لها جميع صفات هذه النفس وزيادة . ومع ذلك ، فإن هذه الصفات  
لا توجد فى النفس العاقلة على نحو يدعونا إلى التميز فيها بين نفسيين مختلفتين<sup>(١)</sup> .

(١) أنظر De spirit creat. q.5, art 3 ad Respondeo

وارجع أيضاً إلى كتاب العلامة جاسون . 270—271 p. Le thomisme

ثم ندرج من هذه الفسكرة المبدئية إلى القول بأنه ليس للإنسان في الحقيقة إلا صورة جوهرية واحدة - [ *Forme substantielle* ] وليست هذه الصورة شيئاً آخر سوى العقل. فإذا ذكرنا أنه كان يعرف النفس فيما مضى بأنها صورة للبدن تبين لنا بوضوح أنه لا يفرق بينها وبين العقل . وقد نص على أن هذه النفس تسكني وحدها في تحديد الجوهر الحقيقي للإنسان ، وأنها هي السبب الذي من أجله وجد البدن ، وهي التي تخضع عليه ، في نفس الوقت، الحياة والحس والإدراك <sup>(١)</sup>.

تلك هي اللغة التي يستخدمها « توماس الأكويني » في عرض هذا الرأي الأول . وليست هذه اللغة غريبة الجرس على مسامعنا ؛ بل لقد ينجل المرء أنه يسمع ابن رشد لا أرسطو ، ومعنى ذلك أن « توماس » يبتعد هنا عن الفلسفة الأرسطاطاليسية الحقيقية لكي يقترب من آراء فيلسوف قرطبة على أكثر ما يستطيع . فليس العقل حينئذ نوعاً آخر من النفس ، وإنما هو جوهرها وحقيقتها والسبب في وجود البدن . ومن البديهي أننا لسنا في حاجة إلى القول بأن ذلك المفكر المسيحي لم يقع على هذا الرأي عفواً ؛ إذ لو لم يعثر عليه عند ابن رشد لسلك مسلكاً آخر . غير أنه وجدته عند ابن رشد فأخترته لنفسه ، وجعل ينقض به آراء أستاذه « ألبرت الأكبر » . وهذا الأخير من أشياع نظرية الفيض ، ومن القائلين بوجود عقل فعال خارج النفوس الإنسانية . فهل كان للتلميذ أن يخرج على تعاليم أستاذه ، تلك التعاليم التي تمت بأكثر من صلة إلى آراء الفارابي وابن سينا وغيرهما من فلاسفة الإسلام الذين كان توماس يعرف عنهم وعن آرائهم شيئاً كثيراً - فنقول هل كان له أن يفعل كذلك ما لم يكن قد اهتدى إلى مصادر جديدة ، وهي فلسفة ابن رشد ؟

---

(١) انظر : *Qu, disp, Du Anima. q, 1 art 9*

ومن الواجب أن نقول إن هذا الرأي أو التفسير لا يتفق مع تعريف النفس لدى أرسطو . فإن تعريفها بأنها صورة للبدن لا يبين لنا بوضوح كيف تظل واحدة وكيف تتعدد وظائفها . وقد فطن ابن رشد إلى ذلك ونبه عليه ، فقال إن تعريف أرسطو ليس كافياً في بيان طبيعة النفس ؛ بل لا يستعان به إلا على اعتبار أنه وسيلة ممهدة إلى معرفة حقيقة جوهرها ، فالنفس ليست صورة فحسب ؛ بل هي قبل كل شيء ذات غير جسمية تتصف بصفات عديدة .<sup>(١)</sup> ومن الواضح أن تعريفها بأنها جوهر كامل لا يدخل الجسم في ماهيته أكثر ملاءمة للفكرة الغائلة بوحدتها كذات ، وبتعدد وظائفها في آن واحد .

كذلك فطن « توماس الأكويني » ، بسبب اطلاعه على آراء أبي الوليد ، إلى قصور تعريف أرسطو . ولذا نجد — وهو أشد « المدرسين » غيراً على الفاسفة الأرسطوطاليسية — بصف النفس ، في هذه الحال ، بأنها صورة جوهرية ، أى صورة وجوهر في الوقت نفسه . ومعنى ذلك أنه يدعى تعريفه الغائر لها جملة ، وهو التعريف الغائل بأنها صورة لجسم طبيعي ، وأن اللحم يدخل في ماهيتها . وليس المرء في حاجة إلى تلمس الأسباب التي دعت إلى هذا النسيان أو التناسي ، وإلى سلوك مسلك أقرب إلى الفاسفة الأفلاطونية منه إلى فلسفة أرسطو . فإن تعريف أرسطو يضطره لا شك إلى الاعتراف بأن العقل شيء آخر غير النفس . وهل يمكن الخلاص من هذا الرأي إلا بالقول بأن نفس الإنسان صورة جوهرية ، أو عقل محض يحتوي على كل من النفسين الحسية والغذاثية؟<sup>(٢)</sup>

هذا هو مجمل الرأي الأول لتوماس الأكويني في وحدة النفس . ويتبين

(١) ارجع إلى صفحة ١١٤

(٢) أنظر كتابه المسمى الخلاصة اللاهوتية: Summa theologica, I q 75 art. IV

لنا من هذا العرض السريع أنه كان أحد هؤلاء الأفراد القلائل الذين فهموا فلسفة ابن رشد وشروحه لأرسطو على حقيقتها . فإن ذلك الفيلسوف المسلم سوتى بين النفس الإنسانية والعقل حين قال إن كلا منهما لا ينقسم بانقسام البدن .<sup>(١)</sup> فهذا نص جديد إلى جانب تلك النصوص العديدة التى يصرح فيها بجلاء أن النفس جوهر عاقل مستقل بذاته .

وحينئذ يجوز لنا الحكم على النقد الذى وجهه إليه توماس الأكويني بأنه لم يكن جديرا بأن يسمى نقدا ؛ بل إن هذا النقد يتسم بالهوى والتحامل . ذلك أنه لا يحق لأحد أن يوجه مثل هذا النقد إلى رجل يقول : إن النفس سبب ومبدأ لوجود البدن ، وأنها إذا اتحدت به أصبحت عقلا هيولانيا ، أى استعدت لإدراك الأشياء الحسية ، وعقلا فعلا لأنها تنزع هذه المعانى وتجردها ، وتستطيع فى نهاية الأمر أن تدرك أنها ذات كاملة مستقلة عن البدن . وحينئذ لا تمكن التفرقة بين العقل الهيولانى والفعل الفعال . ولاشك فى أن هذه الفكرة تختلف تماما عن فكرة اتصال العقل الأول بالثانى لدى المتصوفين من الفلاسفة وغيرهم ممن يرون اتصال الإنسان بذات خارجه عنه . وسنرى الفروق واضحة بين هذا الفيلسوف وبين القارابى وابن سينا والغزالي حين نعرض لبيان مراتب الوظائف العقلية لدى الإنسان ، وحين نرى أنه يختلف عنهم فى شرح مراتب المعرفة الإنسانية .

### ب — الرأى التالى :

لم يكن الرأى السابق يعبر حقيقة عن اتجاه فلسفة محدد لدى « توماس الأكويني » ؛ لأنه لم يعد إلى هذا الرأى ، ولم يسلك مسلك ابن رشد إلا

(1) De beatitudine anima. fol. 23 v - c 2

ليستخدمه ، كما رأينا ، في الخروج من بعض المآزق التي أدى إليها تعريف أرسطو للنفس . ومعنى ذلك بعبارة أدق أن هذا الرأي الأول كان وليد الحاجة فحسب ، وأنه كان لا يبر عن فكرة عميقة أو اتجاه دائم لديه . وإنما لجأ إليه وقت الحاجة ، وبخاصة حينما تصدى لإثبات خلود النفس . حتى إذا قضى منه حاجته انفض عنه ونسيه جملة ، وركن من جديد إلى رأى آخر يناقضه تماماً .

وإنما اضطر إلى العدول عن الرأي الأول لأنه لا يفتى عنه شيئاً في الرد على بعض الملحدّين من أهل ملته الذين زعموا أنهم أتباع ابن رشد وحاملى لواء فلسفته في الغرب . أما ماخص قصة هؤلاء فهو أن جماعة من الباريسيين أخذوا نظرية النفس السكّية عن أبي نصر الفارابى وطبقوها على العقل أيضاً . فقالوا إن جميع أفراد البشر لا يشتركون في نفس واحدة فحسب ؛ بل لهم عقل واحد . ثم بحثوا عن فيلسوف مسلم نابه الذكر ، لكي ينسبوا إليه هذا الرأى الغريب ، وحتى يدعوا حجّتهم باسمه ، فلم يجدوا من هو أبعد ذكراً وأنبه شأنًا من فيلسوف قرطبة ، الذى كان يعدّ حجة القرون الوسطى في فهم فلسفة أرسطو وتفسيرها .

فلما أراد « توماس الأكوينى » الرد على هؤلاء التلاميذ الأدعباء جمع بينهم وبين الشارح الأكبر في سلك واحد ، فوصفه كما وصفهم بالزيغ ، وجعل هذا الفيلسوف العربى أمام الملحدّين . وقد رأينا كيف كان يعلم رأى أبى الواليد في هذه المسألة تمام العام . ومع ذلك ، فإنه لم يجد غضاضة في تشويه هذا الرأى ومسّخه ، حتى يقنع الملحدّين في أمته بخطأهم ، وحتى يتمكن من القضاء على تلك البدعة القائلة باشتراك البشر في نفس واحدة وعقل واحد ، وهى تلك البدعة التى بهرت عقول بعض المفكرين الخارجيين على رجال السكّهوت في الغرب فى أواخر القرن الثانى عشر ، وطيلة القرن الثالث عشر .

وعندئذ ما كان له إلا أن يرجع عن رأيه الأول ليلمس بحرفية تعريف أرسطو للنفس فيقول : ليس العقل حقيقة الإنسان وجوهره . وكيف يكون الأمر كذلك إذا لم يكن هذا العقل سوى إحدى وظائف النفس أو قواها ؟ إن النفس صورة للجسم ، وهي تتحد به اتحاداً جوهرياً . فليست إذن بذات مستقلة حتى يمكن القول بأنها عقل محض . وهكذا لم يعد العقل ، حسب هذا الرأي الجديد ، الجوهر الحقيقي للنفس ، ولم تعد النفس العاقلة تتضمن ، أو تحتوى على كل من النفسين : الحسية والغذائية ، كما كان يقول « توماس الأكويني » منذ قليل .

وليس لنا أن نلج في بيان اضطراب هذا المفكر ونسيانه لبعض آرائه الأخرى ولسكننا نعجب له في الواقع كيف استطاع ، دون عسر ، أن يهدم بيديه رأياً أحكم عرضه وتفصيله ، عند ما ذكر أكثر من مرة أنه يجب على المرء ألا يفرق بحال ما بين النفس والعقل الفعال . ومع ذلك فقد كان هذا هو مسلكه .

فينبغي لنا حينئذ أن ندع العجب جانباً ، لكي نبحث عن الأساس الجديد الذي بنى عليه هذا الرأي . وليس هذا الأساس الجديد سوى ما رأيناه من قبل من اضطراب أرسطو في تقرير وحدة النفس . فقد قال « توماس الأكويني » : ليست النفس العاقلة بالصورة الجوهرية في الإنسان ، ولكنها جزء من النفس التي هي صورة للبدن .<sup>(١)</sup> كذلك ذكر في كتابه المسمى « وحدة العقل ضد أتباع ابن رشد من الباريسيين » ما يأتي : « وحينئذ يتضح لنا دون شك - حسب ما قضى به أرسطو في مسألة العقل المنفصل - أن هذا العقل جزء من النفس التي هي صورة للبدن . »<sup>(٢)</sup> وإذا قلنا إنه جزء منها فإنه أشد خصوصاً منها ، فلا يمكن

(1) De Unitate intellectu, P. 41 :

(2) Manifestissime igitur apparet absque omni dubitatione ex verbis Aristotelis hanc fuisse ejus sententiam de intellectu possibili quod intellectus sit aliquid animae qui est actus corporis

تبعاً لذلك أن يتحد معها تمام الاتحاد . وقد ظن « توماس » أن تلك هي خير وسيلة إلى هدم آراء الباريسيين الملحدين ؛ لأننا إذا قلنا إن العقل أحد أجزاء النفس فليس من المعقول أن يكون واحداً مشتركاً بين جميع البشر ؛ إذ لسلك فرد منهم نفس خاصة به ، ومن المستحيل أيضاً أن يكون ذاتاً خارجة عن هذه النفوس . وهكذا اعتقد أن تعريف أرسطو للنفس ينقذه من الوقوع في تلك البدعة . ونسى أن هذا التعريف يقضى بالمرء إما إلى إنكار خلود النفس وإما إلى القول بأن النفوس الجزئية ، إذا فارقت أبدانها ، لم يعد هناك ما يدعو إلى تفرقها بعد زوال المواد التي كانت سبباً في اختلافها .

ولذلك فإننا نميل إلى القول بأنه لم يكون لنفسه رأياً فاصلاً عن طبيعة النفس ، وأنه كان مضطرباً يتردد - على غير هدى - بين آراء أرسطو وبين آراء ابن سينا . فهو يلجأ إلى آراء الأول من جهة لكي يثبت أن العقل جزء من النفس ، وهو يفرغ إلى الثاني لكي يبرهن بآرائه على خلود النفوس الجزئية . وفي أحيان أخرى لم يكن له بد من اتباع الآراء الحقيقية لابن رشد ؛ فنص على أن النفس ليست مجرد صورة للبدن ، كما كان يقول أرسطو ؛ وإنما هي صورة من جنس خاص ، بمعنى أنها مستقلة عن الجسم الذي تتصل به . وقد اضطر إلى الجنوح إلى هذا الرأي لسبب آخر غير الذي ذكرناه من قبل ، وهو أنه رأى أنه من التناقض القول بأن النفس ، وهي صورة للبدن ، تستطيع أن تقوم ببعض الوظائف التي لا تستعين على أدائها ببعض أجزاء الجسم الذي هي كمال له . وهكذا نجد يقول : « إنه من الواجب أن يستثنى المرء حالة خاصة ، وهي تلك الصورة التي تعد مبدأ لوجود مادتها . » (١) ويريد بذلك النفس التي هي السبب في وجود الجسم والحياة

(١) Ibid, Page 44

والحس والإدراك العقلي . ولكنه كان أكثر وضوحاً من ذلك أيضاً حينما قال :  
إن الصورة التي تؤدي أفعالها بأحدى ملكاتها أو قواها ، دون أن تستعين على  
أدائها بالمادة ، هي صورة ذات وجود خاص بها . فليست النفس كباقي  
الصور ؛ بل هي صورة قائمة بذاتها ، ومستقلة نسبياً عن الجسم .

غير أنه عجز ، مع ذلك ، عن الجمع بين مذهب أرسطو وابن سينا على النحو  
الذي سبقه إليه ابن رشد . ولذلك لم يستطع أن يكون لنفسه نظرية متجانسة  
عن طبيعة النفس وعن وحدتها . وكان ينبغي له بعد هذا كله أن يقف موقفاً  
نزيهاً من فيلسوف قرطبة ؛ فيسلك مسلكاً آخر غير الذي سلكه في الرد  
على تلاميذه الأعداء . ولربما كان أجدى له وأحرى به أن يستعين على  
ذلك بآراء هذا الفيلسوف . فإنه يقول - في كتاب الفحص عن اتصال  
العقل الميولاني بالعقل الفعال - بخلود هذين العقليين ؛ بينما يزعم أنصار  
وحدة العقل من اللاتينيين أن العقل الميولاني عقل فان . والحقيقة أن هؤلاء  
الذين تصدى « توماس الأكويني » للرد عليهم لم يكونوا سوى تلاميذ أرسطو  
نفسه وأبي نصر الفارابي .

وما يثير العجب ما نراه من خلط الأكويني ، عندما ينسب إلى ابن رشد  
آراء منقراة ، ثم يعتمد في نقدها على بعض أقوال ابن سينا والغزالي . وكأنه  
يجهل أن أبا الوليد هداه إلى رأيه الأول الذي يسوى فيه النفس والعقل  
الفعال ، وهو الذي لا يتفق كما نعلم بحال ما مع فلسفة هؤلاء الذين  
يحتج بأقوالهم .

ويمكننا إجمال موقف « توماس الأكويني » حيال وحدة النفس الإنسانية على النحو الآتي : لقد أدى به اضطرابه في تعريف النفس وفي التردد بين وجهتين مختلفتين من النظر إلى تسكوين رأيين متناقضين عن طبيعتها ووحدها على الرغم من تعدد وظائفها . والواقع أنه لم ينتفع كثيراً بما اقتبسه من الفلاسفة المسلمين ، ولم يفعل سوى أن ارتضى مذهب أرسطو في هذه المسألة على ما فيه من غموض . فقد رأى « أن النفس الإنسانية تعجز عن إدراك ذاتها إدراكاً تاماً ، لأنها صورة للبدن كما ينص على ذلك تعريفها . غير أن هذا لا يحول دون أن يكون أحد أجزائها ، وهو العقل ، قادراً على إدراك ذاته . » أفليس معنى هذا أن العقل نوع آخر من النفس . إنه يجب علينا أن نعترف بأن « توماس الأكويني » ظل أميناً على الفلسفة المشائية ، ومع ذلك ، فقد كان ثمن هذه الأمانة باهظاً ، لأنها تكاد تهدم وحدة النفس بدلا من أن تقرها . كذلك يجب القول بأنه أبعد ما يكون عن اللاحق بأبي الوليد . فإن هذا الأخير استطاع التخلص من جميع الصعوبات التي أثارها غموض أرسطو في هذا الصدد . حقاً إنه حمل مذهب أرسطو أكثر مما يحتمل ، عندما قال بأن النفس هي السبب الحقيقي في وجود البدن والحياة والإحساس والإدراك ، وأنها ذات وصورة في آن واحد . وليس يخفى أنه لم يتردد في استعارة بعض آراء سينا في النفس ، حتى يكون نظرية جديدة تخلو من الغموض والتناقض .

## الفصل الخامس

### الصلة بين النفس والبدن

١ - تمهيد

لقد كان لفلاسفة الإسلام أن يختاروا أحد مذهبين : فإما أن يقولوا مع أرسطو إن اتصال النفس بالبدن اتصال جوهري ، كاتصال الصورة بالمادة أى، غير عرضي ، وإما أن ينجحوا إلى رأى أفلاطون الذى يصور وجود النفس فى الجسم بوجود الربان فى السفينة . ولم يكن مسلك هؤلاء الفلاسفة واحداً فى الاختيار . فإن أبا نصر الفارابى حاول الجمع بين رأى الحكيمين . أما الرئيس أبو على الحسين وأبو حامد فلم يترددا فى اختيار مذهب أفلاطون مع تعديله وتجويره بمض الشىء ، حتى يكون على وفاق مع آرائهما الدينية . وقد عنى كلاهما بالبرهنة على حدوث النفس وقت حدوث البدن ، وعلى أن اتصالها به اتصال عرضي لا يحول دون عودتها إلى عالم الروح الذى فاضت منه .

وقد تبع ابن رشد آثارها إلى حد كبير ، وإن أنكر فيضان النفس من آخر العقول السماوية ، ونص على أن اتصال النفس بالبدن ليس أمراً عرضياً ؛ بل هو لغاية أو عناية إلهية . ومع ذلك ، فقد نسبت إليه مختلف البدع . وقد حاول بعض مفكرى المسيحية فى القرون الوسطى أن ينجحوا نهج ابن سينا . ومن هؤلاء « توماس الأكوينى » . بيد أن هذا الأخير لم يستطع البت برأى قاطع فى هذه المسألة . فسكان يستخدم كلا من آراء أرسطو وآراء فلاسفة الإسلام حسبما يتفق مع طبيعة المشاكل التى كان يعالجها . ومهما يكن من رده واضطرابه فإنه كان أكثر ميلاً إلى آراء أرسطو .

## ٢ - آراء أرسطو

لم يكن تعريف النفس لدى هذا الفيلسوف ليترك سبيلا إلى الشك في طبيعة الصلة التي تربطها بالبدن . ولقد كان رأيه في هذا الأمر صريحا حين قال : « وهذا هو السبب في أنه ليس ثمة ما يدعو إلى البحث عم إذا كانت النفس والبدن شيئا واحدا ، كما أننا لا نبحث عن ذلك فيما يتعلق بالشمع والأثر الذي ينطبع فيه . »<sup>(١)</sup> إذ ليس من الممكن التفرقة بين هذين الأمرين المتكاملين في كلتا الحالتين أو المثالين .

ومن الأكد أن السبب الذي دعاه إلى القول بأن النفس صورة للجسم لا تنفك عنه وتكون معه جوهرًا واحداً أنه كان يريد الرد على الأساطير الأفلاطونية التي تنص على أن النفس كانت توجد في عالم علوى قبل أن تهبط إلى هذه الحياة الدنيا وتحل في أحد الأجسام . فأرسطو لا يرى إذن أن النفس جوهر مستقل ، أو أنها تشبه النوتى الذى يدبّر أمر سفينته : بل لا يتصور وجودها منفصلة عن الجسد بحال ما .

وقد كان لرأى هذا الفيلسوف في الصلة بين النفس والجسم أثر كبير في توجيهه إلى دراسة الوظائف النفسية دراسة تكاد تكون علمية . فإنه عنى عناية كبرى بدراسة الإحساسات المختلفة وكيفية حدوثها بسبب وجود بعض المؤثرات الخارجية ، كما بذل قسطا كبيرا من جهده في بيان طبيعة كل حس من الإحساسات الخمسة ؛ وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس . كذلك نجده قد عرض لدراسة ما يسميه الإحساس السادس ، وهو عنده الحس المشترك الذى يجمع به الإنسان بين إحساسات مختلفة فيحدد بها موضوعا خاصا . وهو الذى

(١) انظر كتاب النفس لأرسطو وكتابه فيما وراء الطبيعة .

يطلق عليه علماء النفس في العصر الحديث اسم الإدراك الحسى . ونحن نعلم أنه لا مثيل لهذه العناية لدى أفلاطو بوظائف النفس . فقد اهتم أيما اهتمام بمسائل من جنس آخر ، كما لبرهنة على خلود النفس وبيان طبيعتها والغاية التي تهدف إليها .

### ٣ — آراء فيلسوف العصر القديم

#### ١ — الفارابي :

أراد أبو نصر التوفيق بين رأى كل من أرسطو وأفلاطون في مسائل مختلفة ومنها مسألة النفس . وقد رأينا كيف كان يقول من جانب بأنها صورة للجسم ومن جهة أخرى كان ينص على أنها جوهر غير جسسى ، وذكرنا أنه كان يتبع أفلاطون تارة فيقول إنها من عالم آخر ، ويتبع أرسطو تارة أخرى فيقضى بأن الأجسام هي التي تفرق بين الأشخاص . ولذا فإن بعض النفوس تمجد بعد مفارقتها لهذه الأبدان فتكون نفسا كلية . وسنرى هذه المسألة بالتفصيل لدى حديثنا عن آرائه في الخلود . ومهما يكن من شأن هذا التردد بين مذهبين مختلفين ، فإن الفارابي كان يرى أن صلة النفس ببدنها تشبه صلة السجين بسجنه . ولكنها تضطر ما دامت في هذه الحياة إلى مساعدة البدن الذي هو محل لها . فإذا استردت وجودها الحقيقي « فسكانها قد أطلقت من محبس مؤذ إلى خيرها المشاكل لها . » (١) وكان يرى أنه من الممكن أن تصل النفس بالجاهدة إلى التخلص من تلك الروابط الثقيلة التي تجبرها على العناية بالبدن ، وحينئذ تسمو ، ويصفو جوهرها ، وتعلم أنها من عالم آخر كله بهاء ونور تشكل الألسن عن وصفه والآذان عن سماعه . وإنما تصل النفس إلى هذه المرتبة لأنها تستطيع الارتقاء في

(١) « كتاب الجمع بين رأى الحكيمين : أفلاطون الإلهي وأرسطو » ص ٣١ و٣٠ .

سراتب الكمال حتى تعلم أنها ذات بريئة من كل طابع مادي . ومع ذلك ، فإنها أدنى مرتبة من الملائكة . وقد عرض هذه الفكرة في كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » ، فقال في وصف السعادة الإنسانية الحقة : « وهي أن تصير نفس الإنسان من الكمال في الوجود إلى حيث لا تحتاج في قوامها إلى مادة . وذلك أن تصير في جملة الأشياء البريئة عن الأجسام ، في جملة الجواهر المفارقة للمواد ، وأن تبقى على تلك الحال أبدا ، إلا أن رتبها تكون دون رتبة العقل الفعال ، وإنما تبلغ ذلك بأفعال ما إرادية وبعضها أعمال فكرية ، وبعضها أفعال بدنية ، وليست أى أفعال انفتحت ؛ بل بأفعال ما محددة مقدرة ، تحصل على هيئات ما وملكات ما مقدرة محددة . »

ب - ابن سينا :

لم يحاول ابن سينا الجمع بين مذهبي أرسطو وأفلاطون ؛ لأنه رأى أن مذهب الأول يقضى إلى إنكار بقاء النفس بعد الموت . ولذا آثر أن يتبع آثار الثاني فقال : إن الصلة بين النفس والجسم صلة عرضية . وإذن فلا يترتب على فساد أحدهما فناء الآخر . ومع ذلك فقد خالف أفلاطون في عدة أمور . من ذلك أنه لم ير رأيه في تعدد النفوس ، ولم يذهب مذهبه في القول بأن النفس قديمة أى توجد منذ الأزل ؛ بل رأى أنها حادثة مثله ، بمعنى أنها تفيض من واهب الصور حين يستعد الجسم لقبولها . وقد استخدم الرئيس طريقة جدلية في بيان الصلة بين النفس والجسد ، فقال إن الأمر لا يخلو أن يكون أحد أمور ثلاثة : فإما أن يكون كل منهما مكافئاً للآخر في الوجود أى أنهما يكونان جوهرًا واحدًا ، وإما أن تكون النفس هي السابقة ، وإما إن تكون متأخرة في وجودها عن الجسم . ثم برهن على فساد هذه الفروض جميعًا ، كما سنذكر ذلك فيما بعد .

فبقي أن اتصاها به هو اتصال جوهر بجوهر آخر بصفة عرضية .

### ح - الغزالي :

كذلك رأى الغزالي أن النفوس البشرية نفيض على الأجسام عند استعداد هذه الأخيرة لقبولها . وليس هذا الفيض مباشرا ؛ بل يتوقف على أمور كثيرة . فإن استعداد الجسم لقبول النفس الخاصة به رهن بحركات الأفلاك السماوية . وهذه « تستند - كما يقول أبو حامد - إلى اختيارات النفوس الفلسكية ، والكل يستند إلى العقل الإلهي المستعلي على الكل الذي تنشعب عنه المقدورات . فالجود الإلهي بواسطة العقول والنفوس والحركات السماوية يعطى كل مادة استعدادها بصورة خاصة . والنفوس لا تحدث بالاستعداد الخاص ، بل عند الاستعداد الخاص . وفرق بين أن تحصل عنده أو به . »<sup>(١)</sup> فالجسد منزله أو مسكن للروح ، وهي تحمل به لعناية إلهية ، أى لسكى تزود لآخرتها من هذا العالم . وتظل في ذلك الجسد مدة محددة مقررة لا تقبل زيادة ولا نقصا ، ثم ينقضى أجلها . وفي يوم الحساب ترد للسكافأة والمجازاة والمناقشة.<sup>(٢)</sup>

ومما لا ريب فيه أن الغزالي يتبع في هذه المسألة خطوات الفلاسفة المسلمين قبله ، ويأخذ عنهم جميع آرائهم فيها ، دون تصرف ، إلى حد أننا نعجب أحيانا فنقول : ولم كان هذا العناء الذي بذله في بيان تهافت آرائهم ، والحق أنه يرتضى مثلهم نظرية الفيض الدخيلة على الإسلام ، فيطبّقها على مسائل عدة ومنها مسألة النفس : وقد بلغ من تشيحه لهذه النظرية أنه جعل يؤول بعض النصوص الشرعية ، وهي تلك التي تتعارض معها . ومن هذه النصوص قوله صلى الله عليه

(١) كتاب معارج القدس ص ١٠ وما بعدها .

(٢) أنظر رسالة إلى ملكشاه ص ٦٣ .

وسلم : « أنا أول الأنبياء خلقا وآخرهم بعثا » وقوله : « خلق الله الأرواح قبل الأجسام بألّقى عام » . فليست هذه الأحاديث ، كما يذكر الغزالي ، بدالة على قدم الروح ؛ بل على حدوثها . حقا إن الظاهر قد يدل على حدوثها قبل وجود الجسم ، كما ظن ذلك جماعة من الحكماء « ولكن أمر الظواهر هين فإنه تأويلها ممكن . أما تأويل الحديث الأول فهو يسير . فإن المراد به هو أن محمدا صلى الله عليه وسلم صفوة الخليقة وخلاصتها وهو الكمال والغاية والسدرة المنتهى ، ولولاه لما خافت الأفلاك . » وهكذا يستقيم القول بأنه أول من خلق وآخر من بعث . وأما تأويل الحديث الثاني فهو الآتى : ليس المراد بالأرواح هنا أرواح البشر ؛ بل أجسام العالم من العرش والكرسى والسموات والكواكب والهواء والماء والأرض . وكيف يكون هذا الحديث خاصا بنفوس بني الإنسان وهذه ، كما يقول الغزالي ، مقتبسة من نار عظيمة تطبق العالم وهي العقل الفعال ؟ وحينئذ فليست النفس سابقة للبدن في وجودها ، كما ثبت أيضا من قبل أنها ليست ناشئة بسببه . ولكنها تحدث عند استعداد النطفة لقبولها من واهبها كما قال الله تعالى : فإذا سويته ونفخت فيه من روحي .

وقد تبع الغزالي طريقة ابن سينا<sup>(١)</sup> في البرهنة على فساد الرأى القائل بوجود الأرواح قبل أجسادها . وذلك لأننا لو سلمنا بأن الأمر كذلك لوجب التسليم بأحد أمرين : إما أن تكون النفوس الإنسانية كلية أى واحدة ، وإما تكون نفوسا جزئية أى كثيرة . وليس من الممكن أن تكون واحدة ؛ وإلا فن أين يأتى انقسامها فى أفراد البشر . ونحن نعلم أن الأشياء التى تقبل القسمة هى ذوات المقادير أى الأحسام المادية . وقد يقال إنها تظل واحدة بعد اتصالها

بالأبدان ، ولكن هذا محال أيضاً . ذلك أنه ينبغي لنا ، في هذه الحال ، أن نفسر سبب الخلاف بين الأفراد ، ولماذا يدرك بعضهم ولا يدرك بعضهم الآخر ؟ كذلك ليس من الممكن أن تكون النفوس كثيرة وسابقة الأبدان في وجودها ؛ إذ ينبغي لنا في هذه الحال أن نبين السبب الذي أدى إلى اختلاف كل نفس عن الأخرى . وذلك أمر مستحيل ؛ إذ النفوس غير مادية ، والمادة هي السبب في الاختلاف بين الأفراد .

ومما سبق يتبين لنا أن أبا حامد يبني هذا البرهان الجدلي على أساس الاعتراف بالفضيتين الآيتين وهما : أن النفس جوهر روحي ، أى غير مادي ، وأن الكثرة إنما تأتي بسبب المادة . ومن الواضح أنه يجمع هنا بين آراء ابن سينا وآراء أرسطو . فالتصال النفس بالبدن اتصال عرضي . ومع ذلك ، فإنها إذا فاضت عليه عنيت بأمره . ومن ثم يرى أبو حامد أنه لا بد من وجود صلة وثيقة بين تلك النفس الحادثة وبين الجسم الذي تحمل فيه وتتجلى هذه الصلة على هيئة نزوع طبيعي إلى الاشتغال بذلك البدن خاصة ، والاهتمام بأحواله والانبجذاب إليه دون غيره . فلهحدوثها إذن ناحيتان . إحداها من جهة مصدرها ، وهو الجود الإلهي الذي يعد ينبوعاً لكل وجود ، والذي يفيضه على كل كائن يقبل صفة الوجود . ويعبر عن الجود الإلهي بـ « القدرة الإلهية » . فإذا قال المرء بالفيض فإن منبع الوجود يسمى واهب الصور . وأما الناحية الأخرى فمن جهة البدن الذي يقبلها . وفي هذا يقول الفزالي : « وأما صفة القابل فلاستواء والاعتدال الحاصل بالتسوية . ومثال صفة القابل صقلة الحديد . . . فكلمها حصلت الصقالة حدثت فيها الصورة . . . فكذلك إذا حصل الاستواء والاستعداد في النقطة حدثت فيها النفس من واهبها وخالقها من غير تغير في الواهب . » (١)

٤ - آراء ابن رشد

استطاع أبو الوليد التوفيق بين الفيلسوفين الإغريقية والإسلامية في هذه المسألة على أكمل وجه ، فقال : إن النفس وإن كانت صورة للبدن ، فإنها جوهر روى قائم بذاته لا ينقسم بانقسام بالجسم . ولكنه رأى من جهة أخرى أنها لا تفيض من العقل الفعال أو واهب الصور . كما كان يقول فلاسفة الإسلام قبله . وذلك لأن الله وحده هو الذى يخلق جميع الكائنات ، روحية أو مادية ، خلقاً مباشراً ، أى دون حاجة إلى عقول تتوسط بينه وبين مخلوقاته .

وهكذا تتصل النفس بالجسم على الرغم من اختلاف طبيعتها عن طبيعته .  
اختلافاً تاماً . غير أنه لا يمكن تحديد مكانها فيه . وليس معنى أنها تحمل في البدن أن هذا الأخير يصبح متحداً بها اتحاداً جوهرياً . كذلك لا يجوز القول بأنها عرض زائد على الجسم ، وإلا لوجب ألا توجد دونه . وبما لا ريب فيه أن صلتها به على نحو يدق على فهم الإنسان . وهذه الصلة شبيهة إلى حد ما بالصلة بين الله سبحانه والعالم . قاله يدبر العالم ويحركه ، وليس جوهر ماديًا أى ليس جسماً . وقد ارتضى أبو الوليد ما ذهب إليه الغزالي من أن الإنسان يشعر بنفسه ، ولكنه لا يستطيع أن يحدد لها مكاناً في جسمه . هذا إلى أنه يجب علينا أن نفرق بين أمرين : وهما أن النفس متى كانت متصلة بالبدن فإنه يدخل في تعريفها . أما إذا فارقت لم يجوز أن يكون جزءاً من هذا التعريف وفى ذلك يقول ابن رشد :

« إننا ندرك النفس وأشياء كثيرة . وليس ندرك حدها ، ولو كنا ندرك حد النفس

---

مع وجودها لسكنا نعلم ضرورة من وجودها أنها في جسم أو ليست في جسم . لأنها إن كانت في جسم كان الجسم ضرورة مأخوذاً في حدها ، وإن لم تكن في جسم

---

لم يكن الجسم مأخوذاً في حدها . فهذا هو الذى ينبغى أن يعتقد . وأما معاندة  
أبي حامد هذا القول بأن الإنسان يشعر في أسر النفس أمها في جسمه ، وإن كان  
لا يتميز له المصو الذى هي فيه من الجسم فهو امرى حق . وقد اختلف القدماء  
في هذا . ولكن ليس علمنا بأنها في الجسم هو علم بأن لها قواماً بالجسم . فإن  
ذلك ليس بيتنا بنفسه . وهو الأمر الذى اختلف فيه الناس قديماً وحديثاً .  
لأن الجسم إذا كان لها بمنزلة الآلة فلايس لها قوام به . وإن كان بمنزلة محل  
العرض للعرض لم يكن لها وجود إلا بالجسم . « (١)

فالجسم إذن آلة تستخدمها النفس . وهذا يفسر لنا طبيعة اتصالها به ، فليس  
هذا الاتصال عرضياً ، كما كان يقول الرئيس ابن سينا ، بل هو اتصال اقتضته  
العناية الإلهية لأن فيه كالا للنفس وللبدن . وإنما كان كالا للنفس لأن وجودها  
في جسم يهيء لها السبيل إلى إدراك ما يوجد في العالم الحسى من كائنات . أما إذا  
فارقته فإنها لا تدرك إلا ذاتها ، وفي هذه الحال تشبه العقول المارقة أى الملائكة  
شبهاً ما . ذلك أن هذه الأخيرة لا تستخدم الحواس لأنها غير جسمية ؛ وإنما  
تدرك ذاتها وتدرك الأشياء الأخرى عن طريق إدراكها لذواتها . أصف إلى  
ذلك أن النفس الإنسانية تستطيع السمو بالتمسكير والنظر العقلى في أثناء هذه  
الحياة إلى مرتبة تتجرد معها من كل آثار الجسد ، لتدرك ذاتها إدراكاً عقلياً ،  
فتعلم أنها جوهر عقلى مجرد من كل مادة . ولا يتم ذلك إلا بالحدس العقلى الذى  
يتحد فيه العاقل والعقول . وبذا يشبه الإنسان الوجود السكامل . غير أن هذا  
الشبه ليس تاماً من كل وجه . فإن الإنسان إذا أدرك حقيقة جوهره غابت عنه

(١) تهافت التهافت طبعة بيروت س ٥١٧ .

حقائق الأشياء الأخرى ، أى معانيها . وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالله سبحانه  
فإن إدراكه لذاته يتضمن إدراكه لجميع الكائنات ، وذلك لأن علمه هو السبب  
المباشر فى وجودها جميعها .

ويجب القول بأننا لا نجد ما يشبه هذه النظرية لدى أرسطو . وفيما عدا ذلك  
نرى أن هذا الرأى يختلف إلى حد كبير عن آراء فلاسفة المسلمين الذين سبقوا  
ابن رشد فإن هؤلاء لا يتحدثون عن إدراك النفس لذاتها كأسمى مراتب السعادة  
التي تنتهى إليها ، بل يرون أن هناك نوعاً أسمى من الاتصال ، وهو الاندماج  
والفناء فى العقل الفعال . فتعلم النفس عندئذ أنها جوهر من عالم الأمر الذى  
لا لون له ولا شكل ، والذى لا يتمين بإشارة ولا يتردد بين سكون وحركة .  
أما نظرية فيلسوف قرطبة فهى ، على خلاف ذلك ، جديدة كل الجدة ؛ وهى  
أقرب ما يسكون إلى النظرية المثالية الروحية فى الفلسفة الحديثة . فإنه يرى أن  
الشعور [ الأنا ] تنتهى به المعرفة المسكنسبة عن طريق الحواس والتجريد إلى  
مرتبة يدرك فيها أنه كائن مستقل ، وأنه عقل فعال أو نشاط عقلى .

وإنما كانت هى النظرية مثالية [ Idéaliste ] لأنها تتضمن القضاء على  
فكرة الثنائية ، وهى تلك الفكرة التى توجب عايناً أن نفرق تفرقة فاصلة  
بين عنصرين لا يمكن إرجاع أحدهما إلى الآخر بحال ما ونعنى بهما : عالم الفكر  
وعالم المادة ؛ ولأنها تجعل للفكر المقام الأوحد . وبيان ذلك أن الإنسان إذا  
سما به الإدراك علم أنه جوهر واحد هو نفسه ، وينمحي البدن من خاطره فى هذه  
الحال ، كما لو لم يسكن موجوداً بحسب الواقع . وقد استخدم ابن رشد هذه  
الفكرة المثالية فى تفسير كل من الثواب والعقاب فى الحياة الآخرة ، فقال :  
إن الأشرار سوف يلحق بهم العذاب والحسرة ؛ لأنهم مجزوا عن تطهير  
نفوسهم والسمو بها فى أثناء وجودهم فى هذه الحياة الدنيا . وقد كان من الممكن

أن يحققوا هذه الغاية حينما كانت نفوسهم متصلة بأبدانهم . ولسكنهم لم يفعلوا  
فحاق بهم العقاب . وحينئذ فلا بد لنا من القول بأن اتصال النفس بالبدن  
لا يمكن إلا أن يكون لحكمة إلهية ، وهي أن يدرك المرء حقيقة الأشياء ويقف  
على جوهر نفسه . وفي ذلك سعادته ونجاته . وقد وضع أبو الوليد هذا المعنى  
في كتابه مناهج الأدلة فقال : « إذن ظهر أن الإنسان خلق من أجل أفعال  
مقصودة به ، فظهر أيضاً أنه إنما خلق من أجل الفعل الذي يوجد فيه لا في غيره  
أعنى الخاص به . وإذا كان ذلك كذلك فيجب أن تسكون غاية الإنسان  
في أفعاله التي تخصه دون سائر الحيوان ، وهذه هي أفعال النفس الناطقة .  
ولما كانت النفس الناطقة جزئين : جزء عملي وجزء علمي وجب أن يكون  
المطلوب الأول منه هو أن يوجد كماله في هاتين القوتين . » (١)

### ٥ - آراء توماس الأكويني

لم يشأ هذا المفكر أن يسلك مسلك الشارح الأكبر وغيره من فلاسفة  
المسلمين في تفسير الصلة بين النفس والجسد ، ولم تسهوه النظرية الرشدية القائلة  
بأن النفس جوهر مستقل كامل وصورة للبدن في آن واحد ؛ بل آثر أن ينحو  
نحو أرسطو نفسه ، فقال : إن النفس جوهر ناقص ، وليس من الممكن  
تصورها دون البدن . ولم يفرق بين مختلف وظائفها التي تستخدم الأعضاء  
أو التي لا تستخدمها . ومعنى ذلك أنه كان يرى أن النفس العاقلة لا تفترق  
بحال ما عن الوظائف النفسانية الأخرى . وإنما دعاه إلى هذا الرأي أنه كان

(١) كتاب مناهج الأدلة طبعة ميونيخ ص ١٢٠ وصفحة ٢٤٠ طبعة مصر - الأنجلو المصرية .

لا يريد التسوية بين النفس في جماتها وبين أحد أفعالها وهو العقل . فهو يفصل فصلاً حقيقياً بين وظائف النفس ، وليس لنا إلا أن نعجب حقيقة من إلحاحه وإصراره على التفرقة بين النفس الإنسانية وبين النفس العاقلة . ومن ثم نجده يؤكد أننا إذا قلنا إن النفس عقل محض كان معنى ذلك أننا نعرّف السكل بأحد أجزائه .

حقاً لقد ذهب أبو الوليد إلى أن النفس جوهر الإنسان ، وأنها مبدأ لوجوده وسبب في وحدة جسمه واتساقه ، وأنها تسترد استقلالها شيئاً فشيئاً كلما ضعفت الصلة بينها وبينه<sup>(١)</sup> ، وأنها تحتل مرتبة في الوجود تأتي مباشرة بعد مرتبة الملائكة . ولكن «توماس الأكويني» يضرب صفحاً عن هذا الرأي ، فيذكر أن النفس الإنسانية لا تحتل هذه المرتبة التي يتحدث عنها فيلسوف قرطبة ؛ بل الإنسان المؤلف من مادة وصورة ، أي من جسد وروح متكاملين ، هو الذي يلي مرتبة الملائكة . كذلك يرى أننا لو قلنا إن العقل هو جوهر النفس لترتب على هذا أننا نهمل كثيراً من الصفات التي تدخل في مفهوم الإنسان من حس وتخيل وهلم جرا .

ومع ذلك ، فإنه كان يفتن في بعض الأحيان إلى أن نظريته هذه لا تتفق مع القول بوحدة النفس . وحينئذ كان لا يجد مفرأ من نسيانها والرجوع إلى آراء أبي الوليد فيقول مثله : إن النفس العاقلة هي الصورة الجهرية للإنسان ، وإنها تحتوى على جميع الوظائف النفسية الأقل مرتبة منها<sup>(٢)</sup> . وهذا معناه الاعتراف بأنها جوهر الإنسان ، وأنها ذات مستقلة تتصل بالبدن ، وتستخدمه كآلة لمعرفة الأشياء عن طريق الإحساس والتخيل .

De beatitudine animae, Cap. II. fin (١)

Sum . theologica, I, q, 76, art II . الخلاصة اللاهوتية . (٢)

( ١١ ) في النفس والعقل )

وحيثئذ يتبين لنا بوضوح أن لهذا المفكر رأيين متناقضين في هذه المسألة ، وأن ما نجد له لديه هنا من اضطراب وتردد نتيجة لا مفر منها لتردده السابق في كل من تعريف النفس وبيان وحدتها . وإنا لنعجب له كيف لم يفتن إلى هذا التناقض حين يقول من جهة : ليس من الممكن التسوية بين النفس والعقل لأنه أحد أجزائها ، وحين يذكر من جهة أخرى عكس ذلك تماماً فيؤكد « أن النفس العاقلة هي جوهر الإنسان حقيقة ، وهي السبب في وجود كل من الإنسان والجسم والحس والحيوان . »<sup>(١)</sup>

وبقى علينا أن نشير إلى السبب الذي دعاه إلى هذا التردد والاضطراب ، فنقول إنه وجد أن كلا من هذين الرأيين يساعده على حل بعض الصعوبات . فالنظرية القائلة بأن النفس جوهر مستقل تصلح لبيان خلودها ولتأكيد وحدة أجزائها ووطائفها . وأما النظرية القائلة بأنها تتحد مع البدن اتحاداً جوهرياً — وهي نظرية أرسطو — فإنها خير حجة للبرهنة على أن النفس الإنسانية تعجز عن إدراك جوهرها ، وعلى أنها ليست من جنس العقول المفارقة . كما أنها تستخدم في التدليل على أن المعرفة ليست نوعاً من الفيض أو الإشراق على النحو الذي كان يراه فلاسفة الإسلام ، بل تمتد جذورها الأولى إلى الحس ، وتعتمد كل الاعتماد ، بعد ذلك ، على عملية التجريد .

ولكننا نعتقد أنه لم تكن نمة حاجة إلى مثل هذا الاضطراب حتى يستطيع « توماس الأكويني » التحرر من نظرية المعرفة الإشراقية . فإن أبا الوليد استطاع التخلص منها ، دون هذا العناء الكبير أو التناقض الذي نلسه لدى

(١) الخلاصة اللاهوتية الجزء الأول الدوال السادس والسبعين الفصل السادس :

«Una emln et eadem forma est per essentiam homo ens actu et per quam est corpus et per quam est vivum et per quam est animal.»

هذا المفكر المسيحي . ذلك أنه نص على أن العقل الفعال لا يوجد خارج النفس مجال ما ؛ بل هو أجزء مظهريةا . وكان من الممكن أيضاً أن ينحو الأكويني نحو الشارح الأكبر دون حرج فيقول مثله : إن الصلة بين النفس والبدن دليل على العناية الإلهية بالإنسان . ذلك أن مرتبة النفوس الإنسانية في سلم الكائنات الروحية لا تسمح لها أن تدرك ما سواها من الأشياء بمجرد إدراكها لذاتها ، كما هي الحال في أرواح الملائكة ؛ بل لا بد لها من الاستعانة على ذلك بالحواس وما تستتبعه من وجود أعضاء جسمية خاصة . فليس الاتصال بالجسم سبباً في الجهل كما كان يقول أفلاطون ؛ بل هو سبب في المعرفة . وفي الواقع أخذ « توماس الأكويني » هذه الفكرة عن ابن رشد ، ولكنه لم يثبت عليها بصفة دائمة .

وهكذا نجد أنه يقترب من الفيلسوف القرطبي ، ويعضد رأيه بما ذهب إليه فلاسفة الإسلام من القول بتدرج مراتب الوجود ، فيذكر هو الآخر ، أن اتصال النفس بالبدن دليل على كمال هذا السكون واتساقه . فألله سبحانه لما كان المبدأ الأول فإنه يوصف بأنه ذات عاقلة تدرك الأشياء حين تدرك ذاتها . وأما الملائكة فلما كانت ذوات غير جسمية ، ولما كانت أشرف مرتبة من النفوس الإنسانية ، فإنها ليست في حاجة إلى أجسام حتى تدرك غيرها من الأشياء . وأما النفوس الإنسانية فلما كانت أدنى مرتبة في الكمال فإنها لا تستطيع إدراك الحقائق الخارجية إلا إذا اتصلت بأجسام خاصة بها .

ومن البديهي في آخر الأمر أن توماس الأكويني يتفق إلى حد كبير في هذه الحال الأخيرة مع الفيلسوف القرطبي . ويؤكد مثله وجوب الرجوع

إلى نظرية المعرفة كما عرضها أرسطو . ولكن ينبغي لنا ألا نخدع النفس ، فنظن أن هذه هي وجهة نظره النهائية . فإنه لم يسلك هذه السبيل ، ولم يقل باستقلال النفس إلا الحاجة في نفسه ، وهي أن يبرهن على وجودها . ولو كانت آراء أرسطو تسعفه في هذا الصدد لما تردد في الإعراض عن آراء فلاسفة الإسلام . ولكنه حاول الجمع بين نظريتين مختلفتين ، فجاء مذهبه مهوشاً ومضطرباً على هذا النحو الذي يفجأ النظر .

## الفصل السادس

### خلود النفس

#### ١ - تمهيد

كانت مشكلة خلود النفس إحدى المسائل التي حرص فلاسفة الإسلام على التوفيق فيها بين الدين وبين التراث الفكري اليوناني . ومن الثابت أن الفلسفة المشائية - وزيد بها فلسفة أرسطو - كانت تحتل المكان الأول في تفكير فلاسفة القرون الوسطى . وقد تأثر بها المسلمون إلى حد كبير ، ورفعوا صاحبها كما قلنا إلى مراتب التقديس . ومع ذلك ، فإن آراء أرسطو في طبيعة النفس وصلتها بالبدن كانت لا تسمح بحال ما بتقرير بقائها بعد الموت . ويرجع السبب في ذلك إلى أن الصلة بينها وبين الجسد صلة تلازم بحيث لا يمكن تصور أحدهما دون الآخر . ومن ثم فإننا نشهد اختلافاً في الرأي لدى هؤلاء الذين وصفوا أنفسهم أنهم أتباع فلسفة أرسطو . فثلاً نرى أبا نصر الفارابي يذهب إلى فناء نفوس الأفراد وإلى القول بخلود طائفة خاصة منهم ، وأن الرئيس أبا علي الحسين وأبا حامد الغزالي يقولان ببقاء جميع النفوس على حالها من التعدد والكثرة . وأما ابن رشد فقد آثر أن يتبع آثار هذين الفيلسوفين الآخرين ؛ لأنه رأى أن مذهب أرسطو لا يتفق مع عقيدته الدينية . ومع هذا فقد زعم بعض مؤرخي الفلسفة أن أبا الوليد كان من أنصار وجود نفس كلية واحدة وعقل كلي واحد يشترك فيهما جميع أفراد البشر . وسوف نبين فساد هذا الزعم معتمدين على ذلك على نصوص صريحة وجدناها في كتب هذا الفيلسوف . وسنبرهن على أن هذه المهمة التي وجهت إليه وليدة التقليد والتسرع في الحكم .

## ٢ - الظلود لدى الفارابي

ربما كان أبو نصر الفيلسوف المسلم الوحيد الذي عجز عن التحرر تماماً من فلسفة أرسطو في هذه المسألة. فإنه لما كان يقول إن النفوس الإنسانية صور لأجسامنا ، ولما كان يرى أن المادة هي السبب الذي يؤدي إلى اختلاف الأفراد فيما بينهم ، فإنه لم يتردد في الجزم بقاء النفوس الخاصة<sup>(١)</sup>. وكأنه أراد أن يخفف بعض الشيء من شدة الخلاف بين هذا الرأي وبين العقيدة الإسلامية ، فذكر أن هذا البقاء ليس مطلقاً ؛ بل هناك نوع آخر من الظلود. ولكن هذا الظلود الخاص لا يتاح لجميع النفوس على حد سواء. ذلك أنه يجب التفرقة بين ثلاثة أنواع منها: فهناك نفوس أدركت السعادة وأخذت بأسبابها ، وهذه إذا فارت أجسادها اتحدت وسعدت ، وكلما جاءها فوج آخر من جنسها اتخذتها ، وزادت سمادتها إلى مالا نهاية له. فهي أشبه شيء بكتائب جيش كلما فنيت منها كتيبة خلفتها كتيبة أخرى تقوم مقامها. وقد وضح الفارابي هذه الفكرة في كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » فقال : « وإذا مضت طائفة فبطلت أبداً ، وخلصت أنفسها سعدت ، فخلقهم ناس آخرون في مرتبتهم بعدم قاموا مقامهم وفعالوا أفعالهم ، فإذا مضت هذه أيضاً وخلصت صاروا أيضاً في السعادة إلى مراتب أرائك الماضين ، واتصل كل واحد بشيئه في النوع والسكينة والسكيفية . ولأنها كانت ليست بأجسام صار اجتماعها ، ولو بلغ ما بلغ ، غير مضميق بعضها على بعض مكانها ؛ إذ كانت ليست في أمكنة أصلاً . فتلاقيها واتصال بعضها ببعض ليس على النحو الذي توجد عليه الأجسام . وكلما كثرت الأنفس المشابهة المفارقة واتصل بعضها ببعض ، وذلك على جهة اتصال معقول بمقول ، كان التذاذ كل واحدة منها

(١) أنظر كتاب التعليلات طيبة حيدر آباد ص ١٤ .

أزيد شديدا . وكما لحق بهم من بعدهم زاد التذاذ من لحق بمصادفة الآخرين ؛ وزادت لذات الماضين باتصال اللاحقين بهم ؛ لأن كل واحدة تعقل ذاتها ومثل ذاتها مراراً كثيرة ، فنزداد كيفية ما يعقل . ولأن المتلاحقين إلى غير نهاية يكون تزايد قوى كل واحد ولذا أثر على غابر الزمان إلى غير نهاية ، وتلك حال كل طائفة مضت <sup>(١)</sup> .

وهناك نفوس أخرى أدركت السعادة ولكنها لم تحصل أسبابها ، وهي نفوس أهل المدينة الفاسقة . ولذا فإن هذه تشقى ويزداد شقاؤها كلما انضمت إليها طائفة أخرى <sup>(٢)</sup> وإنما كانت هذه النفوس أهلا للشقاء لأنها شغلت بالأمور الحسية والملذات الجسمية فلم تشعر ولم تفطن إلى ما يلحقها من نقص وأذى بسبب تلك الرذائل التي تسكتسبها . بيد أنها إذا غادرت البدن وتمطلت حواسها التي كانت تشغها بتوافه الأمور بدأت تشعر بالأذى . وهكذا تبدو تلك الرذائل سافرة وتظل تلك النفوس الشقية في أذى يزداد كلما انضمت إليها نفوس من جنسها . « ولأن المتلاحقين بلا نهاية تكون زيادة أذاهم في غابر الزمان بلا نهاية . فهذا هو الشقاء المضاد للسعادة <sup>(٣)</sup> » .

وهناك نفوس غير كاملة لأنها تحتاج إلى الجسم وتبقى مثقلة به . فإذا جاء الموت انحلت أجسامها، وفنيت هي . وهؤلاء هم الذين بسميهم أبو نصر الهالكين الصائرين إلى العدم ، على مثال ما تكون عليه البهائم والسماع والأفاعي .

وقد استعان أبو نصر على تقرير هذه النظرية بمبدأ أرسطو ساانف الذكر ، وهو أن المادة هي سبب الاختلاف بين الأفراد . ولكن ينبغي لنا أن نشير أيضاً

---

(١) كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ، الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٩٣٨ ميلادية

س ٩٥ و ٩٦ .

(٢) نفس المصدر س ١٠١ .

إلى هذا الأمر ، وهو أن نظرية النفس الكلية كانت معروفة قبل أبي نصر ، وكانت تقوم على أساس آخر هو نظرية الفيض المأخوذة عن مذهب الأفلاطونية الحديثة ، ويلاحظ أن أبا نصر استخدم النظرية الأخيرة لتدعيم رأيه السابق ، ولذا نراه يسوى بين النفس الكلية والعقل الفعال<sup>(١)</sup> ومعنى هذا أنه يحاول التوفيق هنا بين آراء أرسطو وآراء أفلوطين .

### ٣ — الخلود عند ابن سينا

لما رأى الرئيس ابن سينا أن تعريف النفس لدى أرسطو يفضى لا محالة إلى إنكار خلودها — أو على الأقل إلى القول بوجود نفس كلية — رغب عنه ولجأ إلى أفلاطون ؛ لأنه وجده أكثر قرباً مما تقرره الديانات السماوية في هذا الصدد . ولسنا في حاجة إلى بيان أوجه الخلاف بينه وبين هذا الفيلسوف في كثير من التفاصيل فقد أفضنا القول في ذلك من قبل . ويكفي أن نلاحظ هنا أنه يختلف عنه من جهة تحديد المصدر الذي تهبط منه النفوس . فإن ابن سينا يرى أنها تفيض من آخر العقول العشرة التي تشرف على حركة الأفلاك السماوية .

وكما أن أفلاطون عنى أكبر عناية بالبرهنة على خلود النفس كذلك فعل أبو علي الحسين . ولا يسعنا إلا الاعتراف بقوة أوجه الشبه بينهما إلى حد يمكن القول معه بأن الثاني متأثر بآراء الأول ، وأخذ عنه بعض براهينه . وتقوم براهين ابن سينا على نفس الأساس الذي بنى عليه أفلاطون براهينه من قبل ، ونعني به طبيعة النفس .

(١) نفس المصدر ص ٥٣ .

## أ - البرهان القائم على طبيعة اتصال النفس بالجسم

لما كانت النفس جوهرًا كاملاً ما كان اتصالها بالجسم اتصالاً عرضياً، فإنه من اليسير في هذه الحال أن يبرهن المرء على بقائها بعد هذه الحياة الحاضرة . ففكرة اتصال النفس بالبدن هي إذن الأساس الذي بنى عليه ابن سينا هذا البرهان . فإن هذا الاتصال لا يخلو عنده من أن يكون إحدى حالات ثلاث :

فإما أن تكون النفس مكافئة للبدن في وجوده ، بمعنى أن كل واحد منهما يكتمل الآخر فيكونان معاً جوهرًا واحداً هو الإنسان .

وإما أن تكون متأخرة عنه في الوجود أى ناجمة عن اتساق وظائفه .

وإما أن تكون سابقة له باعتبار الوجود لا باعتبار الزمن ، بمعنى أن وجودها

شروط في وجوده .

ثم برهن الرئيس على فساد هذه الاحتمالات جميعها . لأنه يترتب على الأول منها أن يكون كل من النفس والجسم جوهرًا مستقلاً ، مع أنهما جوهران في حقيقة الأمر <sup>(١)</sup> .

وأما الاحتمال الثاني فمحال أيضاً ؛ لأنه يستتبع القول بأن البدن سبب في وجود النفس . فإن العلل أربع ، <sup>(٢)</sup> ولا تنطبق إحداها على الجسم . وقد قال ابن سينا في ذلك : « ومحال أن يكون علة فاعلية . فإن الجسم بما

(١) الشفاء الجزء الأول الفصل الرابع من المقابلة الخامسة من الفن السادس .

(٢) نشير هنا إلى أن تقسيم العلل على هذا النحو مأخوذ عن الفلسفة المشائية . والعلل لدى أرسطو أربع . مادية وفاعلية وصورية وكبالية أو غائية . ويمكن توضيح الفروق بين هذه العلل بالمثال الآتي : يعد الخشب علة مادية لما يصنع منه ، والتجار علة فاعلية ، وشكل المعدن علة صورية ، والجلوس عليه علة غائية .

هو جسم لا يفعل شيئاً ، وإنما يفعل بقواه . ولو كان يفعل بذاته لا بقواه .  
لكان كل جسم يفعل ذلك الفعل . ثم القوى الجسمانية كلها إما أعراض .  
وإما صور مادية . ومحال أن تفيد الأعراض أو الصور القائمة بالمواد وجود  
ذات قائمة بنفسها لا في مادة ووجود جوهر مطلق . ومحال أيضاً أن يسكون  
علة قابلة . فقد بينا وبرهنا على أن النفس ليست منطبعة في البدن بوجه من  
الوجوه . . . ومحال أن يكون علة صورية للنفس أو كفاية ؛ فإن الأولى  
أن يكون الأمر بالعكس . فإذن ليس تعلق النفس بالبدن تعلق معلول  
بعلة ذاتية . « (١) » .

وأما الاحتمال الثالث فباطل أيضاً لأن وجود البدن لو كان فرعا عن وجود  
النفس لكان ما يلحقه من الفساد والبوار بسبب ما يحيق بها من الفساد .  
ولسكن ذلك غير صحيح ؛ فإننا نعلم أن للجسم أسباباً خاصة تدعو إلى فساده .  
وقد ذكر ابن سينا هذا الاحتمال عندما قال : « وإذا كان كذلك [ أى لو كانت  
النفس متقدمة عن البدن باعتبار الوجود ] فيجب أن يكون السبب المعدم يعرض  
في جوهر النفس فيفسد معه البدن ، وألا يكون ألبتة البدن يفسد بسبب يخصه .  
لسكن فساد البدن يكون بسبب يخصه من تغيير المزاج أو التركيب . فباطل  
أن تكون النفس تتعلق بالبدن تعلق المتقدم بالذات ، ثم يفسد البدن ألبتة  
بسبب في نفسه . فليس إذن بينها هذا التعلق . « (٢) »

وحيث أن يثبت أن النفس لا تتعلق بالبدن على نحو ما ، وأن  
اتصالها به أمر عرضي ، وأن وجودها يرجع في الواقع إلى سبب آخر

(١) النجاة . مطبعة السعادة ص ٣٠٣ .

(٢) النجاة ص ٣٠٦

لا يبطل ولا يحدث وهو واهب الصور . ولذا فإن فساد البدن بالموت . لا يستتبع فسادها . (١) ولا يترتب على حدوثها وقت حدوث الجسد أنه يجب أن تنفى معه حين يدركه الموت .

ويرى ابن سينا أنه لا يجوز القول بأن النفس سابقة للبدن باعتبار الزمن ، لأنه يترتب على هذا أمران فإنه ليست ثمة ما يدعو في هذه الحال إلى تعدد النفوس ؛ إذ هذا التعدد يأتي بسبب اختلاف المواد التي تتركب منها أجسام البشر ، والنفوس ليست مادية . ولأنه لو جاز أن توجد قبله لكان وجودها حينئذ معطلاً إذ لم تتحد بالبدن الذي أعسد لقبولها . وقد قال فيما يمس الأمر الأول : « ونقول إن الأنفس الإنسانية لم تكن قائمة مفارقة للأبدان ثم حصلت في البدن . لأن الأنفس الإنسانية متفقة في النوع والمعنى . فإذا مرض أن لها وجوداً ليس حادثاً مع حدوث الأبدان ؛ بل هو وجود مفرد ، لم يجوز أن تكون النفس في ذلك الوجود متكثرة » (٢) وعبر عن الأمر الثاني بقوله « ولأنه لو كان يجوز أيضاً أن تكون النفس الجزئية تحدث ، ولم يحدث لها آلة بها تستكمل وتفعل ، لكانت معطلة الوجود ولا شيء معطل في الطبيعة . » (٣)

وقد قال الرئيس أبو علي الحسين في نهاية هذا البرهان : « وليس إذا وجب حدوث شيء مع شيء يجب أن يبطل مع بطلانه . إنما يكون ذلك إذا كانت ذات الشيء قائمة بذلك الشيء وفيه . » (٤)

---

(١) ارجع إلى كتاب الأستاذ الدكتور ابراهيم مذكور « في الفلسفة الإسلامية » .  
ص ٢٣٢ حيث يشير إلى تعارض هذا البرهنة السابق على حدوث النفس .  
(٢) الشفاء الجزء الأول ص ٣٥٣ .  
(٣) النجاة ص ٣٠٤ .  
(٤) المصدر السابق نفس الصفحة .

ب — برهان البساطة والتركيب :

أما هذا البرهان فيعتمد أيضاً على التفرقة بين كل من النفس والجسد ، وهو نفس البرهان الذى رأيناه من قبل لدى أفلاطون . وهناك صلة شديدة بينه وبين برهان آخر لهذا الفيلسوف فى خلود النفس ، ونعنى به برهان الحياة والحركة . وقد استخدمه الرئيس ابن سينا لى يدعم به الدليل السابق . فإن النفس لما كانت جوهرأ بسيطاً فليس من الممكن أن تنتمى على أمرين متناقضين ، وهما الوجود والفناء ؛ لأن الوجود صفة ذاتية فى النفس . فلو كان الفناء أيضاً صفة ذاتية أخرى لأصبح البسيط مركباً من صفتين متناقضتين . وأما الجسم فهو مركب من عناصر عدة تقبل الزيادة والنقصان والتجميع والتفرقة . ولذا كان من الطبيعى أن يلحقه الموت عند ما تتحالى أجزاءه . وفى هذه الحال لا يكون فناؤه سبباً فى فناء النفس التى اتصلت به . وقد ذكر ابن سينا هذا البرهان فى كتابه النجاة ، ومن الواضح أنه اعتمد فى تقريره على بيان ماهية جوهر النفس الإنسانية .<sup>(١)</sup>

ج — البرهان المينافيزيوى :

يقوم هذا البرهان كسابقه على أساس من فكرة ابن سينا عن طبيعة النفس فهى لديه — كما رأينا — الجوهر الحقيقى فى الإنسان ، وهى من عالم الأمر ،

(١) نفس المصدر ص ٣٠٨ . « وأما أنها لا تقبل الفساد أصلاً ، فقول : إن سبباً آخر لا يدم النفس البتة . وذلك أن كل شىء من شأنه أن يفسد لسبب ما فية قوة أن يفسد ، وليل الفساد فيه فعل أن يبنى . ومحال أن يكون من جهة واحدة من شىء قوة أن يفسد وفعل أن يبنى . كان كانت فيه قوة أن يدمم ففعال أن يكون فيه فعل أن يبنى . وإذا كان فيه فعل أن يبنى وأن يوجد فليس فيه قوة أن يدمم . فبين إذن أن جوهر النفس ليس فيه قوة أن يفسد . وأما الكائنات التى تفسد فان الفساد منها هو المركب المجمع . »

ولا بد من خلودها لبقاء خالقها . أما البدن فلا محيص له عن البوار ، وليس في ذلك ما يضير النفس في شيء ؛ لأنها هي الأصل والبدن تابع لها ؛ بل هو أضعف . أعراضها . والسبب في ذلك هو أنها تحمل فيه كما يحمل الملك في مدينته أو الربان في سفينته ، فتتصرف فيه وتدبره كآلة تستخدمها في اكتساب المعرفة . ومن المعلوم أنه لا يترتب على استخدام الإنسان لشيء ما أنه إذا فسد هذا الشيء فسد مالكه . فإن العدم الذي يطرأ على ذلك الشيء المملوك لا ينسحب أيضاً إلى المالك . ومما يدل على بدهة هذا الأمر أننا نرى أن حواس المرء وإدراكاته تتمطل في أثناء النوم فيصبح كالميت . وهذا هو شأن الموت لأنه يوقف حركة الجسم نهائياً ، ويعطل حواسه ، ومع ذلك تظل النفس باقية . وقد استشهد ابن سينا أيضاً بالأحلام . فقال إن الإنسان قد يرى في أثناء النوم أموراً مضيية صادقة لا يستطيع إدراكها في أثناء يقظته ، وهذا دليل على استقلال النفس وعلى بقائها .

وقد ذكر الرئيس هذا البرهان في رسالته « معرفة النفس الناطقة وأحوالها » . فقال : « اعلم أن الجوهر الذي هو الإنسان في الحقيقة لا يقنى بعد الموت ولا يبلى . بعد المفارقة عن البدن ؛ بل هو باق لبقاء خالقه تعالى . وذلك لأن جوهره أقوى من جوهر البدن ، لأنه محرك البدن ومدبره ومتصرف فيه . والبدن منفصل عنه تابع له ، فإذا لم يضر مفارقتُه عن الأبدان وجوده . . . ولأن النفس من مقولة الجوهر ومقارنته مع البدن من مقولة المضاف ، والإضافة أضعف الأعراض لأنه لا يتم وجودها بموضوعها ؛ بل يحتاج إلى شيء آخر ، وهو المضاف إليه ، فكيف يبطل الجوهر القائم بنفسه ببطلان أضعف الأعراض المحتاج إليه ؟ ومثله أن من يكون ماسكاً لشيء متصرف فيه فإذا بطل ذلك الشيء لم يبطل المالك ببطلانه . ولذا فإن الإنسان إذا نام بطلت عنه الحواس والإدراكات ، وصار

ملقى كالميت . فالبدن النائم شبيه بحال الموتى ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النوم أخو الموت » . ثم إن الإنسان في نومه يرى الأشياء ويسمعها ؛ بل يدرك الغيب في المنامات الصادقة ، بحيث لا يتيسر له في اليقظة . فهذا برهان قاطع على أن جوهر النفس غير محتاج إلى هذا البدن ؛ بل هو يضمف بمقارنة البدن ، ويتقوى بتعطله . فإذا مات البدن ، وخرّب ، تخلص جوهر النفس عن جنس البدن <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

### شبهة النفس السكّانية :

وتصدق هذه البراهين السابقة بالنسبة إلى جميع النفوس . فليس الخلود للنوع في جملة أو لطائفة من الناس دون أخرى ، كما كان يقول أبو نصر . وقد عرض ابن سينا لذكر الشبهة التي دعت إلى القول بوجود النفس السكّانية . ثم فندها فقال إنه يجوز للمرء أن يمترض فيقول : إنه لا بد من التسليم بأحد أمرين : فإما أن تغنى النفوس بعد مفارقتها لأبدانها ، وإما أن تتحد وتكون نفساً مشتركة بين جميع الأفراد ؛ إذ ليس من الممكن التسليم ببقاء نفس كل فرد على حالها إذا كانت المواد هي السبب في الاختلاف بين الأشخاص . ولكن يمكن الرد على هذه الحجة بأن اتصال النفس ببدن ما يخصها ، فلا تستطيع الاندماج في نفس أخرى . وقد عبر الرئيس عن ذلك بقوله : « أما بعد مفارقة الأنفس للأبدان فإن الأنفس قد وجد كل واحد منها ذاتاً منفردة باختلاف موادها أو باختلاف أزمان حدوثها واختلاف هيئاتها التي لها بحسب أبدانها المختلفة . . ونحن نعلم أن النفس ليست واحدة في الأبدان كلها . ولو كانت واحدة وكثيرة

(١) س ١ ، ١٠ من هذه الرسالة .

بالإضافة لسكانت عالمة فيها كلها أو جاهلة ، ولما خفي على نفس زيد ما في نفس عمرو . فإذاً ليست النفس واحدة ، فهي كثيرة بالعدد ونوعها واحد ، وهي حادثة كما بينا . فلا شك أنها بأمرٍ ما تشخصت ، وأن ذلك الأمر في الأنفس الإنسانية ليس هو الانطباع في المادة ، فقد علم بطلان ذلك ؛ بل ذلك الأمر هيئة من الهيئات وقوة من القوى وعرض من الأعراض الروحانية .<sup>(١)</sup>

وعما يدل على أن النفوس تتخصص بأجسامها أن بعضها يحزن ويهلع لفراق بدنه ؛ في حين يسعد بعضها إذا دنت ساعة الرحيل . وقد رأينا كيف عبر هذا الفيلسوف عن المعنى الأول بقوله في قصيدته المشهورة :

هبطت على كره إيلك وربما كرهت فراقك ، وهي ذات تنجع  
وعبر عن المعنى الثاني بقوله :

حتى إذا قرب المسير إلى الحى ودنا الرحيل إلى القضاء الأوسع  
سجعت ، وقد كشفت الغطاء ، فأبصرت ما ليس يبصر بالعيون المجمع

وحيث إن النقد الذي وجهه أبو حامد الغزالي إلى فلاسفة الإسلام بصدد النفس الكلية لا ينال ابن سينا في شيء ؛ بل سنرى بعد قليل كيف استعار أبو حامد من ابن سينا حججه في الرد على أنصار النفس الكلية . لأن هذا الفيلسوف الأخير يقسم النفوس إلى ثلاث طبقات متفاوتة تبعاً لاختلاف مرتبتها من حيث الكمال . فهناك طائفة منها بلغت أقصى درجات الكمال في الفضيلة والمعرفة ، وهذه هي طائفة السابقين الذين يدركون الدرجة القصوى في جنات النعيم ، فيلحقون بعالم العقل ، ويتنزهون عن مقارنة أدران الحياة الجسمية ، وهم الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » .

(١) النقاء الجزء الأول ص ٣٥٣ .

وهناك طائفة ثمانية لم تدرك ما وصلت إليه طبقة الكاملين في العلم والعمل . وهذه هي طبقة المتوسطين الذين يصفهم الله عز وجل بأنهم أصحاب الميمنة . وهؤلاء لا يصلون دفعة واحدة إلى مرتبة السابقين ؛ بل لابد من انقضاء دهور طويلة للفوز بالوصول إلى الدرجة العليا لينغمسوا ، كما يقول ابن سينا ، في اللذات الحقيقية . وإنما حجبوا عن هذه الدرجة حتى تتطهر نفوسهم من أعمالهم السيئة التي كسبوها في حياتهم الدنيا ، وحتى يكتسبوا تلك الهيئة الدورانية شيئاً فشيئاً ، فيدركوا عالم القدس والطهارة في نهاية الأمر : « ويشاهدون النعم الذي خلقه الله تعالى في السموات من الحور العين وألوان الأطعمة اللذيذة وألحان الطيور التي تقصر أوصاف الواصفين عن ذكرها وشرحها ، كما قال عليه السلام عن ربه : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . »

وأما الطبقة الثالثة فهي أحط الطبقات مرتبة ، وهي التي تسمى بأصحاب المشأمة : « وهم النازلون في المرتبة السفلى المنغمسون في بحور الظلمات الطبيعية المنتكسون في قعر الأجرام المنصرية المنتحسون في دار البوار ، وهم الذين « دعوا هنالك ثبوراً . لا تدعو اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً » .<sup>(١)</sup>

#### ٤ — الخلود عند الغزالي

رأينا كيف اقتفى أبو حامد آثار الرئيس ابن سينا في تحديده لطبيعة النفس والبرهنة على وجودها وبيان الصلة بينها وبين الجسم ، وبقى أن نذكر كيف اعتمد على آرائه كل الاعتماد حينما أراد البرهنة على خلود النفس ، وسنرى كيف

(١) أظن رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها من ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ وانظر هذه الفكرة بالتفصيل في كتاب النجاة من ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

كان هذا المفكر لا يجد حرجاً كبيراً في نقل كثير من نصوص الشفاء والنجاة دون تحريف أو تحوير كبير . وللمرء أن يتساءل بعد ذلك ألم يكن جديراً به أن يفرد لابن سينا مكاناً ملحوظاً ومقاماً مرموقاً ، فلا يسوى بينه وبين غيره من الفلاسفة الذين سفه آراءهم في كتابه تهافت الفلاسفة ؟

ويمكننا التمييز لدى الغزالي بين نوعين من الأدلة على خلود النفس . فهناك برهان شرعي وبرهان أخرى عقائدية :

#### ١ - البرهان الشرعي :

ينحصر هذا الدليل لديه في الاستشهاد على بقاء النفس ببعض ما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي تدل على أن فناء الجسم لا يستتبع موت النفس أيضاً . وبعض الأحاديث النبوية وبما جرت به عقائد المسلمين من الدعاء للموتى وإجراء الصدقة من أجلهم . وقد قال الغزالي يعرض هذا البرهان : « أما المنقول فقوله تعالى ( ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ؛ بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله . . ) وكذلك قوله تعالى : ( ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في رياض الجنة ) . وقد ترسخ في جميع عقائد أهل الإسلام هذا . فإن رسول المغفرة والرحمة لمن يكون باقياً لا لمن يكون فانياً . وكذلك إهداء الصدقة ، فاعتقادهم أنها تصل إليه ، وكذلك المناسبات فشكل ذلك دليل على أنها باقية . »

#### ب - البراهين العقلية :

وهي نفس براهين ابن سينا ، وتقوم جميعها على أساس طبيعة النفس وعلى نوع صلتها بالبدن .

### ١ - البرهان القائم على فكرة اتصال النفس بالبره :

وقد عرضه أبو حامد عرضاً يذكرنا بما فعل الرئيس ابن سبنا من قبل . فإن الاتصال بين هذين الجوهرين ليس اتصالاً ذاتياً ؛ بل هو اتصال عرضي . ويمكن البرهنة على ذلك ببيان بطلان الاحتمالات الآتية وهي أن : يكون اتصال النفس بالبدن اتصال المكافئ في الوجود أو المتأخر في الوجود أو السابق له باعتبار الذات . فإذا تقرر ذلك ثبت أن البدن إذا تعطل وفسد فلا يتبع ذلك أن تعطل النفس وتفسد بدورها . أما فساد الاحتمال الأول فذلك لأن النفس لن تكون جوهراً مستقلاً ، مع اعترافنا بأن الإنسان مكون من جوهرين ، لا من جوهر واحد . وكذلك لا يمكن قبول الاحتمال الثاني ؛ إذ يترتب على ذلك أن يكون البدن علة في وجود النفس ، ونحن نعلم أنه لا يمكن أن يكون إحدى العلل الأربعة . أما الاحتمال الثالث فباطل أيضاً ؛ إذ لو كان وجود البدن متوقفاً على وجود النفس لكان يفسد بفسادها ؛ لكننا نعلم أن للبدن أسباباً خاصة تدعو إلى انهياره . كذلك برهن الغزالي على فساد الفرض القائل بسبق النفس للبدن في الوجود باعتبار الزمان . لأن سبقها له في الزمان يقضي بنا إلى هذه الصعوبة وهي ، كيف تكون النفوس كثيرة مع أنها غير مادية . ونحن نعلم أن المادة هي سبب الكثرة ؛ ولو كانت موجودة قبل أجسامها لكان وجودها معطلاً ؛ لأنها لا تستخدم الآلة التي خلقت من أجلها . فالنفس تحدث إذن في الوقت الذي يحدث فيه البدن . ثم انتهى أبو حامد من بيان فساد جميع هذه الاحتمالات سالفة الذكر إلى تقرير نفس النتيجة التي سبقه إليها ابن سينا : وهي أن النفس لا تتعلق بالبدن ولا ترتبط به ؛ بل ترتبط في وجودها بسبب خارجي وهو الجود أو الفيض الإلهي الذي ينتهي إلى جسم الإنسان عن طريق العقول المغارقة .

وحينئذ ، فإذا كان الأمر كذلك فإن فساد البدن ليس دليلاً على فساد النفس أيضاً ؛ بل إن هذه تبقى خالدة ؛ إذ ليس هناك ما يوجب مطلقاً أنه إذا حدث شيء مع حدوث شيء آخر أن يبطل ببطلانه أو يفنى بفنائه .

### ب - برهانه البساطة والتركيب :

وكما أن ابن سينا عضد برهانه الأول ببرهان ثان ؛ كذلك فعل أبو حامد - وما كان له إلا أن يفعل بعد كل ما أخذ عنه - فهو يفرق مثله بين النفس والجسم باعتبار البساطة والتركيب . فإذا كانت النفس جوهرًا بسيطًا من شأنه أن يوجد ويحدث ، فليس من المعقول أن يكون قابلاً للفساد ، وإلا لاجتمع فيها أمران متناقضان وهما الوجود والفناء . فالنفس تبقى بعد الموت ، ولا يضرها في شيء أن تتصل بالجسد الذي يقبل الزيادة والنقصان وينتهي أمره إلى الفناء . وقد استخدم الغزالي في هذا البرهان نفس عبارات ابن سينا دون تصرف .

كذلك تبعه في تقرير خلود النفوس الجزئية ، على الرغم من تشهيره بفلسفة الإسلام قبله وزعمه أنهم عجزوا عن إثبات هذا الخلود . وقد عرض الغزالي لتقرير شبهة النفس السكبية وفندها بنفس الطريقة التي سبقه إليها ابن سينا . فقد تساءل ، هو الآخر ، فقال : كيف تبقى الأرواح متعددة بعد فناء أجسادها مع أنها لا تختلف بالنوع ؛ بل تتفق بالحد والحقيقة ؟ ، ثم أجاب عن هذا الاعتراض بأن اتصالها بالأبدان يكسبها وجوداً خاصاً تحتفظ به بعد الموت . وقد قال في ذلك : « فإن قيل فكيف تكون الأرواح بعد مفارقة الأجسام ولا تعلق لها بالأجسام ؟ فكيف تكثرت وتغايرت ؟ فالجواب أن تقول لأنها اكتسبت بعد التعلق بالأبدان أوصافاً مختلفة من العلم والجهل ، والصفاء والكدورة ، وحسن الأخلاق وقبحها ، فبقيت بسببها متغايرة ، فعلمت كثرتها

بخلاف ما قبل الأجسام ؛ فإنه لا سبب لتغايرها . «  
ويمكننا القول في نهاية الأمر إنه كان من الممكن إغفال مسألة خلود النفس .  
لدى الغزالي . لكننا آثرنا ذكرها ، على ما فيه من تكرار لنفس الفكرة ،  
حتى نبين أن هذا الفيلسوف كان مقلداً إلى حد كبير ، وأن جهده الذي بذله  
في دحض آراء الفلاسفة في كتابه تهافت الفلاسفة لم يكن لإظهار الحق ، كما يعترف  
هو بذلك ، وكما يأخذ عليه ابن رشد هذا المسلك .

#### ٥ — الخلود لدى ابن رشد

كان من الطبيعي أن تؤدي آراء الفيلسوف القرطبي ، في تعريف النفس  
وبيان حقيقتها وطبيعة الصلة التي تربطها بالبدن ، إلى تقرير خلودها ، وإلى إثبات  
أن النفوس الجزئية تعود وتبعث في الحياة الأخرى . وعلى الرغم من أن هنالك  
كثيراً من النصوص الصريحة الواضحة التي تؤيد وجهة نظرنا هذه فإن ابن رشد  
بدا مسيحي القرون الوسطى والمستشرقين ؛ ولكن كثير من أتباعهم ، إماما للزائغين  
ومنكرى خلود نفوس الأفراد ، وغير ذلك من الترهات والأباطيل .

وقد ذهب أحد مستشرق القرن الماضي ، ونعني به « مونك - Munk »<sup>(١)</sup> ،  
في كتابه ، الذي يعد خليطاً من الفلسفتين ، اليهودية والإسلامية ، إلى رأي غريب  
بناء على تحليل سريع فيجّ لمسألة الاتصال بين العقل الهولاني والعقل الفعال  
في فلسفة أبي الوليد ، وهي المسألة التي أفرد لها هذا الأخير كتاباً خاصاً أشرنا  
إليه من قبل . وأكثر من ذلك ، فقد اعتمد « مونك » في رأيه هذا على أحد  
نصوص كتاب تهافت التهافت ، فزعم أن ابن رشد ذكر في هذا الكتاب  
أن الحديث في الخلود حديث خرافة . وقد بحثت عن هذه العبارة في النص العربي ،

(١) Mélanges de philosophie juive et arabe, p 455.

«نقلهم أوفق إلى العثور عليها . ولعل « مونك » وجدها في إحدى التراجم اللاتينية . ولو سلمنا جسداً بأنه وقف عليها هنالك حقيقة فليس ذلك بدليل قاطع . فإننا نعلم مدى ما لقيته كتب المسلمين من تحريف في أثناء نقلها إلى اللغة اللاتينية .

ونميل إلى اعتقاد أن هذا المستشرق قد أساء فهم النص ، ولم يستطع التفرقة بين ما لابن رشد وما لغيره .<sup>(١)</sup> فإنه كان من عادة فيلسوف قرطبة أن يعرض حجة خصومه أحسن عرض وأن يؤيدها بكل الحجج الممكنة ، حتى ليخيل إلى المرء أنه صاحبها . فإذا فرغ من عرضها بأمانة شرع يناقشها وينقدها . ثم يدلي برأيه آخر الأمر . وقد سبق أن أشرنا إلى مسلكه حيال مشكلة النفس السكالية وإلى اختياره لمذهب ابن سينا ، وعلى الرغم من ذلك فقد عد « مونك » مستهتراً ومرائياً ، ووصفه بأنه ينكر خلود النفس ويتقرب إلى العامة عند ما يلجأ إلى ابن سينا والغزالي يستشهد بأرائهما . ولكن ليس لهذا الزعم قيمة علمية ما لأنه وليد دراسة ناقصة . فإن « مونك » لم يقرأ سوى كتاب « تهافت التهافت » المترجم ، ولم يطالع على كل من كتابي « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » ، و « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزينة والعقائد المضللة » . وقد أفرد ابن رشد في الكتاب الأخير منهما فصلاً هاماً للبرهنة على خلود النفس ، ومن المحقق أنه لم يؤلف هذا الكتاب أيضاً من أجل العامة بل من أجل الخاصة ومما يشهد بذلك

---

(١) والدليل على ذلك أنه يقول إن ابن رشد ينص على فناء العقل الهولاني ، وعلى أنه مجرد استعداد يوت مع صاحبه ، وأن العقل الفعال وحده هو الخالد . وليس ذلك بصحيح . فقد أوردنا بعض النصوص من كتابه تافيس النفس التي تثبت عكس ما يدعيه مونك . وسنورد نصوصاً أخرى عن رسالة الاتصال بين العقل الهولاني والعقل الفعال وهي الرسالة التي أساء « مونك » فهمها أيضاً .

أنه لا يتقرب إلى العامة فيه ؛ بل يهاجم أصحاب المذاهب الكلامية وخصوصاً الأشعرية ، ومنزلتهم من قلوب العامة كبيرة<sup>(١)</sup> .

ولم يكن « مونك » المؤرخ الوحيد الذي لم يفهم رأى ابن رشد في هذه المسألة ولم ينصفه . ذلك أن « رينان Renan » فعل مثل ما فعل ، ونسب إليه مثل ما نسب . فقد قال « رينان »<sup>(٢)</sup> : إن فيلسوف قرطبة يميل إلى إنكار خلود النفس ، وإن بدا يعضد الآراء الدينية في كتابه « تهافت التهافت » . كذلك وصفه بأنه من هؤلاء الذين لا يحفلون بأسر الديانات المختلفة ، ولا يولونها اهتماماً ما . ولكن « رينان » كان يجمل آراء هذا الفيلسوف التي ذكرها في كتاب « مناهج الأدلة » . ويمكن القول مع أسين بالاسيوس — Asin Palacios بأنه كان ضحية نوع من الإيجاء الذاتي ؛ لأنه كان ينسب إلى ابن رشد آراء مفكر حر من أبناء القرن التاسع عشر ، ويريد بذلك أن رينان كان يتخيل أن أبا الوليد يرى مثل رأيه في الديانات . ولذا فإنه ينسب إليه آراءه الشخصية .

وقد عضد « رينان » وجهة نظره الخاصة الفائلة بأن ابن رشد كان ينسك بقاء النفوس الجزئية بنص يقول إنه وجدته في « كتاب النفس » . ولكننا لم نجد أثراً لهذا النص في تلخيص كتاب النفس الذي عثرنا عليه في مكتبته باريس الأهلية<sup>(٣)</sup> . ونعتقد أن هذين المستشرقين تأثرا بالأسطورة التي حاكها مسيحيو غرب أوروبا في القرون الوسطى حول اسم الفيلسوف القرطبي . وقد بدت هذه

(١) انظر مقدمتنا للكتاب « مناهج الأدلة في عقائد الملة » ضمن سلسلة في الفلسفة الإخلاقية . نشرته مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٠٠ .

(٢) Averroès et l'Averroïsme, 9 éditi, pp. 153 — 156.

(٣) Mss 1009 Bibliothèque nationale.

الأسطورة لها ، وانخيرها ، حقيقة لا تقبل النقض أو الجدل . وربما كان لهؤلاء  
بعض العذر ، فإن الفوضى العقلية التي شهدها الغرب في القرن الحادى عشر  
والقرنين التاليين له — تلك الفوضى التي صحبت نقل الفلسفة الإسلامية إلى أهل  
أوربا — كانت نقطة البدء والسبب الرئيسى فى تشويه آراء هذا الفيلسوف ؛  
هذا إلى جانب كثير من التويه أو سوء القصد : إما من جانب خصومه وإما من  
جانب أشيائه الأدياء .

ولقد بينا فى موضع آخر مدى شناعة هذه الأسطورة<sup>(١)</sup> . وبكفيينا أن نشير  
هنا إلى أن أبا الويلد قال فى نهاية مناقشته لآراء الغزالى : إنه يدين بخلود النفوس  
الجزئية بعد مفارقة الأبدان . أما ما نسب إليه من أنه يقول باشتراك الناس  
فى عقل واحد فردود ؛ لأنه يطلق اسم العقل هنا على المعانى السكلية التى يجردها  
مختلف أفراد البشر من الأمثلة الجزئية أو الحالات الخاصة . ولاشك فى أن عملية  
التجريد هذه واحدة لدى جميع الناس ، أى أنها تخضع لقوانين ثابتة وتمر بمراحل  
نفسية خاصة . وليس اتحادهم فى تصور المعانى السكلية دليلا على وجود نفس كلية  
أو عقل كلى بالمعنى الذى ينسب إليه . كذلك رأى هذا الفيلسوف أن بعض  
الفلاسفة استنبطوا من اتحاد هذه المعانى السكلية لدى جميع الأشخاص أن هناك  
عقلا كليا أو نفسا كلية . فاحتج الغزالى بذلك ، ورمى فلاسفة الإسلام بأنهم  
ينكرون خلود النفوس الجزئية . واسكن ليست تلك بحجة فى الواقع . وقد تلخص  
ابن رشد موقف الغزالى من الفلاسفة بقوله : « معنى ما حكاها عن الفلاسفة من  
هذا الدليل هو أن العقل يدرك من الأشخاص المتفقة فى النوع معنى واحدا تشترك  
فيه ، وهو ماهية ذلك النوع من غير أن ينقسم ذلك المعنى بما تنقسم به الأشخاص

(١) فى رسالتنا للدكتوراه من السربون .

من حيث هي أشخاص : من المسكان والوضع والمواد التي من قبها نكثرت .  
فيجب أن يكون هذا المعنى غير كائن ولا فاسد ولا ذاهب بذهاب شخص  
من الأشخاص التي يوجد فيها هذا المعنى . ولذلك كانت المعلوم أزية وغير كائنة  
ولا فاسدة إلا بالعرض ، أى من قبل اتصالها بزيد وعمرو ، أى أنها فاسدة من قبل  
الاتصال ، لا أنها فاسدة في نفسها . . قالوا وإذا تقرر ذلك في أمر العقل وكان  
في النفس وجب أن تكون النفس غير منقسمة بانقسام الأشخاص ، وأن تكون  
معنى واحداً في زيد وعمرو . « ثم يقول أبو الوائيد إن هذا الدليل ، وإن بدا قوياً  
فيما يتعلق بالعقل لأنه ليس فيه من معنى الشخصية شيء ، فإنه لا ينطبق على النفس ،  
فإن المشاهير من الحكماء يقولون بأن النفس لا تخرج عن طبيعة الشخص . وهنا  
يعتمد على آراء ابن سينا . لكن إذا كانت النفس لديه عقلاً في جوهرها تبين لنا  
بوضوح أنه ينص صراحة على عدم وجود عقل كلّي مشترك بين أفراد الجنس  
البشرى ، وإن اتحدوا في طريقة وصولهم إلى إدراك بعض المعاني السككية التي  
لا تقى أو تفسد بفساد الأفراد أو الأشياء التي تتحقق فيها .

وما كان للغزالي أن يهاجم فلاسفة الإسلام ، وابن سينا بصفة خاصة ، لأنهم  
أبعد الناس عن آراء أرسطو حين يقولون بأن النفس جوهر مستقل . . ويجب  
أبو الوائيد لموقف أبي حامد من الرئيس ابن سينا في مسألة النفس السككية . فإن  
هذا الأخير ينص دون تردد على بقاء النفوس الجزئية لما يؤدي إليه القول بالنفس  
السككية من محالات . . وحينئذ فلا معنى لاعتراض أبي حامد ولا لاحتجاجه  
بتعريف النفس لدى أرسطو . « فإن للفلاسفة أن يقولوا إنه . لا يلزم إذا كان  
شيثان بينهما نسبة علاقة ومحبة مثل النسبة التي بين العاشق والمعشوق ، ومثل النسبة  
بين الحديد وحجر المغناطيس أن يكون إذا فسد أحدهما فسد الآخر . »<sup>(١)</sup>

(١) تهافت التهافت 3 X[X' طبعة بيروت .

وقد فطن ابن رشد إلى تعارض القول ببقاء النفوس الجزئية مع أحد مبادئ أرسطو، وهو المبدأ الذى يقضى بأن المادة هى السبب فى كثرة الأشياء واختلافها؛ فى حين أن الصورة هى الماهية المشتركة بين أفراد النوع . وقال : إنه يمكن التحايل على هذا المبدأ إذا قلنا : « إن النفس مادة لطيفة ، وإنها تعود إلى مادتها الروحانية وأجسامها اللطيفة التى لا تحس إذا فارقت أبدانها . »<sup>(١)</sup> غير أن هذا ليس برأيه الحقيقى ؛ إذ كان يرى أن النفوس جواهر روحية مجردة من كل مادة ومستقلة فى كيانها عن البدن .

ومما يجب ذكره أن آراءه الخاصة بخلود النفس صريحة لا تقبل الطعن ، ولا تنهار أمام النقد ؛ لأنه يعترف ، دون تردد ، بوجاهة رأى الفزالى فيقول : « وما يقوله هذا الرجل جيد . . . ولا بد فى معاندتهم أن توضع النفس غير فانية كما دلت عليه الدلائل العقلية والشرعية ، وأن يوضع أن التى تعود هى أمثال هذه الأجسام التى كانت فى هذه الدار لا هى بعينها ؛ لأن الممدوم لا يعود بالشخص . »<sup>(٢)</sup> كذلك يذكر أبو الوليد أن ما كتبه فى كتابه « تهافت التهافت » عن هذه المسألة ليس سوى عرض نظرى بحث لآراء الفلاسفة . أما رأيه الحقيقى فإننا نجده منفصلاً كل التفصيل فى كتابه « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » . وقد استعان بدليلين عقليين على إثبات هذا الخلود :

### ١ - الربيل الغالى :

يقرر فيلسوف قرطبة أن الإنسان لم يخلق عبثاً ؛ وإنما خلق لغاية محددة ،

(١) نفس المصدر XXI,7 .

(٢) فى آخر تهافت التهافت .

وهي أن يدرك الكمال في العلم والفضيلة . وليس إدراك ذلك أسراً ممكناً في هذه الحياة الدنيا ؛ لأنها حياة عابرة . وحينئذ فلا بد من التسليم ، عقلاً ، بوجود حياة أخرى تعود فيها النفوس لتلقى جزاءها . وقد قال في عرض هذا الدليل<sup>(١)</sup> : « ... إنه قد اتفق الكل على أن للانسان سعادتين أخروية ودينوية . وانبنى ذلك عند الجميع على أصول معترف بها عند الكل منها أن الإنسان أشرف من كثير من الموجودات . ومنها أنه إذا كان كل موجود يظهر من أمره أنه لم يخلق عبثاً ، وأنه إنما خلق لفعل مطلوب منه ، وهو ثمرة وجوده ، فالإنسان أحرى بذلك . وقد نبه الله تعالى على وجود هذا المعنى في جميع الموجودات في كتابه العزيز ، فقال تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا . فويل للذين كفروا من النار . » وقال مثنياً على العلماء المعترفين بالغاية المطاوعة من هذا الوجود : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقتنا عذاب النار » . ووجود الغاية في الإنسان أظهر منها في جميع الموجودات . وقد نبه الله سبحانه عليها في غير ما آية من كتابه : « أخلصتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » وقال : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى » وقال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . . . وقال منها على ظهور العبادة من قبل المعرفة بالخالق : « وما لي لأعبد الذي فطرني وإليه ترجعون . »

وإذا ثبت ، حسب العقل والشرع معاً ، أن الإنسان خلق للقيام بأفعال

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة . طبعة ميونخ سنة ١٨٥٩ م ، ص ١١٨ ، ١١٩ .  
مطبعة مصر . مكتبة الأنجلو المصرية ص ٢٣٩ .

خاصة به دون سواه من الحيوان علمنا أنه خلق من أجيل كمال النفس الناطقة  
وهي التي تميزه عن غيره . وأفعال النفس الناطقة لديه نوعان : أحدها على  
أى أخلاق ، والآخر نظرى أى خاص بالمعرفة . ولذا « وجب أن يكون المطلوب  
الأول منه أن يوجد كماله فى هاتين القوتين ، أعنى الفضائل العملية والفضائل  
النظرية وأن تكون الأفعال التي تكسب النفس هاتين الفضيلتين هي الخيرات  
والحسنيات ، والتي تعوقها هي الشرور والسيئات » <sup>(١)</sup> ومن ثم فإذا أدرك  
الموت الإنسان فإن كانت نفسه زكية طاهرة تضاعف زكاؤها وطهرها ؛  
لأنها استطاعت التحرر من شهوات الجسم . أما إن كانت خبيثة فإن مفارقتها  
للبدن تزيدها خبثاً على خبث ؛ لأنها تتأذى بالذائل التي اكتسبت  
وتشتد حسرتها على ما فاتها من التزكية عند مفارقتها البدن . لأنها ليس  
يمكنها الاكتساب إلا مع هذا البدن . وإلى هذا المقام الإشارة بقوله :  
« أن تقول نفس يا حسرتنا على ما فرطت فى جنب الله . وإن كنت لمن  
الساخرين . » <sup>(٢)</sup>

ومن الواضح أن هناك وجه شبه قوياً بين هذا البرهان وبين ما ذكره  
أفلاطون بصدد البرهان الخلقى . ولكن ليس لنا إلا نعجب ببراعة أبى الوليد  
فى التوفيق بين الحجج العقلية التي ذكرها وبين النصوص الدينية التي استقها  
من القرآن الكريم . وهو يفوق فى ذلك من سبقه من فلاسفة الإسلام الذين  
عنوا بالناحية المنطقية أو القسمة العقلية لإثبات خلود النفس . كما سبق أن رأينا  
ذلك لدى الغزالي وابن سينا .

---

(١) نفس المصدر ص ١١٩ . وطبعة مكتبة الأنجلو المصرية ص ٢٤٠ .  
(٢) نفس المصدر ص ١٢٠ . وطبعة مكتبة الأنجلو المصرية ص ٢٤١ .

## ٢ - الربيل القائم على طبيعة الصدر بين النفس والجسم :

يتلخص هذا الدليل في أن النفس لما كانت جوهرًا مستقلًا عن البدن فإن فساد هذا الأخير ليس معناه أنها تفتى معه . ولم يلجأ ابن رشد هنا إلى تفصيل جميع الاحتمالات الممكنة للصلة بين النفس والبدن : أم سابقة له أم لاحقة أم تحدث معه ؟ فإنه قرر من قبل أن النفس تحدث مع البدن ولا تفيض من واهب الصور ؛ بل يخلقها الله خلقًا مباشرًا . وليس الجسم سوى آلة تستخدمها النفس . ويمكن تشبيه الموت بالنوم . فإن الوظائف النفسية تتعطل وقت النوم ، ثم تعود إلى حالها حين اليقظة . وكذلك الأمر إذا جاء الموت فإن هناك عودة للنفس بعده . وليس تعطل وظائفها إلى ما لا نهاية له . ويرى أبو الوليد أن هذا الدليل يتفق مع ما جاء به الدين . ولندعه يتكلم ؛ فطالما نسبت إليه الأباطيل ، وطالما رعى بالخروج على العقائد الإسلامية : « فإن قيل فهل في الشرع دليل على بقاء النفس أو تنبيهه على ذلك قلنا : ذلك موجود في الكتاب العزيز ، وهو قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها الآية » . ووجه الدليل في هذه الآية أنه سوى فيها بين النوم والموت في تعطيل فعل النفس . فلو كان تعطيل فعل النفس لفساد النفس لا بتغير آلة النفس ، لقد كان يجب أن يكون تعطل فعلها في النوم لفساد ذاتها . ولو كان ذلك كذلك لما عادت عند الانتباه على هيئتها . فلما كانت تعود عليها علمنا أن هذا التعطل لا يعرض لأمر لحقها في جوهرها ، وإنما هو شيء لحقها من قبل تعطل آلتها ، وأنه ليس يلزم إذا تعطلت الآلة أن تتعطل النفس . والموت هو تعطل ، فواجب أن يكون للآلة كالحال في النوم . » (١)

(١) مناهج الأدلة نفس الطبعة ص ١٢٣ وما بعدها لمر مكتبة الأنجلو المصرية ص ٢٤٥ .

ولهذا الدليل أهميته . فإنه يتفق أتم اتفاق كما يتبين لنا مع تعريف أبي الوليد للنفس ؛ إذ ليست هذه الأخيرة لديه صورة للبدن ؛ بل هي جوهر مستقل وصورة للبدن في آن واحد . وهكذا استطاع هذا الفيلسوف أن يتخلص من تلك الصعوبة التي أثارها المبدأ القائل بأن المادة سبب الاختلاف بين الأفراد . وبعد هذا المبدأ لإحدى نقط الضعف في فلسفة أرسطو . كذلك يتفق هذا البرهان من جهة أخرى مع آرائه في الغاية من اتصال النفس بالبدن . وذلك لأنه وسيلة إلى إدراك ما يحتوى عليه عالم الحس .

وإذن فلم يكن فيلسوف قرطبة مرثياً وتماماً للجمهور كما كان يزعم كل من « مونك » و « رينان » . ولو كان الأمر كذلك لا كتفى بالبرهان القاطن . وذلك لأن الجمهور يسلم بهذا البرهان دون عناء . أما هذا البرهان الأخير ، فإنه يعتمد ، على العكس من ذلك ، على بعض القضايا الفلسفية الخاصة بطبيعة النفس . ونذكر هنا أيضاً أن ابن رشد لم يشر إشارة ما إلى خلود طائفة خاصة من الناس أو اندماج النفوس بعد مفارقتها للأجسام . وسبب ذلك أنه كان يرى أن الخلود لجميع النفوس دون تفرقة ، شقية كانت أم سعيدة . وقد رأينا أن نظرية النفس السكلية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرية الفيض التي قال بها غيره من فلاسفة الإسلام ، أى من هؤلاء الذين تأثروا إلى حد كبير بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة . وحينئذ فهو أولى الفلاسفة بأن يكون أشدهم إنكاراً للنفس السكلية ما دام هو الوحيد الذي يتكسر نظرية الفيض من بينهم .

## ٦ - مفارقت النفس عند توماس الأكويني

وهم هذا المفكر مرة أخرى حين ظن أنه جاء يهدم آراء الفيلسوف .

القرطبي . ويذكر أحد مؤرخي فلسفته وهو « جورس M. Gorce »<sup>(١)</sup> أنه قر سنة ١٢٥٨ ميلادية أن هناك علاقة سببية بين نظرية العقل السكلي أو نظرية وحدة العقل ، لدى كل من ابن رشد والإسكندر الأفروديسي ، وبين النظرية التي تقول بفناء النفوس بعد الموت . ويذكر « جورس » نصاً أخذه عن « توماس الأكويني » وهو : « يقرر بعضهم أن العقل الخالد يوجد خارج النفوس البشرية . ومن ثم فإنهم يقررون أن النفس التي هي أحد جزئ الإنسان يجب أن تكون فانية . » ثم يقول بعد ذلك مباشرة : ولما كان ابن رشد يفصل أكثر من أى شخص آخر بين العقل والإنسان فانظرية القائلة بفناء النفس يجب أن تنسب إليه أكثر من أى شخص آخر .

ولكن الحقيقة أن « توماس الأكويني » قد أخطأ هدفه على نحو فاضح كما أنه يكشف في الوقت نفسه عن شعوره بالإثم لأنه يحاول أن يخفي سطوه على آراء ابن رشد ، بكل وسيلة ممكنة ولو اقتضى ذلك أن ينسب إلى هذا الفيلسوف كل بدعة خرقاء ، مع حرصه على تتبع آثاره في البرهنة على خلود النفس وأيا كان الأمر فإننا نعلم أن أبا الواليد كان أشد الناس حرصاً على النسوية بين العقل والإنسان ، وأنه لم يقل قط بوحدة العقل بهذا المعنى الخاص الذي ينسبه إليه خصومه . وأكثر من ذلك فإنه لم يذكر أبداً أن العقل الذي لا يقبل الفساد أو الفناء يوجد خارج النفس ؛ بل قال قولاً صريحاً بأن العقل الهولاني والعقل الفعال ليسافانين ؛ وذلك لأنهما ليسا في الواقع سوى مظهرين مختلفين لذات واحدة غير مادية خالدة .

---

(1) M. M. Gorce La lutte ( contra gentiles ) à Paris. voir : Mélanges Mandonnet. Études d'histoire littéraire et doctrinale du Moyen âge. T 1, Paris 1930.

ويمكن تفسير إلحاح الغربيين في التجنى على فيلسوف قرطبة وفي محاولة النيل منه وإثقال كاهله بهذه الفرية وغيرها من صنوف البدع بأن ملحدى أوروبا الذين أنسكروا خلود النفس زعموا أنهم أتباعه . وذلك لأنهم عثروا في شروحه على بعض مبادئ فلسفة أرسطو التي تعضد حججهم . ولكن هذا الادعاء والإصرار على تشويه آراء ابن رشد والحرص على مهاجمته وتكفيره ليس دليلاً على صدق ما ينسبون إليه . ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أمرين هما : جهل تلاميذه الأعداء ، ورغبة أعدائه في الانتصار الرخيص عليه . ولما أخذ « توماس الأكويني » يفند آراء الباريسيين الملحدين خيل إليه أن قد قضى على إحدى نظريات الفيلسوف المسلم . ولكنه لم يشأ التفارقة بين مسألتين مختلفتين كل الاختلاف . فإن وحدة العقل شيء وإنكار خلود النفس شيء آخر ؛ إذ تقوم النظرية الأولى على إحدى نظريات الأفلاطونية الحديثة ، وتعني بها نظرية الفيض ، وتقوم النظرية الثانية على مبدأ أرسطو القائل بأن المادة والصورة متلازمان لا تنفك إحداها عن الأخرى .

وقد تصدى الأكويني للرد على أصحاب النفس الكلية فنسبها إلى ابن رشد . (١) وكان ينبغى له أن ينسبها إلى أبي نصر . فإن هذه النظرية شديدة الارتباط لديه بفكرة العقل الكلى . وحقيقة ليست النفس الكلية لدى الفارابي سوى ذلك العقل الفعال الذى تفيض منه النفوس الجزئية ثم تعود إليه إذا استطاعت . وعلى الرغم من لدد الخصومة وعنفاها فإن هذا المفكر المسيحي لما أراد أن يبرهن على خلود النفس لم يجد خيراً من مذهب ابن رشد . وكان في وسعه أن يستعين على ذلك بآراء ابن سينا أو الغزالي . بيد أنه آثر الاعتماد على نفس الأساس الذى بنى عليه أبو الوليد برهانه . فهو يسوى مثله بين النفس والعقل

(1) Contra gentiles, 11, cap. 83.

فيقول : إن جوهر النفس الإنسانية عقل محض يتصل بالبدن ويتخذ آلة له في الوصول إلى المعرفة . فليست النفس إذن مجرد صورة كباقي الصور . ولذلك فإذا تعطل البدن وتفرق لم يكن ذلك سبباً في فناء النفس . ويقول في ذلك : « يجب القول بأن النفس الإنسانية التي نطلق عليها اسم المبدأ العاقل ليست قابلة للفساد »<sup>(١)</sup> .

وهكذا سرعان ما تنقلب طبيعتها لديه . فبعد أن كانت صورة لجسم طبيعي يحتوى على الحياة بالقوة ، كما نص على ذلك في أكثر من موضع واحد ، أصبحت مستقلة وقائمة بذاتها ، ولم يعد اتحادها مع البدن اتحاداً جوهرياً . وقد فرق « توماس الأكويني » في هذا المقام بين النفس الإنسانية والنفس لدى الحيوان ، فقال إن هذه الأخيرة إنما كانت فانية لأنها ليست قائمة بذاتها ، على حين أن الصفة الجوهريّة في نفس الإنسان أن تكون مستقلة بذاتها . وقد عبر عن ذلك بقوله<sup>(٢)</sup> : « نقول إن النفس الإنسانية مبدأ غير جسمي قائم بذاته » .

فهو وإن جزم بإلحاد ابن رشد وتضاييله لجماعة من المسيحيين فإنه يتبع طريقة تفكيره ، ويرغب مثله عن آراء أرسطو في النفس ؛ لأنها تفضي لا محالة إلى إنكار خلودها أو على الأقل إلى تدعيم نظرية النفس الكلية . وهذا دليل على أنه كان يعلم آراء ابن رشد حق العلم ، وأنه تظاهر بعدائه ونقده في هذه النقطة لأنه سرعان ما يعود إلى آراء أرسطو في أكثر المسائل الأخرى<sup>(٣)</sup> .

(١) الخلاصة اللاهوتية . Sum theol. q 75 art. 6.

Contra gentiles 11, cap. 78,79 et 82 De. Anim. art 14,

(٢) الخلاصة اللاهوتية الجزء الأول ، السؤال الخامس والسبعون . الفصل الثاني .

“Sum, theol. I, q, 75, art, 2 : Dicimus animam hominis quoddam principium incorporeum et subsistens. itrum anima humana sit aliquid subsistens” .

(٣) أنظر الفصل السابق الفقرة الخامسة أظن ص ١٦١ .

## الفصل السابع

### العقل

#### ١ - تمهيد

كان أرسطو يرى أن الجسم الواحد لا يحتوي على أكثر من نفس واحدة، وأن هناك تدرجاً بين وظائفها المختلفة. ومع ذلك فإن وحدة النفس لم تكن شديدة الوضوح في مذهبه، كما قد يبدو لأول وهلة. فإن تعريف النفس بأنها صورة لجسم عضوي آلى ليس كافياً في تقرير هذه الوحدة؛ إذ يخرج العقل من نطاقها لأن العقل يختلف عن الوظائف النفسية الأخرى في أنه لا يحتاج إلى استخدام أى عضو من أعضاء الجسم.

وقد رأينا أن تعريف النفس لدى ابن سينا وغيره من فلاسفة الإسلام كان أكثر اتفاقاً من تعريف أرسطو مع القول بتدرج مظاهرها أو وظائفها. كذلك بينا أن أبا الوليد بن رشد استطاع الاعتماد على آراء ابن سينا في هذه المسألة إلى حد كبير، فاتخذها أساساً لنظرية جديدة تقرر وحدة النفس على نحو أكثر اتساقاً مما ذهب إليه أرسطو وشراحه من الإغريق والمسلمين. ومن ثم فقد كون هذا الفيلسوف لنفسه رأياً فذا عن طبيعة النفس عندما بين أنها ذات ذات غير جسمية وصورة للبدن في آن واحد. وإنما كان رأيه جديداً لأنه تحرر من الصعوبات التي كانت تكثف موضوع العقل في الفلسفتين المشائية والإسلامية. وكانت نظريته في الاتصال بين العقل الفعال والعقل الهولاني ثمرة توفيقه بين أرسطو وآراء ابن سينا.

٢ - آراء أرسطو

قال أرسطو في الجزء الثاني من كتابه عن النفس : « أما فيما عسى العقل فليس هناك شيء بديهي بشأنه . ومع ذلك ، فإنه يبدو أن يكون ذلك نوعاً جديداً من النفس مختلفاً جداً ، وأنه وحده هو الذى يمكن أن يكون مفارقاً للبدن ، كما يفارق الخالد الشيء القابل للفساد . » وربما غلب على الظن أنه يؤكد هذا الخلود بالنسبة إلى مختلف الوظائف العقلية . ولكن ليس ثمة ما يبرر هذا الظن ؛ فإنه يفرق تفرقة واضحة بين كل من العقل الهولانى والعقل الفعال ، أى بين ذلك العقل الذى هو مجرد استعداد يمكن الإنسان من إدراك معانى الأشياء أو صورها ، وبين ذلك العقل الذى ينتزع هذه المعانى فعلاً . ولا شك فى أن هذه التفرقة قد أدت إلى اضطراب فكرته عن وحدة النفس .

والآن يجب علينا أن نبين ما الذى يريده أرسطو بكل من هذين العقليين . أما العقل الهولانى أو المنفعل عنده فهو ذلك الجزء من النفس الذى من شأنه أن يكون محلاً أو مستودعاً يقبل معانى الأشياء وبصير كل المقولات . ويجب أن تكون نسبة هذا العقل إلى المقولات كنسبة المادة إلى الصورة ، أو القوة إلى الفعل ، مع بقائه على استعداد لقبول المعانى دون أن يتحد بها . ويمكن بيان الصلة بينه وبين المعانى إذا قلنا إن الصلة بينه وبينها تشبه الصلة التى توجد بين القوة الحسية وبين الأشياء الخارجية .<sup>(١)</sup> فكما أن الإحساس لا يحتلظ بالأشياء المحسوسة ولا يتحد معها ، كذلك الأمر فيما يتعلق بهذا العقل ؛ فإنه محل للمعانى ولكنه مستقل عنها .<sup>(٢)</sup>

وليس لهذا العقل وجود معين محدد قبل أن يدرك المعانى . وهذا هو السبب

(1) De Anima III, 429, a, 15. (2) Ibid 429, a, 25.

في أننا إذا نظرنا إلى النفس من هذه الناحية بدت لنا ك مجرد مكان تجتمع فيه صور الأشياء أى معانيها . ولا يستخدم هذا العقل أى عضو من أعضاء الجسم . وهذا هو وجه الخلاف بين القوة العقلية والقوة الحسية . فإن مؤثراً حسيماً شديداً لا يتيح للعضو أن يحس ما هو أقل منه شدة ؛ فى حين أن الأمر على خلاف ذلك فيما يتصل بالقوة العاقلة ؛ إذ لا يبدو العقل المنفعل أقل قدرة . عند ما ينتقل من موضوع عقلى قوى إلى موضوع عقلى آخر أقل قوة منه .<sup>(١)</sup> وقد وضع أرسطو السبب فى الاختلاف بين كل من هاتين القوتين بقوله : « لا توجد القوة الحسية فى الواقع مستقلة عن الجسم ؛ أما العقل فهو مفارق له . »<sup>(٢)</sup> وحينما ينتقل هذا العقل من القوة إلى الفعل ، أى من مجرد الاستعداد إلى عملية تجريد المعانى من الأشياء الحسية - يصبح قادراً على التفسير فى نفسه .<sup>(٣)</sup> فهو يشبه لوحة ملساء لم يكتب عليها شئ بالفعل .<sup>(٤)</sup> ولكن ينبغى ألا يفهم من هذا التشبيه أنه جوهر مادى حقيقة ؛ بل يجب القول بأنه الشرط الأول للمعرفة ، أو بمهارة حديثة أنه الاستعداد الفطرى الذى لا بد منه حتى تتمحقق عملية الإدراك .

وبالجملة فالعقل المنفعل ، فى نظر أرسطو ، هو جزء النفس الذى يتشكل بالصور العقلية ويقبلها . وهو يشبه فى ذلك المادة الأولى التى تقبل مختلف الصور

(1) Ibid. 429 1—5,

(2) Ibid 429, b,

(3) Ibid. 429b. 5—10.

تلك هى الفكرة التى اعتمد عليها الفيلسوف القرطبي فى 5—10. تقرير نظريته فى الاتصال . وهى تلك التى يمكننا أن نطلق عليها اسم نظرية الحدس العقلى ؛ لأن النفس تدرك جوهرها الحقيقى حينما يقف العقل الهولانى على طبيعته الخاصة ، وهى أنه نشاط عقل يوجد أولاً بصفة غير شعورية ، ثم ينقلب شعورياً . وقد ابتدأ الشارح الأكبر بهنا التفسير عن الفلسفة الأرسطوطاليسية ؛ وذلك لأنه لا يقبل التفرقة بين العقل الهولانى وبين العقل الفعال .

(4) Ibid. III. 4, 39, a

التي تتحد معها . (١) غير أن هناك فارقاً كبيراً بينه وبين هذه المادة . فإن هذه الأخيرة تتخصص بالصور التي تتصل بها . وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالعقل المنفعل لأنه يظل مستقلاً عن كل صورة يقبلها .

ومهما يكن من طبيعة هذا العقل فإنه يعجز عن إدراك أى شيء بنفسه ، أى بطريقة إيجابية ؛ لأنه — كما يقول أرسطو — عقل بالقوة ، أى مجرد استعداد ، وكل شيء بالقوة لا يمكن أن يصبح شيئاً بالفعل إلا بتأثير شيء آخر يوجد وجوداً فعلياً . ويخرج العقل المنفعل من القوة إلى الفعل بتأثير الصور العقلية . ولكي تبقى بعد ذلك صموبة يجب التغاب عليها ، وهى كيف تستطيع هذه الصور إخراج العقل المنفعل من القوة إلى الفعل ، إذا كانت هى الأخرى أشياء بالقوة ، بمعنى أنها لا توجد مستقلة ؛ إذ أن الصور الخيالية تنطوى عليها ؟ ولذا لما أراد أرسطو حل هذه المشكلة لم يبدأ من القول بوجود مبدأ آخر يطابق عليه اسم العقل الفعال ، بحيث يكون هو الآخر جزءاً من النفس فقال : « فى الواقع يفرق المرء فى النفس من جهة بين العقل الذى يشبه المادة بسبب أنه يصير جميع المقولات ، ومن جهة أخرى بين العقل الذى يصنع المقولات ، بمعنى أنه حالة ما شبيهة بالضوء . » (٢)

فالعقل الفعال يلتقى ضوءه على الصور الخيالية حتى تخرج منها الصور العقلية إلى الفعل بعد أن كانت موجودة فيها بالقوة . وذلك شأن الضوء الذى يمر الأشياء ، فتبدو ألوانها التي كانت مستترة بفعل الظلام . ولكن Hamelin — يرى أننا إذا قلنا مع أرسطو بأن العقل الفعال يشبه الضوء

(1) Ibid. III, 430 a. 1-5 voir aussi. Hamelin. Système d'Aristote. P 386-387

(2) Ibid. 480 a. 10 - 15.

كان معنى ذلك أننا نجعل له وجوداً مستقلاً عن البدن وعن كل ما به مسحة أو أثر من آثار الجسم ، ومن ذلك الصور الخالية ؛ وكان معناه أيضاً أنه من جنس مخالف لجوهرنا ، وأنه يكاد يكون شيئاً خارجاً عن النفس . وفي ذلك يقول هاملان : « إن هذا التشبيه لا يقدمنا كثيراً . فإن الإضاءة تظل دائماً فعلا من الأفعال . كذلك لا يؤثر العقل الفعال إلا لأنه يحتوي على الصورة [ العقلية ] . وحينئذ فلن يكون هذا العقل في نهاية الأمر شيئاً آخر سوى صورة عقلية مجردة ومفارقة للمادة . وهذه الصورة المفارقة هي التي تثير الصورة التي تنطوي عليها المادة الخيالية وتدعوها إليها ، إذا صح هذا التعبير . ولكن إذا قلنا بأن العقل الذي يصنع المقولات صورة كان معنى ذلك أننا تثير مشكلة كبرى ، وهي أنه من جنس مفارق ؛ إذ لا تصبح للعقل الفعال ، الذي هو صورة مجردة ، أية صلة بالجسم ، فهو يدرك دون عضو ، وفي هذه الحال تتساءل هل هو جزء منا ؟ » (١)

وحقيقة لقد وصف أرسطو هذا العقل بصفات تسمو به عن عالم الإنسان ، وعن هذا العالم الطبيعي فقال : « ولا يستطيع المرء القول بأن هذا العقل يفكر تارة ولا يفكر تارة أخرى . فتى فارق [ البدن ] فإنه يصير على غير ما كان عليه . . . وهو وحده الذي لا يموت وهو الخالد . . . في حين أن العقل المنفعل قابل للفساد . » (٢)

### ٣ — آراء ألكسندر الأفروديسي

ترك أرسطو مشكلة العقل غامضة على النحو الذي رأيناه منذ قاييل . ولذلك

(1) Hamelin, Système d'Aristote p. 386

(2) De Anima 430 a1 20 — 25

أخذ شراحه يفسرون هذا الغموض ، ويحاولون إيجاد حل لهذه المعضلة . فذهب بعض هؤلاء ، وعلى رأسهم الإسكندر الأفروديسي ، وهو من أشهر شراح الإغريق للفلسفة الأرسطوطاليسية ، إلى القول بأن العقل الفعال الذى يصنع المقولات ليس جزءاً من أجزاء النفس أو وظيفة من وظائفها ؛ بل هو الإله الذى يتمثل فى نفوس البشر ، ويقوم مقامهم فى إدراك معانى الأشياء . ويمكننا أن ننسب إلى الإسكندر الفضل فيما لقيته نظرية النفس والعقل فى فلسفة أرسطو من أهمية بالغة فى القرون الأخيرة التى ازدهر فيها التفكير الإغريقي ، وفى أثناء القرون الوسطى لدى المسلمين والمسيحيين فى أوروبا . ذلك لأن ذلك الشارح لما أراد تفسير النص الذى ذكرناه منذ قليل ابتدع فكرة جديدة عن طبيعة النفس الإنسانية . ولم تكن هذه الفكرة على وفاق مع روح مذهب أرسطو ، كما يقول الشراح الآخرون ومن بينهم ابن رشد . ولكنها أثرت ، على الرغم من ذلك ، تأثيراً بعيد المدى فى آراء الفلاسفة بعده فى العقل والتصوف .

أما وجهة نظر الإسكندر فتتلخص فى أن أرسطو استطاع التفرقة بين ثلاثة عقول هى : العقل الميولاني أو المنفعل ، والعقل المكتسب ، والعقل الفعال . وقد كان هذا هو الأساس الذى اعتمد عليه الإسكندر الأفروديسي فى تفسير المعرفة الإنسانية .<sup>(١)</sup> فقد فسر هذه المعرفة بأن النفس إذا أدركت إحدى الصور العقلية فإنها تتحد بها ، وتصبح معها شيئاً واحداً . ومعنى ذلك أنها لا تفرق عن المقولات إلا إذا كانت موجودة بالقوة ، أى على هيئة استعداد لقبولها . ومعنى ذلك بعبارة أكثر وضوحاً أن النفس لا تختلف عن المقولات إلا إذا لم تكن قد أدركتها بعد . وبناء على ذلك يجب التسليم بأن النفس تحتوى على مبدأ

(1) Duhem, Système du Monde, T. p. 376 — 398.

يوجد بالقوة ، وليس فيه أى شىء بالفعل ، ولكنه يستطيع أن يصير جميع المعقولات أى يتحد معها . وهذا هو العقل المنفعل لدى أرسطو، وهو الذى يطلق عليه الإسكندر اسم العقل الهولانى أو المادى . وليس هذا العقل لديه ذات مادية حقيقية . فإذا اتحد مع إحدى الصور نجم عن ذلك وجود ذات معينة . والمراد بهذا الوصف أن العقل مجرد استعداد لإدراك حقائق الأشياء ، كما أن المادة تقبل جميع الصور ، كذلك رأى هذا الشارح أن العقل الهولانى قابل للفساد كما كان يقول أرسطو ؛ بل ذهب إلى أنه يموت بالعقل .

ويأيه فى المرتبة عقل آخر هو العقل المكتسب . وقد قل الإسكندر : وفوق هذا العقل المادى الذى يستطيع إدراك كل شىء ، والذى لا يدرك شيئاً على الرغم من ذلك ، يوجد العقل المكتسب أو بعبارة أدق العقل الذى هو فى طريق الاكتساب ، وهو العقل الذى يفكر والذى ينتقل من القوة إلى الفعل ، وهو العقل الأول بعد أن اتحد بالصور أو المعانى العقلية .

ويأتى فى آخر الأمر عقل ثالث هو العقل الفعال الذى يجعل العقل المادى عقلاً مكتسباً . وهو السبب الذى يخرج العقل من القوة إلى الفعل ، أى من مجرد الاستعداد إلى القدرة على الإدراك . فهو صورة مجردة ومفارقة للمادة ، غير أنه لا يتصل بالعقل المادى إلا فى الوقت الذى تفكر فيه النفس . وهو غير قابل للفساد ، وحينئذ فهو خالد . وهو كائن إلهى . وهو الذى يخلق الأشياء التى يحتوى عليها ذلك القمر ويدبر أمرها . كذلك هو الذى يخلق العقل المادى بصفة خاصة . فإذا اتحد به لكل يدرك الأشياء فإنه لا يتصل به اتصالاً لانقسام عنه ؛ بل هو قابل للانفصال عنه . ويفصل عنه بحسب الحقيقة وبمجرد انتهاء العملية العقالية ينهى إدراك المعقولات ، أى أن الاتحاد بين العقليين رهن بالوقت الذى تستمر فيه عملية الإدراك العقلى .

ويتضح لنا من هذا الوصف أن الإسكندر يفرق على نحو لا مجال للشك فيه بين كل من العقل الفعال والعقل بالقوة أو المادى ، وأنه يجعل الأول ذاتاً مستقلة ليست من هذا العالم الحسى . وسوف نتبين لنا قوة الصلة بين مذهبه فى تفسير المعرفة الإنسانية وبين آراء فلاسفة الإسلام كالفارابى وابن سينا والغزالى وابن طفيل ، وسنرى كذلك ماوجه نيلسوف قرطبة إلى هذا المذهب من نقد .

ولكن ينبغى لنا أن نسوى ، على الرغم من ذلك ، بين نظرية المعرفة لدى الفلاسفة المسلمين من أتباع الأفلاطونية الحديثة وبين هذه النظرية عند الإسكندر تسوية تامة . ذلك أن الفارابى وابن سينا لا يقولان مثله : إن العقل الفعال هو الله ، ولكنهما يذكران أنه آخر العقول المفارقة أو أرواح الملائكة . ومهما يسكن من شىء فإن وجه الشبه بين النظريتين واضح جداً على نحو يدعو إلى العجب .

#### ٤ — آراء تيمستيس [ Themistuis ]

أعرض هذا الشارح عن تفسير الإسكندر ولم يرتضه ؛ لأنه كان يعتقد أن هذا الشارح لم يصب كبد الحقيقة ، وإنما أخطأ فى فهم رأى أرسطو ، ولم يفسره على النحو الذى كان ينبغى له أن يفعل . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن تيمستيس ينكر أن أرسطو كان يرى أن العقل الفعال هو الله الذى يفكر فى نفوس البشر . وذلك لأن هذا العقل جزء منا ، أو هو حقيقةتنا بعبارة أصح . كذلك يختلف تيمستيس عن الإسكندر من جهة أخرى ، أى فيما يتصل بطبيعة العقل بالقوة أو المادى . فهو لا يرى مثله أن هذا العقل قابل للفساد . ولذلك نجد بضطر إلى التحايل على النص الصريح الذى ذكره أرسطو فى هذا الشأن فقال : إن هذا

الفيلسوف إنما يتحدث عن فناء العقل المشترك، أى العقل الذى يكون به الإنسان مكوناً من نفس وجسم، ويريد بذلك العقل الذى هو محل الانفعالات كالغضب والشهوة. (١) ومن هذا يتبين لنا أن تيمستيس يفرق فى الواقع بين ما يسميه العقل المشترك وبين ما يطلق عليه اسم العقل بالقوة. وقد طبق هذا الشارح نظرية تماقب الصور على مادة واحدة على الوظائف العقلية فى النفس؛ فرتب العقول على هذا الأساس، وجعل العقل الفعال آخر وظائف النفس أو آخر صورها، أو صورة الصور (٢)، فقال: « إن هذه الصورة الأخيرة هى وحدها الصورة الجردة بمعنى الكلمة، أو بالأحرى هى صورة الصور. وكل واحدة من الصور الأخرى مادة وصورة فى نفس الوقت. وآخر هذه الصورة وأسمائها العقل الفعال الذى بلغ من الكمال درجة لا يمكن أن يوجد بعده شئ آخر أسمى منه بحيث يمكن أن يكون مادة له. » (٣) وسنرى كيف تأثر كل من الفارابى وابن رشد بتفسير هذا الشارح، وكيف اختلفا مع ذلك اختلافاً كبيراً فى فهمه.

ويجب أن نذكر فى نهاية الأمر أن « تيمستيس »، وإن قال بأن العقل الهولانى غير قابل للفساد، فإنه يعترف من جهة أخرى بأن هذا العقل مشترك بين جميع أفراد البشر، كما هى الحال أيضاً فى العقل الفعال. ولم يستطع « توماس الأكوينى » - أو لم يشأ - التفريق بين رأى تيمستيس فى هذه المسألة وبين رأى أبى الوليد بن رشد، فنسب إلى هذا الأخير آراء الأول.

(1) Ibid. Duhem. T. IV. p. 383.

(٢) وهذا ما فعله ابن رشد فيما بعد.

(3) Ibid. Duhem. T. IV. p. 386.

٥ — آراء أتباع الأفلاطونية الحديثة من المسلمين

اختلف فلاسفة الإسلام في تحديد عدد العقول وطبيعة كل عقل منها . ويمكن إرجاع اختلاف آرائهم في تلك المسألة إلى هذا السبب ، وهو أنهم اختلفوا في تحديد طبيعة العقل الهولاني . وبيان ذلك أنهم انقسموا إلى فريقين فذهبت الغالبية الكبرى من بينهم إلى ما ذهب إليه الإسكندر الأفروديسي فقالت : إن هذا العقل مجرد استعداد في الإنسان . ولذا فإنه يقف مع الجسم . ويذكر ابن رشد أن فلاسفة العرب قبله كانوا من أنصار مذهب الإسكندر ، وإن خالفوه بمض الشيء في تحديد طبيعة العقل الفعال . ثم يرد عليهم مذهبهم بأن أرسطو لو جعل العقل الهولاني مجرد استعداد لقبول معاني الأشياء لترتب على ذلك أنه يقرر وجود استعداد « غير ذي موضوع » ، أى وجود استعداد لا ينسب إلى جوهر أو ذات معينة ، وذلك أمر لا يقبله العقل . وقد استطرده الشارح الأكبر فقال : إن الإسكندر وحده هو الذى فسر أرسطو على هذا النحو ، وإن جميع الفلاسفة المعاصرين له رفضوا رأيه . كذلك رده تيمستيس لشناعه . ومن ثم فإن رأيه مختلف جسدأ عن آراء أبي نصر الفارابي وغيره من الحسكء المسلمين الذين كانوا يقولون : إن يكون المرء فيلسوفا كاملا إلا إذا كان على رأى الإسكندر . (١)

وذهبت طائفة قليلة إلى تمضيد رأى تيمستيس ، وهو القائل بأن العقل الهولاني ليس مجرد استعداد ؛ بل هو ذات عقلية مجردة عن المادة ؛ إذ كيف يكون الأمر على خلاف ذلك ، وقد قال أرسطو : إنه من الواجب أن لا يحتلط هذا العقل بقوى النفس الأقل منه مرتبة ؟ وقد وفق

(1) Renan, Averroès p. 135.

أبو الوليد بن رشد بين هاتين الطائفتين حين قال : إنه ينبغي ألا نفرق بين العقل الهبولانى والعقل الفعال ؛ بل يجب القول بأنهما مظهران لذات عقلية واحدة وهى النفس .

ولم يقطن كل من « مونك » و « رينان » إلى هذه الفروق الدقيقة بين آراء أبى نصر وآراء بن رشد . ولذا فلم يهتديا إلى حقيقة نظرية المعرفة لدى هذا الأخير . ومن العجيب حقاً أنهما نسباً إليه أنه كان يقول بقناء العقل الهبولانى ، مع أنه كان ينص صراحة على خلوده وعلى مخالفته فى ذلك بان سبقه من الشراح . وسنعرض بالتفصيل لآراء كل من الفارابى وابن سينا والغزالى وابن باجه وابن طفيل فى هذه المسألة ، حتى نبين أن هؤلاء النلاسفة كانوا أكثر اتباعاً للأفلاطونية الحديثة منهم لآراء أرسطو ، ولكى نبرهن على استقلال الفيلسوف القرطبي وابتكاره .

## ٦ - آراء الفارابى

ذكر أبو نصر فى مقالته عن معنى العقل<sup>(١)</sup> أن لفظ العقل يطلق ويراد به معنى جمة . فإن العامة تصف به كل ذى فضل سديد الحسكم . أما المتكلمون فيعبرون به عن تلك الماسكة أو القوة التى تميز للإنسان بين الخير والشر . وقد استخدمه أرسطو فى كتابه التحليلات « Analytiques » للدلالة على تلك القوة التى يستعين بها المرء للوصول بطريقة مباشرة إلى نتيجة يقينية يستنبطها من بعض المقدمات أو القضايا العامة الضرورية . وقال إن هذه القوة أحد أجزاء النفس ، وهى التى تكتسب بها المعارف الأولى ومبادئ العلوم .

(١) توجد هذه المقالة فى مجموعة الثمرة المرضية .

النظرية . ويقول أبو نصر : إن أرسطو استخدم لفظ العقل في كتاب الأخلاق « I' Éthique » للدلالة على معنى آخر، وهو أن النفس تكنسب، مع الزمن، نوعاً من الخبرة الأخلاقية ، فتمتد التفرقة بين الأفعال الاختيارية التي يجب القيام بها والأفعال الاختيارية التي يجب الإحجام عنها . وهناك معنى خامس لهذه الكلمة ، وهو الذي ذكره أرسطو في كتاب النفس . وقد اعتمد الفارابي على ما ذكره أرسطو في هذا الكتاب الأخير للتفرقة بين أربعة عقول، وهي العقل بالقوة أو الهولاني ، والعقل بالفعل ، والعقل المستفاد ، والعقل الفعال .

أما العقل بالقوة فيعرفه بقوله : « هو نفس ما ، أو قوة من قوى النفس ، أو شيء ما ، ذاته معدة أو مستعدة لأن تنتزع ماهيات الموجودات كلها وصورها . فتجعلها كلها صورة لها . . . وتلك الذات شبيهة بمادة تحصل فيها صور . . . وهذه ذات ليس تبقى ذاتها متميزة عن صور المقولات ، حتى تكون لها ماهية منحازة وللصور التي فيها ماهية منحازة ؛ بل هذه الذات نفسها تصير تلك الصور . . . فهي مادامت ليس فيها شيء من صور الموجودات فهي عقل بالقوة . » ولا نكاد نجد تعريفاً آخر للعقل المنفصل يفوق تعريف أبي نصر في مرونته وعموضه أيضاً ؛ فإنه من الممكن أن نرجعه إلى آراء « الإسكندر الافروديسي » ، كما نستطيع الشعور على وجه شبه بينه وبين تعريف « تيمستيبس » . ولكن على الرغم من هذه المرونة فإننا نميل إلى اعتقاد هذا الأمر ، وهو أنه من أتباع الإسكندر ؛ لأنه لا يفرق في الواقع بين النفس الإنسانية الجزئية وبين هذا العقل . ومعنى ذلك هو أن العقل بالقوة أو العقل الهولاني ليس سوى تلك النفس التي تنهأ لقبول المقولات . ويدل على صحة ما نمتقد أن هذا التفسير يتفق مع نظرية أبي نصر في كل من خلود النفس الكلية والانصال بالعقل الفعال . لأنه كان يرى

أنه لا خلود لكل من النفس الجزئية والعقل بالقوة . ومن التعريف السابق نرى أنه يسوى بين صور المعقولات أو المعانى وبين العقل بالقوة ، بمعنى أن هذين الأمرين يصبحان لديه شيئاً واحداً . ومع ذلك فإنه يقول أحياناً : إن هذا العقل شبيه بالمادة ، وإنه لا يمتلئط أو يتأثر بالصور العقلية التي يحتوى عليها . ومعنى ذلك أن له ذاتاً خاصة به . ويقرب بذلك من رأى « تيمستيس » . ويمكن التوفيق بين هذين الرأيين المتناقضين لديه بأنه يذهب إلى الرأى الأول إذا كان يتحدث عن هذا العقل حينما يتحد بالمعانى ، وإلى الرأى الثانى حينما يكون الأمر خاصاً به قبل هذا الاتحاد .

أما العقل بالفعل فهو نفس العقل السابق ، وقد اتحد بالصور العقلية التي كانت موجودة بالقوة فى الأشياء الخارجية ثم انتقلت إلى الفعل ، أى الصور التي كان يمكن إدراكها ، ثم أصبحت مدركة بحسب الواقع . ويتبين لنا أن أبا نصر يسوى هنا بين العقل بالفعل والمعقولات بالفعل . وهذا هو ما يعبر عنه أحياناً بقوله إن العقل والمقول شيء واحد ، كما تبين ذلك من النص الآتى : « فهمى [ النفس ] ما دامت ليس فيها شيء من صور الموجودات فهمى عقل بالقوة . فإذا حصلت فيها الموجودات . . صارت تلك الذات عقلاً بالفعل . . فإذا حصلت فيه المعقولات التي انتزعت عن المواد صارت تلك المعقولات معقولات بالفعل ، وقد كانت من قبل أن تنزع عن موادها معقولات بالقوة . . وتلك الذات إنما صارت عقلاً بالفعل بالتي هي بالفعل معقولات . فإنها معقولات بالفعل وإنها عقل بالفعل شيء واحد بعينه . » (١) وهكذا يتضح لنا أن العقل بالفعل لديه هو نفس العقل المادى الذى أدرك بعض المعانى ولم يدرك بعضها الآخر ، وأن كلا من

(١) مقالة فى معانى العقل ص ٣٣ .

هذين العقليين مظهر لشيء واحد بعينه ، وهو النفس الإنسانية . وقد فرق الفارابي على هذا الأساس نفسه بين نوعين من المعقولات : يوجد بعضها بالقوة ويوجد بعضها بالفعل . ويسمى النوع الأول المعقولات الأولى ، وهي التي تقابل العقل بالقوة . ويسمى النوع الثاني المعقولات الثانية ، وهي التي تقابل العقل بالفعل .

أما العقل الثالث فهو الذى يطلق عليه اسم العقل المستفاد ، وهو العقل المكتسب الذى يقول به أرسطو . وقد فسر الفارابي حدوث هذا العقل المستفاد على النحو الآتى : وهو أن العقل بالفعل عندما يدرك الصور العقلية تصبح هذه الأخيرة صورة له ، وحينئذ ينقلب عقلاً مستفاداً ، كما نص على ذلك فى مقالته فى معانى العقل : « فالعقل بالفعل متى عقل المعقولات التى هى صور له من حيث هى معقولة بالفعل صار العقل الذى كنا نقول أولاً إنه العقل بالفعل هو الآن العقل المستفاد . »<sup>(١)</sup> وبعد هذا العقل الأخير مادة للمعقولات ، ولكنه فى نفس الوقت صورة للعقل الأدنى منه مرتبة ، وهو العقل بالفعل . وهكذا يتبين لنا أن هذا الفيلسوف قد تأثر فى هذه المسألة بتميستيس ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ؛ لأنه يقول مثله بتدرج الوظائف العقلية فى النفس الإنسانية ؛ أى بأن العقل بالقوة مادة للعقل بالفعل ، وأن هذا الأخير مادة للعقل المستفاد وصورة للعقل بالقوة ، فى حين أن العقل المستفاد صورة للعقل بالفعل ومادة للصور العقلية . وإنما كان هذا التدرج ضرورياً حتى يستطيع العقل النزول إلى مستوى الأشياء الخارجية . غير أن هذا النزول لا يتم حقيقة إلا إذا استعانت النفس ببعض قواها الأدنى مرتبة ، وهى الخيال والحس . ومعنى ذلك أن النفس

(١) نفس المصدر ص ٣٥ .

تتبع في إدراكها للأشياء الحسية طريقاً تصاعدياً : إحساس ، تخيال ، فعمل بالقوة ، فعمل بالفعل ، فعمل مستفاد .

وليست العقول الثلاثة التي سبق وصفها سوى ثلاث مراتب متتابعة يمكن الوقوف عليها في التفكير الإنساني . ومع ذلك ، فإن هذه العقول الإنسانية ليست كافية وحدها في تحصيل المعرفة ؛ بل لابد من وجود عقل آخر يخرج النفس من مجرد الاستعداد لإدراك الأشياء إلى إدراكها بالفعل . وهذا هو العقل الفعال وهو شيء خارج عن النفس الإنسانية . وقد قال أبو نصر : « ومن قوى النفس العقل العلى ، وهو الذى يتم به جوهر النفس ، ويصير جوهرأ عقلياً بالفعل . ولهذا العقل مراتب : يكون مرة عقلا هيولانيا ، ومرة عقلا بالملكة ، ومرة عقلا مستفاداً . وهذه القوى التي تدرك المعقولات جوهر بسيط وليس بجسم ، ولا يخرج من القوة إلى الفعل ، ولا يصير عقلا تاماً إلا بسبب عقل مفارق ، وهو العقل الفعال . »

وهكذا رسم الفارابى الطريق أمام فلاسفة الإسلام بعده عندما فصل العقل الفعال عن النفس ووضعه في أقرب الأفلاك إلينا ، وهو فلك القمر . وتلك نقطة تحول هامة في مذهب هذا الفيلسوف ؛ لأنه يعرض جانباً عن الفلسفة الأرسطوطاليسية ، ويتجه نحو مذهب الأفلاطونية الحديثة يستعين به على تفسير كثير من المسائل كالمعرفة والنبوة والسعادة ، ويبنى عليه آراؤه الخاصة في النصوص . ويشبه أبو نصر العقل الفعال بالشمس التي تخرج الألوان من القوة إلى الفعل ، أى من الخفاء إلى الظهور : « كذلك العقل الفعال هو الذى جعل العقل الذى بالقوة عقلا بالفعل ، بما أعطاه من ذلك المبدأ . وبذلك بعينه صارت المعقولات معقولات بالفعل . والعقل الفعال هو نوع من العقل المستفاد .

وصور الموجودات هي فيه لم تزل ولا تزل ؛ إلا أن وجودها فيه على ترتيب غير الترتيب الذي هي فيه موجودة عليه في العقل الذي هو بالفعل . . والعقل الفعال يعقل أولاً من الموجودات الأكمل فالأكمل (١) .

أضف إلى ذلك أن الصور التي نجدها موزعة في المواد المختلفة توجد متحدة على هيئة صورة واحدة في هذا العقل : وقد أخذ الفارابي هذه الفكرة عن أفلوطين ، وإنني بها تلك الفكرة التي تقول بتدرج الموجودات ؛ إذ ليست الموجودات سواء في الكمال أو النقص ؛ وإنما يتوقف كمالها ونقصها على درجة الاتحاد بين أجزائها . وقد ضرب لذلك أفلوطين مثالا فقال : إن وجود الأحجار في كومة أقل كمالا من وجودها جنبا إلى جنب ، ووجود الأشياء جنبا إلى جنب أقل كمالا من وجود الكائن الحى الذى تماسك أجزؤه وتتضمن على نحو خاص بسبب وجود النفس فيه . وهكذا تزداد درجة الاتحاد كلما ارتقيننا في مراتب الكائنات ، فيكون الاتحاد أتم بين أفراد الفرقة الموسيقية أو بين أفراد كتيبة من كتائب الجيش منه بين جماعة من الناس لا تربطهم صلة أو غاية محددة ؛ كذلك تزداد درجة الكمال بالانتقال من الأشياء المادية إلى الأشياء العقلية والروحية . وأكمل مرتبة لدى أفلاطون هي الوحدة المطلقة ، وهي في نظره مبدأ لكل وجود عقلى أو مادى (٢) .

ولكن الذى يهمنى هنا هو أن الفارابي يفسر المعرفة الإنسانية على أساس اتصال العقل الفعال بنفوسنا . لأنه هذا العقل هو المصدر الذى تفيض منه المعانى ،

(١) نفس المصدر فى ٣٥ .

(٢) آراء أهل المدينة الفاضلة صفحة ٧٥ . وسنشير فى كتاب آخر إلى الصلة القوية بين آراء أفلوطين وآراء الفارابي ، وسنبين كيف أخذ الثانى عن الأول آراء فى الفيض والتصوف كذلك .

وهو إلى جانب ذلك السبب في وجود هذه النفوس ، وكل ما يحتوى عليه هذا العالم الدنيوي ؛ لأنه لما كان آخر العقول السماوية فإنه إذا فكر في ذات الخالق سبحانه فاضت عنه النفوس الإنسانية ، وإذا فكر في ذاته ، على أن وجوده مستمد من الله ، فاضت عنه العناصر الأولية التي يتألف منها العالم ، وتساعد في هذا الأمر الأخير الأجرام السماوية .

وحيث أننا يمكننا تلخيص نظرية الفارابي في المعرفة على النحو الآتي ، وهو أن النفس الإنسانية لا تستطيع بلوغ غايتها في الإدراك ولا تصير - كما يقول أبو نصر - عقلا بالفعل إلا إذا وجد شيء يخرجها من القوة أو من مجرد الاستعداد إلى الإدراك الفعلي ، وذلك الشيء هو العقل الفعال . ولا تتم المعرفة حقاً إلا إذا اتحد هذا العقل بالنفس العاقلة لدى الإنسان .

وإلى جانب ذلك كان هذا الفيلسوف يعتقد أن هذا الاتحاد أو الاتصال سبيل إلى تحصيل السعادة . وذلك لأن النفس تستطيع معه رؤية عظمة الله وجلاله والوقوف على أمور ليس لها مثيل في عالم الحس . وليس هذا الاتصال متاحاً لجميع الناس على حد سواء ؛ بل يتحقق لدى هؤلاء الذين قويت لديهم ملكة الخيال . وقد يتلقى بعض هؤلاء في أثناء يقظته العلم بالأمور المستقبلية التي تفيض من العقل الفعال . وقد تبدو له هذه الحقائق على هيئة صور خيالية ، وتلك هي المرتبة القصوى أي مرتبة الأنبياء . ودونها مراتب عديدة متفاوتة . وقد بين الفارابي هذه المراتب بقوله : « قال الذي يرى ذلك أن الله عظمة جليلة عجيبة ، ورأى أشياء عجيبة لا يمكن وجود شيء منها في سائر الموجودات أصلاً . ولا يمتنع أن يكون الإنسان إذا بلغت قوته التخيلية الكمال فيقبل في يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلية أو محاكياتها عن المحسوسات ، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة

وسائر الموجودات الشريفة ، ويراها ، فيكون له بما قبله من العقولات نبوة بالأشياء الإلهية . فهذا هو أكل المراتب التي تنهى إليها القوة المتخيلة ، ودون هذا من يرى جميع هذه في نومه فقط . وهؤلاء تكون أفاويلهم التي يعيرون بها أفاويل محكية ورموزاً وألغازاً وتشبيهات . ثم يتفاوت هؤلاء تفاوتاً كثيراً .<sup>(١)</sup>

ولا يستطيع المرء الاتصال بالعقل الفعال دفعة واحدة ؛ بل لا بد له من الانتقال من مجرد الاستعداد الفطري للمعرفة إلى مرتبة العقل بالفعل . ومن هذه المرتبة إلى العقل المستفاد .<sup>(٢)</sup>

هذا هو الأساس الذي تبنى عليه نظرية الاتصال المشهورة عند فلاسفة المسلمين من أتباع الأفلاطونية الحديثة . فإن هؤلاء كانوا يرون أن هذا الاتصال شرط جوهرى فى المعرفة . ويجب أن نشير هنا إلى أن الفارابى كان يرى أن العقول الثلاثة الأولى ، وهى العقل بالقوة والعقل بالفعل والعقل المستفاد ، لا توجد إلا بسبب اتصال النفس بالجسم .<sup>(٣)</sup>

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٧٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٧٦ : « وأول الرتب التي بها الإنسان إنسان هو أن تحصل الهيئة الطبيعية القابلة المعدة لأن تصير عقلاً بالفعل ، وهذه هى المشتركة للجميع . فبينها وبين العقل الفعال رتبتان : أن يحصل العقل المنفعل بالفعل ، وأن يحصل العقل المستفاد . وبين هذا الإنسان الذى بلغ هذا المبلغ من أول رتبة الإنسانية وبين العقل الفعال رتبتان . » وإذا جعل العقل المنفعل السكامل والهيئة الطبيعية كشيء واحد ، على مثال ما يكون المؤتمل من المادة الصورة شيئاً واحداً ، وإذا أخذ هذا الإنسان صورة إنسانية هى العقل المنفعل الحاصل بالفعل كان بينه وبين العقل الفعال رتبة واحدة فقط . وإذا جعلت الهيئة الطبيعية مادة العقل المنفعل الذى صار عقلاً بالفعل والمنفعل مادة المستفاد والمستفاد مادة العقل الفعال وأخذ جملة ذلك كشيء واحد كان هذا الإنسان هو الإنسان الذى حل فيه العقل الفعال : وإذا حصل ذلك فى كلا جزئى قوته الناطقة النظرية والعملية ثم فى قوته التخيلية ، كان هذا الإنسان هو النبى الذى يوحى إليه . فيكون أمة عز وجل يوحى إليه بتوسط العقل الفعال . »

(٣) انظر رسالته فى إثبات الأشياء المفارقة . طبعة حيدر آباد ص ٨ .

وإنما أفضنا الحديث عن نظرية العقول لدى الفارابي حتى نبين الفارق الجوهرى بينها وبين نظرية ابن رشد ، ولكي نبرهن على تلك القضية التي نختلف بها عن جميع هؤلاء الذين كتبوا عن هذا الفيلسوف قبلنا ، وهى أن مؤرخى الفلسفة يكادون يجمعون على أن الفيلسوف القرطبي كان أحد أتباع الأفلاطونية الحديثة ؛ فى حين أننا ثبت أنه كان صاحب شخصية فاسفية مستقلة ، وأنه كان أقرب فلاسفة الإسلام إلى مذهب أرسطو . ولن نلجأ مثل هؤلاء إلى مجرد الفروض أو الحدس أو التقليد ؛ بل سوف نستعين على تأكيد وجهة نظرنا بنصوص لهذا الفيلسوف نفسه . وحقيقة لم تستطع نظرية الاتصال الفارابية ، على الرغم مما ينسب إليها « كارا دى فو » من جمال<sup>(١)</sup> ، أن تأسر لبّ أبى الوليد ، وإن أرت ، على العكس من ذلك . تأثيراً عميقاً فى نظرية المعرفة لدى ابن سينا والغزالي وابن باجة وابن طفيل وموسى بن ميمون .

#### ٧ — آراء ابن سينا

أخذ الرئيس أبو على الحسين عن الفارابي رأيه فى تدرج الوظائف العقلية فى النفس ، وقال مثله : إن كل عقل منها يعد مادة للعقل الذى يليه ، وصورة للذى يأتى قبله . وعلى هذا النحو فرق بين أربع قوى لكل منها عقل يقابلها . فهناك العقل الهولانى ، وهو لا يعدو أن يكون مجرد استعداد للمعرفة . ويأتى بعده العقل الممكن أو بالمسكة ، وهو صورة له ؛ وذلك لأنه يزيد عليه من جهة أنه قد اكتسب القضايا الأولية البديهية . ثم يأتى بعد ذلك العقل بالفعل ، وهو فى حالة استعداد كامل ، بحيث يمكن أن تحدث فيه الصورة العقلية التي تكتسب

(1) Carra de Vaux, Avicenne, P 221 - 222

بعد الحقائق الأولية . فإذا أدرك هذه الصور أو المعاني انقلب عقلاً مستفاداً ،  
وهذه هي المرتبة الرابعة . ولا تكتسب هذه الصورة عن طريق التجريد ،  
كما تقول بذلك الفلسفة المشائية ، وإنما تفيض من عقل آخر مستقل عن النفس  
الإنسانية ، وهو العقل الفعال . « ونسبته إلى نفوسنا كنسبة الشمس إلى أبصارنا .  
فإن القوة العقلية إذا اطّلت على الجزئيات التي في الخيال ، وأشرق عليها نور  
العقل الفعال فينا . . استحال مجردة عن المادة وعلاقتها ، وانطبع في النفس  
الناطقة ، لا على أنها نفسها تنتقل من التخيل إلى العقل منا . . بل على معنى  
أن مطالعتها تعد النفس لأن يفيض عليها [ المعنى ] المجرد من العقل الفعال .  
فإن الأفكار والتأملات حركات معدة للنفس نحو قبول الفيض . » (١)

ولا يتحقق الاتصال بالعقل الفعال على خير وجه إلا لدى نفر قليل من البشر ،  
وهم الذين يدركون الأشياء بسببه إدراكاً مباشراً . وهذه هي السبيل إلى الإدراك  
الصوفي أو الاتصال بالعالم الروحي . وحينئذ فهو شيء خارج عن النفس ؛ بل إن  
هذه الأخيرة تفيض عنه ، وهي في ذلك كالأشياء المادية وصورها . وهو آخر  
المقول المفارقة . (٢)

وإذن فلا يمكن تفسير المعرفة الإنسانية لديه إلا على أساس القول بنظرية  
الاتصال بين النفس والعقل الفعال . وإنا نرى أنه يمزج كالفارابي بين كل من  
نظرية المعرفة الأرسطوطاليسية ونظرية المعرفة في مذهب الأفلاطونية الحديثة .

(١) الشفاء الجزء الأول ص ٣٥٦ .

(٢) الإشارات طبعة ليدن ص ١٧٥ : « فيجب أن تكون هيولى [ مادة ] العالم  
المنصرى لازمة من هذا العقل الأخير . ولا يمتنع أن يكون للأجرام الساوية ضرب من المعونة  
فيه . . وأما الصور فتفيض أيضاً من ذلك العقل . . . وهناك تفيض النفوس النباتية والحوانية  
والناطقة من الجوهر العلهي الذي يلي هذا العالم . »

فهو يقول من جهة بأن الحواس والخيال يمهدان لمعرفة المعاني ، ومن جهة أخرى ينكر وجود الذاكرة العقلية ؛ لأنه ليس من الممكن أن تخزن المعاني غير المنقسمة في عضو منقسم بطبيعته .

ويمكن تفسير التذكر والنسيان في مذهبه بالإفعال أو الإعراض عن العقل الفعال<sup>(١)</sup> . فالعقل ينظر تارة إلى المعاني ، ويفعل عنها تارة أخرى . فإذا أُقبل عليها تجلت فيه ، وإذا أعرض عنها لم تتمثل . وحينئذ يمكن تشبيه النفس بمرآة والمعاني بأشياء خارجة عنها . « فتارة تلوح فيها ، وتارة لا تلوح ، وذلك بحسب نسبة تكون بين النفس وبينها ، أو يكون المبدأ الفعال يفيض على النفس صورة بعد صورة ؛ بحسب طلب النفس ، وأن يكون إذا أعرضت عنه انقطع الفيض . فإن كان هذا هكذا فلم لا تحتاج كل كرة إلى تعلم من رأس ؟ فنقول : إن الحق هو القسم الأخير . وذلك أنه من المحال أن نقول : إن هذه الصورة موجودة في النفس . ومحال أن تكون ذاتها خزانتها . »<sup>(٢)</sup>

وليست الغاية من التعلم إلا محاولة الاستعداد التام للاتصال بالعقل الفعال . وهذا الاستعداد يكون ناقصاً قبل التعلم وكاملاً بعده . « وهذا الاستعداد قد يشتد في بعض الناس حتى لا يحتاج في أن يتصل بالعقل الفعال إلى كثير شيء وإلى تخريج

---

(١) نفس المصدر ١٢٩ : « لكن الجوهر المرتسم بالمعقولات . . غير جسماني ولا منقسم فليس فيه شيء كالمتصرف وشيء كالحزائنة . ولا يصح أن يكون هو المتصرف ، وشيء من الجسم . وقواه كالحزائنة ؛ لأن المعقولات لا ترسم في جسم . فبقي أن ههنا شيئاً خارجاً عن جوهرنا فيه الصور المعقولة بالذات . إذن هو جوهر عقلي بالعقل إذا وقع بين نفوسنا وبينه اتصال ما ارتسم . منتهى فينا الصور العقلية الخاصة بذلك الاستعداد الحس لأحكام خاصة . وإذا أعرضت النفس عنه إلى ما يلي العالم الجسداني ، أو إلى صورة أخرى ، انعني للممثل الذي كان أولاً ، كأن المرأة التي كانت تتأذى بها جانب النفس قد أعرض بها عنه إلى جانب الحس ، أو إلى شيء آخر من أمور القدس . وهذا إنما يكون أيضاً للنفس إذا اكتسبت ملكة الاتصال بالعقل الفعال . »

(٢) الشفاء الجزء الأول ص ٣٦٠ .

وتعليم ؛ بل يكون شديد الاستعداد لذلك . . . كأنه يعرف كل شيء . . . من نفسه ، وهذه الدرجة أعلى درجات هذا الاستعداد . ويجب أن تسمى هذه الحالة من العقل الهولاني عقلاً قدسياً . «<sup>(١)</sup> وهذه هي حال الأنبياء ، وهي أعلى مراتب القوى الإنسانية .

وهكذا نرى أنه يتفق مع الفارابي في تفاصيل نظرية الاتصال ، وإن كان يختلف عنه من جهة أنه لا يسلم معه بأن النفس تتحد مع هذا العقل فتغنى فيه ؛ إذ لو جاز ذلك لعدا العقل الفعال قابلاً للانقسام .<sup>(٢)</sup> وإذا اتصلت النفس به اتصالاً ما أصبحت عقلاً مستقداً . وفي هذه الحال لا تحتاج إلى استخدام عضو ما ؛ وذلك لأنها تدرك بجوهرها ما كانت تدركه من قبل بواسطة الأعضاء أو الآلات الجسمية . وقد وضع ابن سينا هذه الفكرة الأخيرة في كتاب الإشارات فقال : « إذا كانت النفس الناطقة قد استغادت ماسكة الاتصال بالعقل الفعال لم يضرها فقدان الآلات لأنها تعقل بذاتها — كما علمت — لا بآلاتها . ولو عقلت بآلاتها لكان لا يعرض للآلة كلال ألبتة إلا ويعرض للقوة كلال ، كما يعرض لا محالة لقوى الحس والحركة . ولكن ليس يعرض هذا الكلال ؛ بل كثيراً ما تكون القوى الحسية والحركية في طريق الانحلال والقوة العقلية إما ثابتة وإما في طريق النمو . »<sup>(٣)</sup>

ويرجع السبب في أن هذا القياس لا يقول باتحاد النفس الإنسانية بالعقل الفعال اتحاداً تاماً إلى أنه كان يرى أن النفوس تبقى متعددة بعد مفارقتها لأبدانها ولا تكون نفساً كلية . وإذا كانت هذه هي حالها بعد الموت فمن باب أولى

(٢) الإشارات ص ١٧٩

(١) نفس المصدر ص ٣٦٢

(٣) نفس المصدر ص ١٧٦

أن تحتفظ بشخصيتها إذا قدر لها الاتصال بالعقل الفعال في هذه الحياة الدنيا .  
ومع ذلك ، فإنه كان يذهب من جهة أخرى إلى إمكان اتصال النفس العاقلة  
بالله تعالى على نحو خاص من الاتصال . وحينئذ تدرك الذات الأولى والعقول  
المفارقة ونفوس الأفلاك السماوية وما يأتي بعدها مما يوجد في هذا العالم  
الدنيوي .<sup>(١)</sup> ومن ثم نرى أن ابن سينا يتخذ طريقه صعدا نحو التصوف العقلي  
الخالص . أما فيما يمس نظرية المعرفة الإنسانية بمعنى الكلمة فإنه يؤكد أن  
النفس تحتاج إلى مطالعة العقل الفعال كلما أرادت إدراك أحد المعاني العقلية .  
وهذا هو السبب الذي دعا « توماس الأكويني » إلى القول بأنه لا وجود  
للذكرة العقلية في مذهب ابن سينا .<sup>(٢)</sup>

فنظرية المعرفة السينية نظرية إشرافية في جوهرها . وهي ترتبط ارتباطا  
وثيقا بنظرية صوفية يمكن تسميتها « مشاهدة الذات الآلهية » وتنحصر السعادة  
الإنسانية الحقة في بلوغ هذه الغاية القصوى . وإذن فللنفس لديه وجهان : يتجه  
أحدهما نحو عالم الحس ، ويتجه الآخر نحو عالم الأمر أو الجنب الإلهي . وتستطيع  
النفس إدراك الصور أو المعاني الكلية عن طريق العقل بالفعل ، كما تستطيع  
الاتصال بعالم العقول عن طريق العقل المستفاد . وتلك المعرفة الأخيرة هي  
المعرفة الحقة . « والعارفون المتزهون إذا وضع عنهم مقارنة البدن ، وانفكوا  
عن الشواغل خلصوا إلى عالم القدس والسعادة ، وانتقشوا بالكمال الأعلى ،  
وحصلت لهم اللذة العليا ، وليس هذا الالتذام مقودا من كل وجه ، والنفس  
في البدن ؛ بل المنغمسون في تأمل الجبروت المعرضون عن الشواغل يصيبون ،

(١) سيأخذ ابن طفيل هذه الفكرة عن ابن سينا .

(٢) الخلاصة اللاهوتية : الجزء الأول السؤال ٨٩ فصل ٦ . وكتاب العلامة جيلسون :

Gilson, le thomisme p. 290.

وهم في الأبدان ، من هذه اللذة حظا وافرا قد يتمكن منهم فيشغلهم عن كل شئ .<sup>(١)</sup> « ولا يبعد أن يفضى بهم الأمر إلى أن يرتقوا في اللذات الحقيقية التي لا يمكن أن يشرحها بيان، ولا يكشف عنها مقال ، ولا يوازنها حال . »<sup>(٢)</sup> وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم ابن سينا اسم العارفين .

وهناك مراتب يرقى فيها هؤلاء . وهذه المعرفة الصوفية لا ينالها إلا من هو جدير بها وبالتقدير الذي هو أهل له . وقد وصف ابن سينا ذلك بقوله<sup>(٣)</sup> : « ثم إنه إذا بلغت به الرياضة والإرادة حدا ما عنت له خاسات من اطلاع نور الحق عليه ، لذينة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد عنه . وهو المسمى عندهم أوقاتا . وكل وقت يكتنفه وجدان : وجد إليه ووجد عليه . ثم إنه لتكثر عليه هذه الفواشي إذا أمعن في الارتياض . ثم إنه ليتوغل في ذلك حتى يشاه في غير الارتياض . فكلما لمح شيئا عاج منه إلى جانب القدس يتذكر من أمره فغشاها غاش ، فيكاد يرى الحق في كل شئ . ثم إنه لتبلغ به الرياضة مبلغا ينقلب له وقته سكينه ، فيصير الخطوف مألوفا والوميض شهايا ، وتحصل له معارفة مستقرة ، كأنها صحبة مستمرة . ويستمتع فيها بهيجته . فإذا انقلب عنها انقلب حيران أسفا . . . ثم إنه ليغيب عن نفسه ، فيلاحظ جناب القدس فقط . وإن لحظ نفسه فمن حيث هي لاحظة . . . وهناك يحق الوصول . »

والعبادة والصلاة وسيلتان إلى التحرر من عالم المادة وإلى الانصال بعالم الأمر . فإذا صفت النفس ، وسمت ، واستمدت لقبول الفيض وصلت إلى مرتبة ترى فيها أنوار العالم الإلهي . وهذا هو ما يطلق عليه الصوفيون اسم اللحظات أو الفلوات

(١) الإشارات والتنبيهات ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها ص ١٦ .

(٣) الإشارات والتنبيهات ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

أو الخلسات . ومثل هذه النفس لا تريد رؤية الحق لتحقيق غرض آخر سوى هذه الرؤية . فهي لا تتخذ العبادة والشوق سبيلاً إلى تحصيل الأجر والثواب في الحياة الآخرة ، وإنما تسلك طريق العبادة ، لأن الوجود الحق مستحق لها ، ولأنها نسبة شريفة إليه . فهو الغاية والمطلوب في ذاته . وقد عبر عن ذلك بقوله (١) : « الزهد عند غير المعارف معاملة ما ، كأنه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة . وعند العارف تنزه عما يشغل سره عن الحق ، وتكبر على كل شيء غير الحق . والعبادة عند غير العارف معاملة ، كأنه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة ، هي الأجر والثواب . وعند العارف رياضة ما لهممه وقوى نفسه . . ليجرها بالتعبود عن جناب الغرور إلى جانب الحق . . والعارف يريد الحق الأول لا لشيء غيره ، ولا يؤثر شيئاً على عرفانه وتعبد له فقط . »

وهكذا تبين لنا أن مشاهدة الذات الإلهية أرقى مراتب التصوف لديه . ويمكننا القول بأن ابن سينا هو الذى فتح الطريق واسعاً أمام مفكرى الإسلام بعده لتفسير نظرية المعرفة تفسيراً صوفياً . وسوف نرى تأثير هذه الآراء في تفكير ابن طفيل بصفة خاصة . وسنرى كيف ظل أبو الوليد بن رشد بعيداً عن هذه النظرية التى يطلق عليها « إرنست رينان » اسم « جنون المتصوفين الشرقيين » . وسيتاح لنا التنبيه على خطأ هذا المستشرق وغيره ممن نسبوا

---

(١) نفس المصدر ص ١٩٩ . وذكر أيضاً في رسالته السعادة ، طبعة حيدرآباد ص ٢ : « ثم السعادة قد يظن بها أنها الفوز باللذات الحسية والرياسات الدنيوية . وبين لمن تحقق الأمور أن اللذات الماحقة ليس شيء منها يسعادة ؛ إذ كل واحد منها لن يصفو لمتطايه من شوب المكروه . . . ومنها أن كل من يتطامها وينهمك فيها انقطعت السكينات الإلهية من صدره ، وامتنع الفيض الربوبى عن الحلول فيه ؛ لامتناعه عن قبوله . كما قال عليه السلام . ( إن الحكمة لتنزل من السماء فلا تدخل قلباً فيه ثم غد . . . ) فقد انضح أن هذه اللطاب ليست بالسعادة إلا على سبيل الحسابان . »

إلى فيلسوف قرطبة نظرية الاتصال بالله تعالى عن طريق المعرفة الصوفية فإن الحقيقة هي أنه نص على أن السعادة الإنسانية تنحصر في المعرفة العلمية الحقة ، وهي التي تقوم على إدراك العلاقات السببية بين الأشياء .

## ٨ — آراء الغزالي

كان أبر حامد مقلداً في هذه المسألة أيضاً ؛ ذلك أنه لم يفعل في الحقيقة سوى أن اقتفى آثار ابن سينا في التفرقة بين أربع قوى نفسية تقابل كل قوة منها عقلاً خاصاً . ومعنى ذلك أن للقوى العقلية مدارج أو مراتب ، وأن لكل مرتبة منها اسماً يحددها . ففي المرتبة الأولى نجد قوة ، هي اعتماد محض للإدراك ، مجردة من المعلومات أو الأشياء العقلية . وهذا هو شأن الصبي الذي يجمل المعاني للكليات المجردة ؛ ومع ذلك فإن في طبعه واستعداده تحصيلها فيما بعد . ويطلق على القوة العقلية في هذه الحال اسم العقل الهولاني ، أي المادى أو العقل بالقوة . وتأتي بعد ذلك مرتبة ثانية يدرك فيها الإنسان بعض المعاني ، سواء كانت بعض البديهيات أو الأوليات اليقينية — التي يدركها المرء من غير اكتساب ؛ لأنها فطرية فيه مثل علمه بأن الشيء الواحد لا يكون قديماً حديثاً ، ولا يكون موجوداً معدوماً ، والقول الواحد لا يكون صدقاً وكذباً — أم كانت من الحقائق المشهورة التي تتناقل بالسمع ، وهي أكثر ظهوراً في الصنائع والأخلاق وتسمى هذه القوة الثانية عقلاً بالملكة . أما المرتبة الثالثة فهي ما يطلق عليه الغزالي اسم العقل بالفعل ، ويريد بها أن الإنسان يستطيع استحضار الصور العقلية أو المعاني الكليات التي سبق له اكتسابها . وبين ذلك أن العالم يهتدى إلى معرفة حقائق معينة ثم يفعل عنها ، غير أنه يظل قادراً على استعادتها . فإذا تمثلت هذه المعاني في الذهن تحققت المرتبة الرابعة ، وهي العقل المستفاد . وإنما

سمى كذلك لأنه يستفيد هذه المعاني بأحد الأسباب الإلهية ، وهو العقل الفعال <sup>(١)</sup> .  
وهناك صلة وثيقة بين هذه القوى الأربع . فكل عقل من هذه العقول يسيطر  
على العقل الذى يسبقه ، ويخضع للعقل الذى يأتى بعده . فمثلا نرى أن العقل  
المستفاد — وهو آخر مراتب العقل الإنسانى — يسيطر على العقول الثلاثة السابقة  
وهو يمد غاية وتاجا لها ، كما أننا نجد أن العقل بالفعل يستخدم العقل بالملكة ،  
وأن العقل المهيولانى خادم للعقل بالملكة . ومعنى ذلك أن هناك تدرجاً فى الوجود  
بين هذه العقول المختلفة ، بأن يكون كل عقل منها مادة وصورة باعتبارين  
مختلفين . فهو مادة لما هو أسمى منه مرتبة وهو صورة لما هو أقل منه مرتبة .

وقد وضح أبو حامد هذه الصلة وذلك التدرج فى كثير من كتبه مستشهداً  
لذلك ببعض آيات القرآن الكريم ، وهى التى يقول الله تعالى فيها : « الله نور  
السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة  
كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد  
زيتها يضئ ولو لم تمسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب  
الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم . » فالنفس الإنسانية المستعدة بقطرتها  
لقبول المعرفة تشبه المشكاة . فإذا قويت ، فأدركت المعارف والبهديات الأولى ،  
أشبهت الزجاجة . أما إذا اشتد صفاؤها ، واستطاعت الوصول إلى مرتبة تدرك  
فيها معانى الأشياء عن طريق الفكرة الفعالة ، فإنها تشبه الشجرة ؛ لأن الشجرة  
ذات أفنان ؛ وكذلك التفكير أو الاستدلال العقلى ذو فنون <sup>(٢)</sup> . أما إذا بلغت  
مرحلة أكثر صفاء من تلك فإنها تشبه الزيت الذى يضئ ولو لم تمسه نار .

(١) أنظر مقاصد الفلاسفة مطبعة السعادة سنة ١٣٣١ هـ من ٢٩١ .

(٢) وفى موضع آخر ، هو مشكاة الأنوار ، شبه النزالى المشكاة بالروح الحاس والزجاجة بالروح

الحياى ، والسراج المنير بالروح العقلى ، والشجرة بالروح الفسكرى : مشكاة الأنوار ص ٣ .

وهذا هو ما يطلق عليه الغزالي اسم الروح القدس ، وهو روح الأنبياء والأولياء ؛ « إذ في الأولياء من يكاد بشرق نوره حتى يكاد يستغنى عن مدد الأنبياء ، وفي الأنبياء من يكاد يستغنى عن مدد الملائكة . » ومرتبة النبوة من أسبى المراتب التي يصل إليها العقل المستفاد ، لأنها تشبه النور الذي يكون مبهراً لنفسه ولغيره .<sup>(١)</sup> وروح القدس لدى الأنبياء يكاد زيته يضيء وحده . فإذا مسته النار فمن الأولى أن يصبح نوراً على نور . ويريد بالنار هنا الأرواح العالوية أو الملائكية .

وإذن يتضح لنا أن الغزالي كان من أنصار نظرية الإشراق والفيض<sup>(٢)</sup> ، إذ يرى أن المعرفة الإنسانية إنما تتم على صورة أنوار وأضواء تفيض من العقل الفعال على النفوس البشرية . وهو يرى من جانب آخر أن هذه الأنوار أو الأضواء لا تفيض إلا بشرط أن تكون النفس مستعدة لقبولها ، أى إلا إذا سرت قبل ذلك بمراحل الإدراك الأولى ، وهى الحس والخيال والوهم . وقد سبق

---

(١) مشكاة الأوار من ٣٧ - ٣٨ : « وهذه الخاصة توجد للروح القدس النبوى ؛ إذ تفيض بوسطه المعارف على الخلق . وبه يفهم تسمية الله سبحانه صلى الله عليه وسلم سراجاً مبيناً . والأنبياء كلهم سرج ، وكذلك العلماء ولكن التفاوت بينهم لا يحصى . »

(٢) لا أراد الغزالي تأويل معنى يد الله لئلا يلبس إلى نظرية الفيض فقال فى كتابه فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص ٨ : « واقته يعطى ويمنع بواسطة ملائكته ، كما قال عليه الصلاة والسلام أول ما خلق الله العقل فقال بك أعطى وبك أمتع . ولا يمكن أن يكون المراد بذلك العقل عرضاً كما يعتقد المتكلمون ؛ إذ لا يمكن أن يكون العرض أول مخلوق ؛ بل يكون عبارة عن ذات ملك من الملائكة يسمى عقلاً من حيث يعقل الأشياء بمجوهره وذاته من غير حاجة إلى تعلم ؛ وربما يسمى قلماً باعتبار أنه تنقش به حقائق العلوم فى ألواح قلوب الأنبياء والأولياء وسائر الملائكة وحياً وإلهاماً . . . ويجوز أن يكون لىء واحداً أسماء كثيرة باعتبار مختلفة ؛ فيسمى عقلاً باعتبار ذاته ، وملسكاً باعتبار نسبتة إلى الله تعالى فى كونه واسطة بينه وبين الخلق ، وقلماً باعتبار إضائته إلى ما يصدر عنه من نقش العلوم بالإلهام والوحى ، كما يسمى جبريل روحاً باعتبار ذاته ، وأميناً باعتبار ما أودع من الأسرار ، وذا مرة باعتبار قدراته ، وشديد القوى باعتبار كمال قوته ، ومكيناً عند ذى العرش باعتبار قرب منزلته . »

أن رأينا هذه الفكرة بعينها لدى الرئيس ابن سينا . وكأ أن هذا الفيلسوف الأخير استدل على وجود العقل الفعال بأن المعاني العقلية لا تختزن في النفس أو في البدن بل توجد في ذات خارجة عنهما ، كذلك فعل أبو حامد . فإنه ينص على أن المعاني تحضر في النفس ثم تغيب عنها . ويمكن أن نعود إليها ، دون حاجة إلى اكتساب جديد ؛ بل يسكنى أن تقبل عليها . وليس من المقبول عنده أن تنعدم هذه المعاني جملة متى غابت عن النفس ، وإلا فإنه يجب على المرء ، في هذه الحال ، أن يمر بنفس المراحل التي أدت به إلى اكتسابها في أول الأمر . وإذا تقرر أنها لا تنعدم ، فإنه يبقى أن نذكر أنها لا تختزن في النفس ، وإلا لوجب أن تكون هذه شاعرة بها . كذلك لا يمكن القول بأنها تختزن في البدن ؛ لأنه لا يصلح أن يكون مستودعا للمعاني العقلية التي لا تقبل الانقسام ، كما هي الحال فيما يتعاق بالجم . وهكذا يرى الغزالي أنه لا بد من التسليم بوجود جوهر مستقل توجد فيه هذه المعاني وتفيض منه عند الحاجة . فإذا حدث اتصال بين هذا العقل وبين النفس الإنسانية فاضت منه المعاني ، وارتسمت فيها ، كما ترسم في مرآة محاذية لها . وإذا أعرضت النفس عن هذه المعاني ، لاهتمامها بعالم الجسد ، انمحي ما تمثل فيها من قبل .

ومما لا ريب فيه أن الغزالي يحاول الجمع ، هو الآخر ، بين نظريتين مختلفتين لتفسير عماية الإدراك العقلي ، ونعني بهما النظرية المشائية والنظرية الأفلاطونية الحديثة . ويدل على أنه حاول هذه المحاولة أنه يتبع ابن سينا فيها عندما يرى أن القوة العقلية لدى الإنسان ، متى انجهدت تفحص الأمور الجزئية التي تحتوى عليها الصور الخيالية ، أشرق عليها نور العقل الفعال ، ولذا فإن المعاني السككية تبدو فيها مجردة عن كل أثر مادي أو خيالي ، وتنطبع في النفس الناطقة . وقد

يظن أنها تنتقل من الصور الخيالية إلى مرتبة الصور العقلية ، ولكن ليس الأمر كذلك ؛ لأن الذى يحدث هنا ، كما يتقد الغزالي ، هو أن اطلاع النفس على الصور الخيالية يعدها ويهيئها لأن تفيض عليها المعانى العقلية المجردة من ذات خارجة عنها . والسبب فى ذلك أن الأفكار والتأملات تعد النفس تحول قبول الفيض من العقل الفعال . وقد عرض الغزالي هذه الفكرة فى كتاب مقاصد الفلاسفة فقال : « فذلك أن المتخيلات المحسوسة ما لم تحصل فى الخيال لا يحصل منها المعانى الكلية المجردة . ولكنها فى ابتداء الصبى تكون فى حكم صورة مظلمة . فإذا كمل استعداد النفس أشرق نور العقل الفعال على الصورة الحاضرة فى الخيال ، فوقع منها فى النفوس المجردات الكلية ، حتى يأخذ من صورة زيد صورة الإنسان الكلى ، ومن صورة هـ ذا الشجر صورة الشجر الكلى ، وغير ذلك ، كما تقع من صورة المتلونات عند إشراق الشمس عليها مثلها فى الأبصار السليمة . والشمس مثال العقل الفعال وبصيرة النفس مثال قوة الإبصار ، والمتخيلات مثال المحسوسات . فإنها محسوسة مرئية بالقوة فى الظلام ، وفى العين مبصرة بالقوة ، فلا تخرج إلى الفعل إلا بسبب آخر ، وهو إشراق الشمس . فكذلك هذا . ومتى أشرق هذا النور ميزت القوة العقلية من الصور المنتقشة فى الخيال العرضى من الذاتى ، وميزت الحقائق من الأمور الغريبة التى ليست ذاتية ، فتسكون مجردة وتكون كلية أيضاً . »

وتختلف مراتب النفوس فى استعدادها لقبول هذه المعرفة الإشراقية . فقد أصغوا ، وعندئذ يصبح الفيض متواصلًا متواترًا متواليًا . وقد تنصرف عن الفكر جملة فتعرض عن جانب القدس . وبين هذين النوعين من النفوس مراتب يتفاوت الناس ، تبعًا لها ، قربًا وبعدًا من الله تعالى أما النفوس الصافية المشرقة

التي تطهرت من أدران البدن وشهواته فإن أنوار العلم تتألق فيها . ولذا فهي مؤيدة من قبله تعالى ، وهي ناقبة الحدس لا تحتاج إلى الفكر والنظر ، أي أنها إذا أدركت العلة أدركت المعلول في الوقت نفسه . وقد يكون هذا الحدس عقب طلب وشوق . وقد يكون من غير طلب أو اشتياق . فتقبض عليها المعقولات مصحوبة ببراهينها . ويصف ، الغزالي هذا النوع من النفوس بأنه يشبه أن يكون قد تجرد من ثياب بدنه ، فأصبح نوراً خالصاً ، واتصل بعالم القدس ، وتمثل لهقائق الأشياء مع وجودها خارج حسه . وعلى هذا النحو تتمثل الأنبياء والأولياء أشياء وصور مماثلة لجواهر الملائكة ، ويحدث ذلك لهم في اليقظة . « وينتهي إليهم الوحي والإلهام بواسطتها ، فيتلقون من الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في النوم ، وذلك لشدة صفاء باطنهم . »<sup>(١)</sup>

وهناك نفوس أخرى لا تستطيع تحصيل العلوم ومعرفة حقائق الأشياء إلا إذا استعانت على ذلك بالبدن ، وهي تلك التي تشرق فيها أنوار العقل الفعال على الصور الخيالية التي انتهت إليها عن طريق الحس . وهذه النفوس أدنى مرتبة من السابقة لأنها لا تكسب المعرفة عن طريق المشاهدة أو الذوق ، وإنما عن طريق الاستدلال العقلي ، وهو سبيل العلماء الراسخين في العلم . وأصحاب الذوق والمشاهدة هم الأولياء . وهم يشاركون النبي في بعض الأحوال ، وذلك لأن إيمانهم يجذبهم إلى جانب العالم الأعلى . أما العلماء فإنهم يقصرون عن الوصول إلى هذه المنزلة ، فلا يدركون المعاني إلا عن طريق الصور الخيالية ، وإلا بعد جهد ووقت طويلين . وقل أن يهتدوا إلى الحقائق دفعة واحدة . وهم معرضون للخطأ . فشتان

(١) فصل التفرقة — مطبعة السعادة ص ٦ .

ما بين مرتبة المشاهدة والذوق ومرتبة الاستدلال والعقل . (١) وتأتي في آخر المراتب نفوس تشبثت بالأوهام وضروب الخيال . وهذه هي مرتبة الغافلين عن كل معرفة ، سواء كانت ذوقاً أو مشاهدة أو استدلالاً .

وقد بنى الغزالي على آرائه السابقة نظريته في السعادة الإنسانية . فإن كمال النفس العاقلة لديه هو أن تدرك العلم وتسمو في تحصيله ، حتى تنقلب ، فتصبح عالماً عقلياً تنعكس فيه صور الكون وما ينطوى عليه من نظام وخير ، فتعلم أن هناك مبدأ واحداً تفيض منه جميع الكائنات بالتدرج ، وهي الجواهر الشريفة الروحانية المطهرة ، ثم الروحانيات التي تتصل بالأبدان على نحو ما ، وهي الحياة الحيوانية ثم الإنسانية ، ثم الأجسام العلوية بهيئاتها وقواها ، ثم كذلك حتى تستوفي في نفسها هيئة الوجود كله ، فتتقلب عالماً معقولاً موازياً للعالم الموجود كله . ويؤكد الغزالي هذا الرأي في مشكاة الأنوار ، فيقول إن الأنوار العقلية منتشرة في العالم العلوي والعالم السفلي ، وإنها تفيض بعضها عن بعض ، وإن الأرواح الملائكية مقتبس بعضها من بعض ؛ ولها مراتب ومقامات . وهي ترتقي في جملتها إلى نور الأنوار ، ومعناها ومنبعها الأول وهو الله وحده لا شريك له ، بمعنى أن كل الأنوار مستعارة منه ، وهو وحده النور الحقيقي ، ولا وجود لغيره إلا بالاجاز .

---

(١) قال الغزالي في كتابه مشكاة الأنوار ص ٥٢ : ولا يبعد ، أيها المعتدكف في عالم العقل ، أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل ، كما لا يبعد كون العقل طوراً وراء التمييز والإحساس ينكشف به غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز . فلا تجهل أقصى الكمال وفقاً على نفسك . وإن أردت مثلاً بما نشاهده من جملة خواص بعض البشر ، فانظر إلى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس . وهو نوع إدراك يمر منه بعضهم . وانظر كيف عظمت قوة الذوق في آخرين ، حتى استخرجوا منها الموسيقى والأغاني . . . وأما العاطل عن خاصية الذوق فإنه يشارك في سماع الأصوات ، وتضغف فيه هذا الأنا . وهو يذهب من صاحب الوجد النقي . ولو اجتمع العقلاء كلهم من أرباب الذوق على تفهيمه معنى الذوق لم يقدروا عليه . فهذا مثال في أمر خسيس ؛ لأنه قريب إلى فهمك . »

وإذا صعدت النفس في مدارج المعرفة ، وعلت تلك الحقائق ، فإنها تشهد الحسن المطلق والخير المطلق والجمال المطلق ، وتتحد به ، وتفخرط في سلكه ، وتصير من جوهره .

ومع ذلك فإن الغزالي ينفى فسكرة الاتحاد بين النفس والله ، تلك الفكرة التي قررها غلاة المتصوفة الذين لما لم يبق في أنفسهم مستمع لغير ذكر الله ، وغابوا عن ذكر أنفسهم « سكروا سكرا وقع دونه سلطان عقولهم ، فقال بعضهم أنا الحق ، وقال الآخر سبحانه ما أعظم شأنى ، وقال الآخر ما فى الجبة إلا الله . وكلام العاشق في حال السكر يطوى . . فلما خف عنهم سكرهم ، وردوا إلى سلطان العقل الذى هو ميزان الله فى أرضه ، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد ؛ بل يشبه الاتحاد ؛ مثل قول العاشق فى حال فرط العشق :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

. . . وتسمى هذه الحال بالإضافة إلى المستغرق فيها بلسان المجاز اتحادا ، ولسان الحقيقة توحيداً .<sup>(١)</sup> وهذه هي أرقى مرتبة يصل إليها العارف . ويعترف الغزالي بأنه من المستحيل أن يعرف المرء - أيا كانت منزلته - حقيقة الله تعالى ؛ لأنه لا يعلم حقيقة الله سوى الله ، كما لا يعلم حقيقة النبي إلا النبي ، كما أنه لا يعرف أحد حقيقة الجنة أو النار إلا بعد ورودها .<sup>(٢)</sup>

غير أن هذه السعادة لا تسكل إلا بعد الموت ، وهناك مختلف حظوظ الناس منها . فإن النفوس التي تشغل بالبدن ، فيلبيها ويصرفها عن الشوق ، وعن طلب السكال الذى قدر لها ، وعن الشعور بلذة هذا السكال ، لا تستطيع التخلص

(١) مشكاة الأنوار ص ٤٠ و ٤١ .

(٢) المقصد الأسنى ص ٢١

بعد الموت مما لحقها من ثقل البدن وشهواته ، ولذا فإنها تجب ولا يقدر لها الاتصال ، وتجد أن هناك نوعاً عظيماً من التضاد بين العالم الذي غادرته والعالم الذي انخرطت في سلسكته . وحينئذ يشتد بها الأذى . ومع ذلك فإن هذا الأذى لا يدوم أبداً الدهر لأنه لم يكن ذاتياً ؛ بل يرجع إلى أسباب عارضة . وإذن فلا تخلد هذه النفوس في العذاب أبداً الدهر ، وإنما تنمحي ذنوبها شيئاً فشيئاً ، حتى تصفو وتدرك السعادة التي قدرت لها .

غير أن هناك نفوساً انحدرت في مواطن الرذيلة كل الانحدار ، وهي نفوس المحجوبين عن السعادة . فهذه تلقى عذاباً شديداً ، وتبقى في العذاب المقيم ، إذا كانت قد اعتقدت آراء باطلة ، وتعصبت لها وجحدت الحق . والمحجوبين مراتب أو أصناف ذكرها الغزالي بالتفصيل في نهاية كتاب مشكاة الأنوار . فمنهم هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، وهم هؤلاء الذين يفضلون الحياة الدنيا على الآخرة . وهناك فريق محجوب بنور تشوبه ظلمة كعبدة الأوثان والأصنام والنار وعبدة النجوم . وثمة فريق آخر يحجبه خياله الغامد ، وهؤلاء هم طائفة الكرامية ؛ لأنهم يقولون بأن الله جسم يجلس على العرش .

وليس لنا أن نطيل أكثر من ذلك في عرض آراء الغزالي في التصوف<sup>(١)</sup> . ويمكن أن نقول إن فكرة الشقاء لديه تتلخص في أن تعجب النفس عن السعادة ، وأنه إنما يحال بينها وبين سعادتها ؛ لأنها تتبع شهواتها وتؤثر العالم الحسي ، ذلك العالم الخسيس ، على عالم الأمر . فإذا غابت عليها مثل هذه الرذائل والأوهام الباطلة ، ثم أدركها الموت ، فاتتها فرصة تحصيل المعرفة والرقى في معارجها . وهذا هو الألم العظيم والحسرة الكبرى التي لا حد لها .

(١) انظر بحثنا من «العقل» والتقليد في مذهب الغزالي» في كتابه : «أبو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده نشره المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

وهناك في آخر الأمر نفوس جمعت بين السكال في العلم والعمل . وهذه لها الدرجات العليا في السعادة ؛ لأنها تنزهت عما يشغل سرها من العالم الحسى واحتقرت كل ما فيه مما يظن أنه خير ، ولم ترض إلا أن تتجه إلى ذكر الحق ، لا لرغبة في أجر لأن زهداها هو الزهد الحقيقي . أما زهد غير العارف فهو معاملة ومعاوضة كأنما يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة . <sup>(١)</sup> ولذلك يقول الغزالي : « من يعبد الله للجنة فقد جعلها الله تعالى واسطة طلبه ولم يجعلها غاية مطلبه . . . وأما من لم يكن له محبوب سوى الله ولا مطلوب سوى الله ؛ بل حظه الابتهاج بقاء الله والقرب منه والمراقة للملأ الأعلى المقربين من حضرته فيقال إنه يعبد الله ، لا على معنى أنه غير طالب للحظ ؛ بل على معنى أن الله تعالى هو حظه ، وليس يبنى وراءه حظاً . » <sup>(٢)</sup>

#### ٩ - آراء ابن باجة

لم تؤثر آراء ابن سينا في فلاسفة المشرق وحدهم ؛ بل كان لأرائه في التصوف تأثير عميق في مذاهب المفكرين في أسبانيا الإسلامية . بيد أنه ينبغي لنا أن نذكر هنا أن هذا التصوف الشرقى اتخذ لوناً جديداً في ذلك القطر البعيد . فقد استطاعت الحضارة العربية في الأندلس أن تظل بريئة ، إلى حد ما ، من الاختلاط ببعض الثقافات الشرقية الأخرى كثقافة الهند أو فارس التي كان يرتبط فيها التصوف دائماً بالطقوس الدينية وضروب شتى من الزهد والتنسك . ويمكن القول بأن أسبانيا هي التي شهدت التصوف الإسلامى القائم على أسس من الفلسفة العربية والأغريقية حيث توجد فيها نظرية الفيض الشرقية جنباً إلى

(١) المقصد الأسنى ص ٣٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٨ ، وراجع بصفة خاصة صفحات : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .

جنب مع نظريتي النفس والعقل في الفلسفة الأرسطوطاليسية . وقد كان ابن باجة وابن طفيل أشهر ممثلي هذه المدرسة الجديدة . أما ابن رشد فقد استطاع أن يتحرر نهائياً من فلسفة المشاركة وأتباعهم في المغرب عندما طرح نظرية الفيض جانباً ، وولى وجهه صوب مذهب عقلي أكثر اتفاقاً مع فلسفة أرسطو .

أما ابن باجة<sup>(١)</sup> فإنه يفرق بين عقول أربعة هي : العقل الهولاني والعقل بالفعل والعقل المستفاد والعقل الفعال . وكان يرى كالفارابي أن لكل عقل من هذه العقول وظيفة مزدوجة . فهو مادة من جهة وصورة من جهة أخرى ، أي مادة للعقل الذي يليه وصورة للعقل الذي يسبقه . فمناك إذن نوع من التدرج في الوظائف العقلية لدى الإنسان . فالعقل المستفاد هو الذي يفيض من العقل الفعال ، وهو لدى ابن باجة مادة للصور العقالية التي تفيض عليه . ولكنه ، في

---

(١) هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ . ولد في سراقوسة في نهاية القرن الحادى عشر الميلادى . ثم رحل إلى أشبيلية ، وأقام حيناً من الزمن في غرناطة . ثم رحل إلى إفريقية ، ومات في مدينة فاس سنة ٥٣٣ هـ ( ١١٣٨ م ) . ويقال إنه مات مسموماً . وتبتم بعض الأطباء الذين نكسوا عليه علمه بقتله . وقد ذكر صاحب ميون الأنباى في الجزء الأول ص ٦٢ ، ٦٣ أنه « كان في العلوم الحكيمية علامة زوقه وأوحد زمانه . ولى بعن كثيرة وشهائات من العوام . وقصدوا إهلاكه حررات ، وسلبه الله منهم ، وكان متميزاً في العربيه حائناً للقرآن ، ويعبد من الأفاضل في صناعة الطب . وكان متقناً لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود . . . وكان في لطف الفروس على تلك النماى الجليلة المشرفة الدقيقة | الفلسفية | أعمجة دهره ونادرة الفلك في زمانه . فان هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة بالأندلس زمان الحكم مستجلبها ومستجلب غرائب ما صنف بالشرق . ونقل من كتب الأروائل وغيرها نصر الله وجهه . » وله مؤلفات ومقالات عديدة منها رسالة الوداع ، واتصال الإنسان بالعقل الفعال ، وشرح كتاب المباح الطبيعي لأرسطوطاليس ، وقول على بعض كتاب الأناار العلوية لأرسطوطاليس ، وقول على كل من كتاب السكون والفساد والحياة والنبات لأرسطو أيضاً . وله كتاب تدير الموحده ، وكتاب النفس ، وتعاليق على كتاب أبى نصر في الصناعة الذهبية ، وفصول قليلة في السياسة المدنية وكيفية المدن وحال الموحده فيها ، وكلام في الناية الإنسانية ، وكلام في الأمور التي يمكن الوقوف بها على العقل الفعال .

الوقت نفسه ، صورة لعقل أدنى مرتبة منه وهو العقل بالفعل . وهذا الأخير مادة له ، ولكنه من جهة أخرى صورة للعقل الهولاني .

وليس العقل الهولاني مجرد استعداد يحدث في الجسم كنتيجة لاختلاط العناصر فيه على نحو خاص ، ولكنه جوهر يشبه المادة من جهة قبوله لصور الأشياء فحسب . وقد ذكر أبو الوليد بن رشد أن ابن الصائغ كان ينكر تلك البدعة القائلة بأن العقل الهولاني ذات خالدة مشتركة بين جميع أفراد بني الإنسان . والحق أنه كان يرى أن هذا العقل فان ومثيل بالمادة . ومن ثم يتبين لنا أنه يتفق مع الفارابي في هذه المسألة .

وقد ذكر في أحد كتبه ، وهو « تدير المتوحد » ، نظريته في طبيعة العقول الإنسانية . وهو يميل إلى النسوية بين كل عقل منها وبين ما يقابله من المعقولات ، كما فعل أبو نصر من قبل أيضا . ومعنى ذلك أنه يسوى بين العقل بالفعل والمعقولات بالفعل ، وبين المعقولات التي أدركها الإنسان فعلا عن طريق الفيض وبين العقل المستفاد .

ولكن هناك ما يدعو إلى التفرقة بين هذين الفيلسوفين . فإن ابن باجة يذهب إلى القول بأن للمعقولات وجوداً حقيقياً وأنها تدرك بذاتها . فهي تفكر كالإنسان ، وإذا هي فكرت أصبحت عقلا مستفادا . أما إذا وجدت بالفعل ولم تفكر فهي عقل بالفعل . ويقسر لنا هذا إلى حد كبير عباراته المأهولة في كتابه سالف الذكر . فإنه يقول إنه من الممكن إدراك هذه المعقولات المجردة على أكمل وجه حينما تصبح جميع معارفنا أو الجزء الأكبر منها معقولة بالفعل . وحينئذ تصير المعقولات الأولى صورة للعقل بالفعل ، أي أنها تصير عقلا مستفادا . وإنما ذهب ابن باجة إلى النسوية بين مراتب العقل لدى الإنسان وبين معاني الأشياء

لأنه كان يريد أن يتخذها أساساً لحل مسألة الاتصال بالعقل الفعال الذى تفيض منه الصور العقلية وبالتالي مختلف العقول الإنسانية . فلهذه الصور لديه وجود خاص حقيقى ، كما كان يقول بذلك أفلاطون . فإذا فاضت على الإنسان أصبحت عقلاً هيولانياً أو بالفعل أو مستفاداً ، وذلك تبعاً لوجودها بالقوة أو بالفعل أو لسبق إدراكها .

ويشغل العقل الفعال فى نظرية المعرفة لدى أبى بكر بن الصائغ نفس المكان الذى كان يشغله فى هذه النظرية نفسها لدى كل من الفارابى وابن سينا والغزالى . فهذا العقل صورة مجردة عن المادة غير قابلة للانقسام . فعلمه واحد لا يتعدد بتعدد الأجناس والأنواع التى تفيض منه . فإذا تعددت صور الأشياء أو معانيها فذلك يرجع إلى وجودها فى المادة ، وتلك الأخيرة كما يقول أرسطو هى السبب فى اختلاف الأفراد . ولكن هذه الصور الراهنة التى توجد فى الأشياء المادية ليست فى العقل الفعال سوى صورة واحدة مجردة . وليس معنى التجريد هنا هو معناه لدى أرسطو ، أى أنها لم تكن موجودة فى المواد ثم انتزعت منها . ويرى ابن باجة أن تحصيل الصور العقلية بتأثير العقل الفعال هو الذى ينتقل بالعقل الإنسانى من مجرد الاستعداد إلى مرتبة العقل المستفاد . ولا يتم هذا الأخير إلا إذا اتحد العقل بالفعل مع العقل الفعال ، أى إذا فاضت عليه المعانى .

ويمكن إجمال هذه النظرية بأن الصورة الجوهرية للإنسان فى مذهب ابن باجة ، صورة عقلية بالفعل « intelligible en acte » تسمى عقلاً بالفعل . ويستطيع هذا العقل بفضل التأمل أن يفكر فى ذاته على النحو الذى تدرك به العقول المفارقة أو الملائكة ذواتها . وهذا النوع من الحدس العقلى هو الذى يسمو بالإنسان عن مرتبة جميع الكائنات المادية . ويطلق هذا الفيلسوف

على عملية الحدس العقلي اسم الاتصال بالعقل الفعال ، وفيها يتحد العاقل مع المعقولات بالفعل ، وحينئذ لا يفكر في شيء آخر سوى ذاته .<sup>(١)</sup> وقد ذكر أن الإنسان ينتهى بالدرس والتأمل إلى إدراك هذه الصور المثالية التي تقوم بذاتها وتعتبر معاني المعاني . وأسمى العقول هو العقل المستفاد ، وهو فيض من العقل الفعال الذي ينتهى به المرء إلى إدراك نفسه كسكان عتلى .<sup>(٢)</sup>

وقد أفاد ابن رشد من نظرية الحدس العقلي لدى ابن باجة فائدة كبرى . وذلك على الرغم من أنه اتجه في تفسير المعرفة اتجاهاً أرسطوطاليسياً بحتاً . ومعنى ذلك أنه يقول بنوع آخر من الحدس العقلي الذي لا تحتاج فيه النفس إلى الاستعانة بشيء خارج عنها حتى تدرك ذاتها .<sup>(٣)</sup>

#### ١٠ - آراء ابن طفيل

ينتمي ابن طفيل<sup>(٤)</sup> إلى تلك المدرسة الفلسفية التي يطاق العرب على أتباعها

(١) أنظر كتاب مونك : *Mélanges de philosophie juive et arabe*, p. 407

(2) *Ibid* 403

(٣) سنرى فيما بعد أن ابن رشد يخالف كلام الفارابي وابن باجة من جهة أنه يسوى بين كل من العقل المكتسب والعقل بالفعل ؛ فهما لديه شيء واحد . وسنلاحظ أنه لا يستخدم قط لفظ الفيض في شرح المعرفة العقلية . ولما لم يظن دوهم « Duhem » إلى هذا الفارق الكبير بين النظريتين اعتقد أن فيلسوف قرطبة أخذ عن ابن باجة فكرته في الاتصال . وهناك فارق آخر خفي على « دوهم » وهو أن العقل المكتسب لدى ابن رشد سابق لعملية الحدس العقلي ، لا لاحق لها كما كان يرى ابن باجة .

(٤) هو أبو بكر محمد بن هيد الملك بن طفيل القيسى . ولد في السنوات الأولى من القرن الثاني عشر الميلادي في مدينة قادش من أعمال غرناطة . وذاعت شهرته كصليب ورياضي وفيلسوف وشاعر . ونال حظوة كبرى لدى دولة اللوحدين ، فاتمخذه أبو يعقوب يوسف ، ثاني ملوك هذه الدولة ، وزيراً له وطبيباً . وكان من القرين إليه . وقد ذكر ابن الخطيب أن ابن طفيل قام بتدريس الطب في غرناطة ، وأنه ألف في هذا العلم مجلدين وقد عني

اسم « الإشرقيين » . وقد حاول هذا الفيلسوف في كتابه « حى بن يقظان » معالجة ذلك الموضوع الذى شغل تفكير الفلاسفة المسلمين ردحاً طويلاً ، ونعنى به مسألة اتصال العقل الإنسانى بالعقل الفعال .

ومن الثابت أن رأيه فى هذا العقل الأخير لا يختلف فى شىء عن رأى الإسكندر الأفروديسى . ولذلك فإننا نفهم الآن معنى تلميح ابن رشد حين يقول : إن الفلاسفة فى أيامه يعتقدون أن المرء لا يستطيع أن يكون فيلسوفاً بمعنى الكلمة إلا إذا كان على مذهب الإسكندر . فلا شك فى أنه كان يقصد أبا بكر ابن طفيل بهذه العبارة .

وقد أعطانا ابن طفيل فكرة واضحة عن فلسفته ورأيه فى مشكلة الاتصال فى كتابه آنف الذكر ، ذلك الكتاب الذى يمكن وصفه بأنه محاولة منهجية جريئة يبين لنا فيها كيف يستطيع الإنسان أن يصعد فى مدارج المعرفة بالتفكير والرياضة النفسية ، حتى يرتفع عن عالم الأشياء المادية ، فيرقى إلى عالم العقول المفارقة أو الملائكة ، ثم يقف فى نهاية الأمر فى الوجود الأول . وعندئذ يستطيع أن يشاهد فى هذه الذات جميع الحقائق ويدرك جميع الكائنات ، روحية كانت أم جسمية . وليس ثمة زيب فى أنه تأثر بأراء ابن سينا تأثراً كبيراً . فإنه أخذ عنه نظرية المعرفة الصوفية ، وهى التى يمكننا أن نطلق عليها لديه اسم مشاهدة الإله .

ولن نعرض بالتفصيل لذكر حياة « حى بن يقظان » الذى تآزرت جميع العوامل الطبيعية على إيجاده والسهرة عليه حتى استوى عوده ، وانقلب كائناً

---

— أبو بكر محمد العلماء فى بلاط دولة الموحدين . وهو الذى قدم ابن رشد للملك ، لى يقوم بتحليل كتب أرسطو وشرحها . ولم يبق لنا من مؤلفاته سوى كتابه المعروف « حى بن يقظان » . وقد نوى ابن طفيل يراکش سنة ١١٨٥ م .

مفكراً ، فأخذ يدرس كل ما يقع تحت نظره وسمعه في تلك الجزيرة النائية التي شهدت ميلاده ونشأته . ثم انتهت به المعرفة إلى إدراك أن جميع ما يراه من الموجودات إنما نشأ بسبب خالق . ثم ألحت عليه فكرة هذا السبب الأول في كل شيء ، فذهل عما كان فيه من تصفح المخلوقات والبحث عنها ، « حتى صار بحيث لا يقع بصره على شيء إلا ويرى فيه أثر الصنعة ، فينتقل بفكره على الفور إلى الصانع ، ويترك المصنوع ، حتى اشتد شوقه إليه ، وانزعج قلبه بالكيفية عن العالم المحسوس ، وتعلق بالعالم الأرفع المعقول . »<sup>(١)</sup>

وكان اهتداؤه إلى معرفة الإله سبباً في توجيهه إلى معرفة نفسه . فإنه تبين له أنه إنما أدرك هذا الوجود الأول لوجود ذات روحية في جسمه . وهذه الذات لا تحتوي على شيء من صفات الأجسام . ثم فكر ودبر ، فوجد أن هذه الذات هي حقيقته ، وإن كانت لا تقع تحت الحس . وتبين له أن الجسم ليس بشيء .<sup>(٢)</sup> فإنه يتحلل وينقص ويفنى . وأما النفس فلما كانت جوهرًا بسيطًا فإنها خالدة . وأدرك كذلك أن كاله لا يكون بسبب الجسم ، وإنما ينحصر في مشاهدة الذات الأولى ، أى الوجود الحق ، مشاهدة دائمة . وكان يحرص على التفكير في هذا الوجود ، ولا يغفل عنه ما استطاع حتى « توافيه منيته ، وهو في حال المشاهدة

---

(١) أنظر « حى بن يقظان » مطبعة ابن زيدون بدمشق الطبعة الأولى ١٩٣٥ م ، ص ٨٦ . وكتاب فلسفة ابن طفيل ورسائله حى بن يقظان للدكتور عبد الحليم محمود ص ١١٤ مطبعة القاهرة .

(٢) نفس المصدر — طبعة دمشق — ص ٩٩ : « وأما أشرف جزأيه فهو الشيء الذى به عرف الموجود الأول الواجب الوجود . وهذا الشيء العارف أمر ربانى لهى لا يتخيل ولا يلحقه الفساد ، ولا يوصف بشيء مما توصف به الأجسام . ولا يدرك بشيء من الحواس ، ولا يتخيل ولا يتوصل إلى معرفته بآلة سواء ؛ بل يتوصل به إليه . فهو العارف والمعروف والمعرفة ، وهو العالم والمعلوم والعلم ، لا تباين في شيء من ذلك ؛ إذ التباين والانفصال من صفات الأجسام ولو احقها . »

فمتصل لذته دون أن يتخللها ألم . « (١)

كذلك لاحظ أنه من العسير عليه أن يتخلص جملة من تأثير العالم الحسى الذى كان يكتنفه من كل جانب . فإنه وجد — على الرغم من أنه كان يحرص على التمسك في الخلق ويمجد في ذلك سعادته — أن حواسه وخياله ما برحت تشغله وتصرفه عما هو فيه ، وكان يلقى كثيراً من العناء والمشقة إذا حاول الرجوع إلى المشاهدة . وكان لا يستطيع ذلك إلا بعد جهد شديد .

ولما أدرك أن نفسه خالدة أراد أن يعلم حالها لو استطاعت التحرر من البدن في أثناء وجودها في هذه الحياة فاهتدى إلى أن للانسان حالات ثلاثا : فإن فيه بدنا وروحاً حيوانياً وجوهرأ عاقلاً . فإذا غلبت عليه الحال الأولى كان كسائر الحيوان منصرفاً إلى مطالب الجسد . وإذا غلبت عليه الحال الثانية فلربما استطاع أن يشاهد الحق ، ولكن مشاهدته إياه ليست على كمالها ؛ وذلك لأنه يعقل ذاته في الوقت نفسه . أما في الحال الثالثة فإنه يستطيع أن يدرك الغاية الكبرى ، وهى المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض «الذى لا التفات فيه بوجه من الوجوه إلا إلى الموجود الواجب الوجود . والذى يشاهد هذه المشاهدة قد غابت عنه نفسه وفنيت وتلاشت . « (٢) .

ولكن ما السبيل إلى إدراك هذه اللذة الكبرى ؟ يقول ابن طفيل : إن «حى بن يقظان» كان يلزم مغارته مطرقاً منصرفاً عن جميع ما يشغل حواسه وقواه الجسمية ، وكان يجمع فكره ويوجه همه إلى الوجود الواحد ، فإذا عنت له فكرة أخرى غيره ، أو سنيح لخياله سانح سواء ، «طرده عن خياله جهده ، ودافه

(١) نفس المصدر ص ٩٢ .

(٢) نفس المصدر ص ١١٢ .

وراض نفسه على ذلك ، ودأب فيه مدة طويلة ، بحيث تمر عليه عدة أيام لا يتغذى فيها ولا يتحرك . وفي خلال شدة مجاهدته هذه ربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الذوات إلا ذاته . فإنها كانت لا تغيب عنه في وقت استغراقه بمشاهدة الوجود الأول الحق الواجب الوجود . فكان يسوؤه ذلك ، ويعلم أنه شوب في المشاهدة المحضة ، وشركة في الملاحظة . وما زال يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص في مشاهدة الحق ، حتى تأتي له ذلك ، وغاب عن ذكره وفكره السموات والأرض وما بينهما ، وجميع الصور الروحانية ، والقوى الجسمانية ، وجميع المواد المفارقة للمواد ، والتي هي الذوات العارفة بالموجود ، وغابت ذاته في جملة تلك الذوات ، وتلاشى الكل ، واضمحل وصار هباء منثورا ، ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود ، وهو يقول بقوله الذي ليس معنى زائدا على ذاته : لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ..»<sup>(١)</sup>

فلما فنيت نفسه على هذا النحو شاهد ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وعجز عن وصف ما رأى . فإن من يروم التعبير عن المشاهدة الصرفة يشبه رجلا يريد أن يذوق الألوان .

وقد وصف لنا ابن طفيل حال المشاهدة على نحو يقربها إلى الخيال فقال : إن « حى بن يقظان » لما فنيت نفسه في مشاهدة الوجود الأول ، ثم رجع إلى عالمه الحسى ، كان كرجل أفاق مما يشبه السكر . فعلم أن هذا العالم الدنيوى ليس إلا ظلا وخيالا للعالم الهى .<sup>(٢)</sup> ثم عننت له هذه الفكرة ، وهى أنه « لا ذات له يغاير بها ذات الحق تعالى ، وأن حقيقة ذاته هى ذات الحق ، وأن الشئ

(١) نفس المصدر ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) نفس المصدر ص ١٢٤ .

الذى كان يظن أولاً أنه ذاته المغايرة لذات الحق ليس شيئاً في الحقيقة . «  
ويمكن تشبيه هذا الأمر لديه بنور الشمس والأجسام المادية . فإنه إذا وقع عليها  
ظهرت ألوانها . وربما ظن المرء أن هذه الألوان ذاتية فيها . ولكن ليس الأمر  
كذلك . فإن نور الشمس يظل على حاله ، سواء أ كانت الأجسام موجودة أم  
غير موجودة . ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله . ثم عرضت له  
هذه الشبهة ، وهى كيف تحدث الكثرة في هذا العالم ؟ ولكنه ما لبث أن فطن  
إلى أنها ثارت عنده بسبب بقايا ظلمة الأجسام وكدورة المحسوسات . فإن  
الكثير والقليل والوحدة والاجتماع والافتراق هى كلها من صفات الأجسام .  
ولذلك فإنه لا يجوز بحال ما استخدام مثل هذه الألفاظ في وصف الذات العاقلة  
التي تدرك ذات الإله بسبب تجردها من المواد . وليس ينبغى أن يوصف  
العالم الإلهى بلغتنا الإنسانية ؛ لأنها مطية الخطأ وسبيل إلى عدم التفرقة بين عالم  
الحس وعالم العقل الذى لا يعرفه إلا من شاهده .

وينبغى لنا أن نذكر أن المشاهدة الصوفية لدى ابن طفيل تعد سبيلاً إلى  
معرفة الكائنات على نحو مضاد للمعرفة العقلية المألوفة . فإن « حى بن يقظان » ،  
بعد أن سلك صاعداً طريق الوصول إلى إدراك الذات الإلهية ، عاد يهبط من  
مشاهدتها إلى إدراك جميع الكائنات التى كانت سبباً في توجيهه أول الأمر .  
ذلك لأنه لما استغرق استغراقاً ، وفى فناء تاماً ، رأى أن الموجودات تفيض من  
الذات الأولى على النحو الذى ذكره من قبل كل من أبى نصر وابن سينا .  
ومعنى ذلك أنه ربط التصوف هنا بنظرية الفيض المأخوذة عن الأفلاطونية  
الحديثة . فذكر أن هناك تدرجاً في الوجود . وأن هناك أفلاكاً لكل منها  
عقل أو ملك يدبره . وليست هذه العقول متحدة في النوع ، ولا يمكن القول  
بأنها هى التى قبلها ولا هى غيرها ، فإن الاتفاق والاختلاف لا ينطبق إلا على

الأشياء المادية . وقد شبه ابن طفيل الصلة بين هذه العقول بهذا المثال فقال :  
إنها شبيهة بالمرايا المتتالية التي تعكس جميعها صورة الشمس .<sup>(١)</sup> وينتهي الفيض  
إلى مرتبة هذا العالم الحسى . وتسيطر عليه ذات روحية . « ولهذا الذات سبعون  
ألف وجه ، وفي كل وجه سبعون ألف فم ، وفي كل فم سبعون ألف لسان  
يستبح بها ذات الواحد الحق ويقدها ويمجدها ... ورأى لهذه الذات التي توهم  
فيها الكثرة ، وليست كثيرة ، من الكمال واللذة مثل الذي رآه لما قبلها ، وكان  
هذه الذات صورة الشمس التي تظهر في ماء مترجرج قد انعكست إليها الصورة  
من آخر المرايا التي انتهى إليها الانعكاس على الترتيب المتقدم من المرآة الأولى  
التي قابلت الشمس بعينها . »<sup>(٢)</sup> .

والنفوس الإنسانية جزء من العقل الأخير لو جاز لنا القول بأنه يقبل التعدد  
والكثرة . ولو لم تكن النفس حادثة لقلنا إنها هي نفس هذا العقل ، ولو لم تكن  
خاصة بيدن معين لقلنا إنها لم تحدث .<sup>(٣)</sup> ولما انتهى « حى بن يقطان » إلى هذه  
المرحلة الأخيرة شاهد نفوساً فارقت أبدانها جملة ، ونفوساً أخرى لم تفارق  
أجسامها بالموت . غير أنها استطاعت أن تتحرر منه بالفكر والزهد في عالم  
الحس . وكانت هذه النفوس من الكثرة إلى حد لا نهاية له ، إذا صح القول  
بأنها متعددة . وكانت تبدو واحدة إن جاز القول بأنها واحدة . ومعنى ذلك أنها

---

(١) نفس المصدر ص ١١٩ : « وما زال يشاهد لكل فلك ذاتا مفارقة بريئة عن المادة ،  
ليست شيئاً من الذوات التي قبلها ولا هي غيرها ، وكأنها صورة الشمس التي تنعكس في مرآة  
على مرآة على رتب مرتبة بحسب ترتيب الأفلاك ، وشاهد لكل ذات من هذه الذوات من  
الحسن والبهاء مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، إلى أن انتهى إلى  
عالم الكون والفساد . »

(٢) نفس المصدر ص ١٢٠ .

(٣) نفس المصدر ص ١٢١ .

بجردة من كل مادة ، فلا يصح وصفها بأنها كثيرة أو واحدة . ورأى هناك أيضاً نفوساً ران عليها الحبث ، فبدت كمرايا يعلوها الصدا ، وقد ولت وجهها عن صورة الشمس . وكانت هذه النفوس ترزح في آلامها وحسراتها .<sup>(١)</sup> ورأى فيما عدا ذلك كائنات تلوح وتضمحل ، فأنعى فيها النظر « فرأى هولاً عظيماً وخطباً جسيماً وخلقاً حثيثاً .. وتسوية ونفخاً ، وإنشاء ونسخاً . » ثم ما لبث أن عادت إليه حواسه وغاب عنه العالم الإلهي .

ولما شاهد ما شاهد ثم عاد إلى العالم المحسوس لج<sup>٢</sup> به الهوى والشوق إلى الرجوع مرة أخرى نحو عالم المشاهدة . فرأى أنه لما سلك السبيل الأولى ، سبيل التفكير والانصراف عن مطالب الجسد ، استطاع العودة على نحو أكثر يسراً منه في المرة الأولى ، وقدّر له المكثُ مدة أطول ، وما زال يقبل ويدبر ، حتى انتهى في آخر أمره إلى مرتبة يستطيع فيها الانصال متى شاء . وكان لا ينصرف عن عالم العقل إلا للضرورة القصوى ، أي لمطالب بدنه التي قلبها إلى حد كبير . « وهو في ذلك كله يتمنى أن يريجه الله عز وجل من كل بدنه الذي يدعوهُ إلى مفارقة مقامه ذلك ، فيتخلص إلى لذته تخلصاً دائماً ، ويبرأ عما يجسده من الألم من الإعراض عن مقامه ذلك إلى ضرورة البدن . » ذلك لأنه كان يعلم أن النفس الإنسانية التي اهتدت إلى معرفة الله على هذا النحو قبل أن تفارق البدن ، وداومت على حال الانصال والمشاهدة وأقبلت عليها بكليتها ، تخلد راضية مطمئنة ، وتظل في لذة لانهاية لها لتخلصها من جميع أدران البدن ومطالبه في أثناء الحياة الدنيا .

---

(١) نفس المصدر ص ١٢١ : « وشاهد ذواتنا كثيرة مفارقة للمادة كأنها مرايا صدئة قد ران عليها الحبث ، وهي مع ذلك مستديرة للمرايا الصقيلة التي ارتسمت فيها صورة الشمس ومولية عنها وجوها ، ورأى لهذه الذوات من القبح والنقص ما لم يرق قط بياله ، ورآها في آلام لا تنقضي وحسرات لا تنسى ، وقد أحاط بها سراقق المذاب وأحرقها نار الحجاب : »

أما النفوس الجاهلة التي لم يتبح لها إدراك الوجود الأول فإنها تهلك ، وتنفى بقاء  
أجسامها ، كما هي حال البهائم والأفاعى . وأما النفوس التي عرفت وجود الإله ،  
ولكنها أعرضت وانصرفت عنه إلى لذاتها الجسمية فإنها تحرم من المشاهدة ،  
مع شدة شوقها إليها ، وتظل هكذا في عذاب طويل وآلام لانهاية لها .

وإنما نرى أن ابن طفيل لا يكاد يختلف في هذه المسألة الأخيرة عن أبي نصر  
الفارابي الذي سبقه إلى القول ببقاء بعض النفوس الإنسانية وخلود بعضها الآخر :  
إما في العذاب وإما في النعيم الروحيين . ومع ذلك ، فإنه يختلف عنه من جهة أنه  
يقرر إمكان الاتصال بين النفس الإنسانية وبين الذات الإلهية ، لا بينها وبين  
العقل الفعال .

ولسنا في حاجة إلى تقرير هذا الأمر بالتفصيل ، وهو أن ابن طفيل كان  
أقرب فلاسفة الإسلام إلى آراء الإسكندر . فإنه يرى مثله أن العقل الإنساني  
ليس بشيء ذى بال ، وأن الله هو الذى يفكر فى نفوسنا . كذلك يرى بوضوح  
أن تصوفه تصوف تقليد تغلب عليه مسحة مذهب وحدة الوجود .

ومن ثم ، فإن هذا الفيلسوف كان أستاذاً لمن زعموا فى الغرب أنهم أتباع  
ابن رشد . وهم هؤلاء الذين كانوا يقولون بأن العقل الإلهى متصل تمام الاتصال  
بالنفوس الإنسانية . وليس من العدل أن يوجه « توماس الأكوينى » نقده إلى  
أبي الوليد . فإن هذا الأخير صرح أكثر من مرة واحدة باختلافه مع الإسكندر  
الأفروديسى فيما يتعلق بطبيعة العقل المادى . وسوف نفهم مدى اهتمام ابن رشد  
بتحديد تلك الطبيعة فى كثير من كتبه وشروحه ؛ لأنه كان يريد الخلاص من  
تأثير آراء الإسكندر ، ومن تصوف الفلاسفة المسلمين .

وهذا هو ما سنقوم بالتدليل عليه لا ببعض العبارات العامة الغامضة ؛ بل

بنصوص موثوق بها لم يمتد إليها عبث المترجمين الذين كانوا لا يستطيعون  
التفرقة بين فلسفة أبي الوليد وفلسفة غيره من مفكرى الإسلام .

### ١١ — ابن رشد

كان أبو الوليد أول فيلسوف مسلم استطاع التحرر تماماً من آراء الإسكندر  
الأفروديسى . وإنما رغب عن هذه الآراء ، لأنه كان يرى أنها لا تتفق بحال  
ما مع نظريته القائلة بوحدة النفس كذات روحية مستقلة تستخدم البدن كآلة  
لها . ذلك أن القول — مع الإسكندر أو ابن طفيل — بأن العقل الهولانى  
قابل للفساد والفناء معناه أن للنفس ، وهى جوهر بسيط ، جزئين أحدهما خالد  
والآخر فإن ، ومعناه أيضاً — كما يقول الفارابى — أنه من المستحيل أن يتحد  
العقل الماهى مع العقل الفعال اتحاداً تاماً .<sup>(١)</sup>

ومع ذلك ، فإنه ينبغي لنا ألا نخطئ في فهم ابن رشد ، فنعتقد أنه يتكلم  
بلغة الأفلاطونية الحديثة . فإن لفظ الاتحاد أو الاتصال مبهم ، وهو يحتمل أكثر  
من معنى واحد . لكن الشارح الأكبر يستخدمه هنا فى معنى خاص جداً .  
وذلك لأن العقل الفعال ليس خارجاً عن النفس الإنسانية .<sup>(٢)</sup> وليست العقول  
المتخلفة لدى هذا الفيلسوف ، سوى مظاهر متعددة للنفس . وليس العقل الفعال  
نوعاً آخر من النفس ، كما كان يظن أرسطو ، ولكنه جوهرها ، وهو العملية  
الأساسية فى كل نفس جزئية .

وإذا أردنا فهم رأيه الحقيقى فى هذه المسألة وجب علينا أن تتبعه ، وأن نبحث

[١] De Beatitudine animae. fol 26 V-C-1 .

[٢] Ibid. fol. 27 R. C-2.

عن الأسباب التي دعت إلى الإلحاح في بيان طبيعة العقل المادى . فإن فكرته عن هذا العقل مفتاح لمذهبه الفلسفى فيما يتعلق بنظرية المعرفة . وإن اهتمامه بمخاق رأى جديد خاص بطبيعة العقل المادى يدلنا على أنه كان يرمى إلى تأكيد وحدة النفس ، وإلى حل تلك المشكلة المعقدة التي تركها أرسطو لشراحه دون البت فيها .

يفرق فيلسوف قرطبة بين عقول ثلاثة هي : العقل المادى والعقل بالفعل والفعل الفعال . وكل هذه العقول توجد داخل النفس . فهى إذن ثلاثة مظاهر نفسية . وينشأ الأولان منها بسبب اتحاد النفس بالبدن . وأما الثالث فإنه دليل على استقلال ذلك الجوهر البسيط ، على الرغم من اتصاله بالبدن .

أعد عرف أرسطو العقل المادى بأنه جزء النفس الذى يستعد لإدراك جميع المعقولات . أما ابن رشد فيقول إنه هو النفس ذاتها حين تكون على هيئة استعداد لإدراك معانى الأشياء . وحينئذ فهذا العقل لديه ذات أو جوهر روحى . ولما كان لا يتأثر بالمعقولات التي يدركها فإنه غير جسمى .<sup>(١)</sup> وليس من الممكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك ؛ فإن السبب فى الإدراك ينحصر فى التجرد عن المادة .<sup>(٢)</sup> ويثبت ، تبعاً لذلك ، أن هذا العقل لا يستخدم أى عضو جسمى . وهذا هو الفارق بينه وبين الوظائف الحسية . ولذلك فإنه يجب التسليم بأنه مجرد عن المعانى التي يقبلها ، وعن الجسم فى آن واحد . ومن الواجب أيضاً أن يكون غير منقسم بانقسام الجسم ، كما هو الحال فيما يتعلق بالحواس التي تراها موزعة فى مختلف أعضاء البدن . وفى الواقع لو كان العقل المادى قوة جسمية كالحس

(١) تهافت التهافت طبعة بيروت من ٥٦٧ .

(٢) نفس المصدر . ٤٣٤ .

لما استطاع أن يدرك سوى صورة عقلية في نفس الوقت . فإنا نعلم أن المادة الحسية لا تستطيع أن تقبل إلا صورة واحدة في وقت واحد . وهناك سبب آخر في وجوب تجرده ومفارقتة للجسم . وذلك لأنه لو كان مختلطاً به لما استطاع أن يدرك نفسه . (١)

ومن جهة أخرى ، لا يمكن القول بأن الاتحاد بينه وبين الصور العقلية تام من كل وجه ، كما كان يظن الفارابي وابن باجة بصفة خاصة . (٢) فليست الصور العقلية للأشياء الحسية أو المعقولات هي العقول الإنسانية . وإنما كان من الواجب أن يكون مجرداً من كل صورة عقلية لأنه لو اتحد بإحدى هذه الصور ليستكمل بها فإن هذه الصورة إما أن تحول دون إدراك الصور الأخرى ، وإما أن تكون سبباً في تنبير هذه الصور وقت قبولها ، أى حلولها فيه . (٣)

حقاً إن ما ذكره أبو الوائيد في وصف العقل المادى يوجد لدى أرسطو ماعدا هذه الفكرة ، وهى أن هذا العقل ليس صورة للجسم ، ولكنه جوهر غير جسمى يقوم من الجسم مقام الصورة من المادة . فهذه هى النقطة التى يختلف بها عن الفيلسوف الإغريق ، ومعنى ذلك أن ابن رشد ينقلب فيلسوفاً بدلاً من أن يظل شارحاً . وقد بدأ بتعريف هذا العقل بقوله : « فنقول إنه يجب أن تسكون هذه القوة القابلة للمعقولات غير منفصلة أصلاً ، أى غير قابلة للتغير الذى يعرض للقوى المنفصلة من قبل مخالطتها للموضوع الذى توجد فيه هذه القوى . . . . وقد تصور

(١) نفس المصدر . ص ٥٥٨ .

(2) De Beatitudine animae, fol 24, V.C.2 ; Ibid, fol 25, R.C.

(٣) كتاب النفس عن اتصال العقل الحيوانى بالفعل الفعال .

Ludwig. Hannes, Abhandlung über die Möglichkeit der contunktion Pages, 21 — 22,

هذه القوى على طريق التمثيل . وذلك أنها القوة التي نسبتها إلى المعقولات نسبة قوة الحس إلى المحسوسات ، إلا أن القوة التي تقبل المحسوسات هي مخالطة الموضوع الذي توجد فيه مخالطة ما . وأما هذه القوة فيجب أن تكون غير مخالطة لصورة من الصور الهيولانية أصلاً . . . وذلك لأنها لو كانت مخالطة لصورة من الصور للزم فيها أحد أمرين : إما أن تعوق صورة الموضوع . . . وإما أن تغيرها » .<sup>(١)</sup>

ويتبين لنا إذن أن ابن رشد يفسر عبارة أرسطو على نحو جديد فيقول : إن العقل غير مخالط أى مستقل — فى آن واحد — عن البدن وعن الصور التي يقبلها . وما زال شراح أرسطو من المعاصرين يختلفون فى تفسير هذا الاصطلاح ، وإن كان بعضهم « كهيكس - Hicks » ينجح إلى القول بأن المقصود به هو استقلال هذا العقل عن المعقولات التي تحمل فيه .<sup>(٢)</sup> وقد وفق ابن رشد بين هذين المعنيين أحسن توفيق . فإن العقل المادى لما كان غير مختلط بالجسم فإنه يجب تبعاً لذلك أن يكون غير مختلط بالصور التي تنزع من المواد .

وهنا يتساءل أبو الوليد : أيمكن القول بأن العقل المادى مجرد استعداد يفسد بفساد العناصر التي يتكون منها الجسم ، أم هو استعداد جوهرى فى ذات روحية ، أم هو فى نهاية الأمر استعداد عرضى ينتج بسبب اتحاد هذه الذات الروحية بالبدن ؟ إن هذه الاحتمالات الثلاثة تعبر عن ثلاث نظريات مختلفة . أما الاحتمال الاول فهو رأى الذى ذهب إليه الإسكندر الأفروديسى ، ويترتب على هذا رأى القول بقناء العقل المادى . وأما الاحتمال الثانى فهو رأى باقى

(1) Mss 1009, fol, 143, V. C, 1 — 2

(٢) أنظر كتاب النفس لأرسطو ترجمة تريكو  
De Lâme, J, Tricot, b 174, note, 4.

المفسرين . ويفضى هذا الرأى الأخير إلى القول بأن جوهرأ روحياً يحتوى على  
شئء بالقوة . وأما الاحتمال الثالث فهو رأى أبو الوليد الذى يرى أنه خير ضمان  
لتقرير وحدة النفس ، ولتأكيد بقاء العقل المادى بعد الموت ، وللتخلص من القول  
بأن الجوهر الروحى يحتوى على شئء بالقوة .

وقد نلخص أبو الوليد رأى الاسكندر بقوله : إنه يرى أن العقل المادى مجرد  
استعداد، وليس بجوهر يوجد فيه هذا الاستعداد<sup>(١)</sup> . « وأما سائر المفسرين فإنهم  
فهموا من قوله إن العقل الهولانى يجب أن يكون غير مخالط أنه استعداد موجود  
فى جوهر مفارق . »<sup>(٢)</sup> ولكن رأى الإسكندر لا يستقيم لدى العقل ؛ لأننا إذا  
عرفنا العقل المادى بأنه استعداد محض فقد نزلنا به إلى مرتبة الأشياء المادية ،  
ووقعنا فى هذا التناقض ، وهو أن يكون أحد أجزاء النفس فانياً وأحد أجزائها  
خالداً<sup>(٣)</sup> . أما رأى الآخرين فإنه لا يسلم من النقد أيضاً ؛ لأنه يوحى بأن الجوهر  
العقلى يحتوى على شئء بالقوة ، مع أنه يجب أن يكون محضاً وغير مركب .

ويمكن الخروج من هذا المأزق بالتوفيق بين هذين الرايين . وقد استطاع  
ابن رشد الجمع بينهما حين ذكر أن العقل المادى والعقل الفعال ليسا فى واقع

---

(١) Mes. 100g, fol 144 R, c. I « وإذا كان الأمر فى هذا العقل هكذا  
فليس طبيعته إلا طبيعة الاستعداد فقط ، أمضى أن العقل بالقوة هو استعداد فقط ، لا شئء يوجد  
فيه هذا الاستعداد . . . فهذا هو معنى العقل المنفصل عند أرسطو على تأويل الإسكندر . »

(2) Ibid, 144 R, C. I

(3) Ibid, 144, R. C, 2 :

« وعلى مذهب الإسكندر ليس العقل الذى بالقوة إلا الاستعداد فقط . وأما الموضوع له  
فهو من جنس آخر من أجزاء النفس أو النفس بأسرها ، إلا أنه يلزم أيضاً أمر شنيع ،  
وهو أن يكون جوهر وجوده فى الاستعداد والقوة . وذلك أن القوة هى لازم من لوازم الأشياء  
الهولانية . ويلزم أيضاً أمر شنيع آخر ، وهو أن يكون الاستعداد الأول من العقل أزلياً  
والآخر كائناً فاسداً . »

الأمر سوى شيء واحد هو النفس الإنسانية . فإن هذه إذا اتصلت بالبدن كان لها فعلا ن : أحدها خاص بانزعاع المعاني وتجريدها ، والآخر استعداد لقبولها . ولهذا التوفيق أهمية لأنه خير جواب على هؤلاء الذين شوهوا آراء ابن رشد ، ونسبوا إليه البدع والأباطيل عند ما قالوا : إنه يفرق بين العقل المسادى والعقل الفعال ، ويجزم بوجود عقل واحد يشترك فيه جميع أفراد الإنسان . وهذا هو النص الذي تنهار أمامه هجعات الغربيين في العصور الوسيطة ، والمستشرقين منهم في هذا العصر الأخير : « وإذا وفيت هذه الأفاويل قسطها من الشكوك ظهر أن العقل من جهة الاستعداد مجرد من الصور ، كما يقول الإسكندر ، وهو من جهة جوهره مفارق متلبس بهذا الاستعداد ، أعني أن هذا الاستعداد الموجود في الإنسان هو شيء لحق هذا الجوهر المفارق من جهة اتصاله بالإنسان ، لأن الاستعداد شيء موجود في طبيعة هذا المفارق كما زعم ذلك المفسرون ، ولا هو استعداد محض كما زعم ذلك الإسكندر . ومما يدل على أنه ليس استعدادا محضا أننا نجد العقل الهولاني يدرك هذا الاستعداد خلوا من الصور ويدرك الصور ، وكذلك أمكن أن يعقل الإعدام ، أعني من جهة إدراك لذاته خلوا من الصور . وإذا كان الأمر كذلك فالشيء المدرك لهذا الاستعداد للصور الحاصلة فيه هو ضرورة غير الاستعدادات . وهذا العقل هو بعينه العقل الفعال الذي سيظهر وجوده بعد . وذلك أنه من حيث يتصل بهذا الاستعداد فيجب أن يكون عقلا بالقوة ، ولا يمكنه أن يعقل ذاته ، ويمكنه أن يعقل غيره أعني الأشياء الهولانية . وأما من جهة ما ليس يتصل به فيجب أن يكون عقلا بالعقل يعقل ذاته ولا يعقل ماها هنا .. إذن تبين أنه يوجد في النفس منا فعلا أحدها فعل المعقولات ، والآخر

قبولها . فهو من جهة فعله للمعقولات يسمى فعلا ، ومن جهة قبولها إياها يسمى .

منفعلا ، وهو في نفسه شيء واحد . <sup>(١)</sup>

ولا نعرف أن أحداً من شراح أرسطو — فضلاً عن أرسطو نفسه — استطاع أن يهتدى إلى نظرية متسقة كهذه . لأنها تقرر وحدة النفس حين تسوى بينها وبين مظاهرها العقلية . ويمكننا القول أيضاً إنه ما كان لأرسطو أن يصل إلى ما وصل إليه تفكير شارحه الأكبر . وذلك لأن تعريفه للنفس بأنها صورة لجسم عضوي لا يسمح بالتسوية بين كل من العقل المادى والعقل الفعال . ولكن تعريف أبي الوليد للنفس بأنها جوهر روعي لا يحتوي على شيء بالقوة يفسر لنا كيف تستطيع تجريد معاني الأشياء وقبولها في وقت واحد إذا اتصلت بالبدن .

إن تلك النظرية الفذة هي نظرية ابن رشد دون منازع : وأن حق أن يوجه إليه نقد ما لوجب أن نزميه بالتواضع وإنكار الذات ؛ لأنه ينسب رأيه إلى أرسطو . وبيان ذلك أنه يقول بعد مناقشته لآراء الإسكندر وغيره من الشراح : « فقد تبين من هذا لك المذهبان جميعاً ، مذهب الإسكندر ومذهب غيره في العقل الهولاني ، وتبين لك أن الحق الذي هو مذهب أرسطو هو الجمع بينهما على الوضع الذي قلناه . وذلك أن بهذا الوضع الذي قلناه نتخلص من أن نضع شيئاً مفارقاً ، في جوهره استعداد ما ، لوضعنا الاستعداد موجود له لا من طبيعته ؛ بل من قبل اتصاله بالجوهر الذي فيه هذا الاستعداد ، وهو الإنسان ، وبوضعنا أن ها هنا شيئاً يلحقه هذا الاستعداد بنوع من العرض نتخلص من أن

(1) Ibid, fol. 144 V c — 2

يكون العقل الذى بالقوة استعداداً فقط . « (١) ومعنى ذلك بعبارة أخرى .  
أن النفس فى جوهرها عقل محض ، فإذا اتصلت بالبدن استعدت لقبول معانى  
الأشياء . وحينئذ تسمى عقلاً بالقوة . ولكنها لا تقبل هذه المعانى من شئ  
آخر ، بل هى التى تختزنها وتجردها . وفى هذا الحال تسمى عقلاً فعالاً .

وأنا لنعجب لسلك المستشرق « مونك » ؛ فإنه رأى تلك النصوص  
العديدة التى ذكرناها بدليل أنه نقلها إلى اللغة الفرنسية . ومع ذلك فإنه يصر على  
أن ينسب إلى فيلسوفنا الرأى القائل بأن العقل الفعال شئ خارج عن النفس .  
ولست تلك هى المرة الوحيدة التى يركب فيها « مونك » من الشطط وينزلق  
فيها إلى مواطن الخطأ . فإنه شوه مذهب ابن رشد فى مسائل عديدة . ويرجع  
السبب فى ذلك — فيما نعلم — إلى أنه كان يعتقد أن هذا الفيلسوف لم يكن  
مبتكراً ، وأنه لا يختلف ، لا فى قليل ولا كثير ، عن غيره من فلاسفة المسلمين  
الذين تأثروا بمذهب الأفلاطونية الحديثة . وسوف نعود إلى مناقشة آراء هذا  
المستشرق مرة أخرى حين نعرض لنظرية الاتصال أو الحدس العقلى فى فلسفة  
ابن رشد . ويكفى أن نذكر أنه ينبغى للمرء أن يكون مغرضاً كل الإغراض  
حتى يرى فى النصوص سالفة الذكر اتجاهات أفلاطونية حديثاً . وأنه لينبغى أن يشوه  
المرء هذه النصوص أولاً حتى يؤكد أن العقل الفعال لدى أبى الوليد هو الملك  
الذى يدبر فلك القمر ، أو هو الله سبحانه .

وقد باغ من جرأة « مونك » على الحق واستخفافه بهذه النصوص أنه  
يقول بأن فيلسوف قرطبة كان يرى أن العقل المادى ينفى ويندثر بفناء  
البدن ، مع أن هذا الفيلسوف يذكر فى أكثر من موضع أن تشبيه جوهر

---

(1) Ibid

هذا العقل بالمادة في أنه يقبل معانى الأشياء ليس معناه أنه قابل للفساد ؛ وذلك لأنه يوجد بالقوة ، وكل شيء يوجد بالقوة ليس موضعاً للكون أو للفساد .<sup>(١)</sup>

ولقد كاد يقع « إرنست رينان »<sup>(٢)</sup> على الرأى الحقيقى لابن رشد فى هذه المسألة لأنه يعترف بأن هذا الفيلسوف ينظر إلى العقل المادى نظرة تختلف كل الاختلاف عما ذهب إليه الإسكندر وفلاسفة الإسلام ، ولأنه يرى أن هذا العقل ليس قابلاً للكون والفساد ، وأنه يشبه فى ذلك العقل الفعال . ولكن حال دون « رينان » ودون إدراك حقيقة مذهب فيلسوفنا أنه كان يعتقد كونك أن أباً الوليد لم يكن سوى أحد أتباع الأفلاطونية الحديثة من المسلمين ، وأنه كان يرى مثلهم أن العقل الفعال يوجد خارج النفس الفردية ، وليس إحدى قواها . وكثيراً ما كانت الآراء الشائعة الفاسدة سبباً فى فساد الحكم الذى يصدره المؤرخون على الأشخاص أو الأسكار .

إن الذى حدا بابن رشد إلى عدم التفرقة بين كل من العقل الميولانى والعقل الفعال هو أنه كان يريد تقرير خلود النفس ؛ لأننا إذا قلنا إن العقل الميولانى جوهر خالد ، وأنه لا يختلف فى حقيقته عن العقل الفعال ، وإنها مظهران للنفس الإنسانية فمعنى ذلك أننا نريد القول بأن هذه النفس جوهر لا يقبل الفساد ، كما يدل أيضاً على أننا نريد التخلص من نظرية أرسطو التى تصف النفس بأنها

---

(1) De Beatitudine animae, Venise 1572, 149 f : Et quando possunt quod haec substantia intellectus sit ens in potentia, sicut materia prima, non possunt dicere, quod generatur et corrumpitur, quia quod in potentia, est non generatur nec corrumpitur.

(2) Renan, A. Lacroix, pages 137 — 148,

صورة لجسم عضوى . ومما يدل على رغبة أبى الوليد بن رشد فى العدول عن آراء أرسطو أنه يقول : إنه لا يمكن معرفة العقل إلا بمعرفة النفس ؛ وذلك لأن العقل وظيفة خاصة بها .<sup>(١)</sup> وليس من الممكن أن يكون كل منهما صورة للبدن بالمعنى الذى تقررته الفلسفة الأرسطوطاليسية .

ولقد عجز « توماس الأكوينى » ، هو الآخر ، عن فهم آراء ابن رشد فى العقل الهولانى . والسبب فى ذلك أنه كان متشعبا بتعريف أرسطو للنفس . ولذلك فإن كل ما يوجهه إلى الفيلسوف العربى من نقد لا يرتكز على أساس ما . ويرجع الخلاف بين هذين الشارحين فى واقع الأمر إلى اختلافهما فى تعريف النفس . فإن فيلسوف قرطبة يذهب — كما نعلم — إلى أن النفس جوهر كامل ، وأن صلتها بالبدن كصلة الإله بالعالم ، أو كصلة كل عقل مفارق بالملك الخاص به . وكما أن العالم لا يدخل فى ماهية الإله كذلك حال البدن مع النفس . والحق أننا لم نعتز على نص واحد يصرح فيه أبو الوليد بأن العقل الفعال ذات مستقلة عن النفس الإنسانية . وليس لهؤلاء الذين ينسبون إليه مثل هذا الرأى إلا أن يطلعونا على النصوص التى اعتمدوا عليها . غير أننا نستطيع من جانبنا أن نحيلهم لا على نص واحد ، ولكن على كتاب بأكمله ، ونعنى به كتاب الفحص عن الاتصال ، لكن يروا أن العقل الفعال يوجد فى كل فرد منذ خلقه ، وأنه يبدو أثره بعد ظهور جميع العمليات النفسية والعقلية .

وأما العقل الثالث الذى يصفه ابن رشد فهو ما يطلق عليه اسم العقل المكتسب . وليس هذا العقل بشيء آخر غير العقل الهولانى ، وقد خرج من القوة إلى الفعل . فهو العقل المستفاد الذى رأينا من قبل لدى الفارابى وابن سينا .

(٣) تهافت التهافت ص ٤٣٤ .

ويختلف هذا العقل عن سابقه من جهة أنه فان ؛ وذلك لأن النفس إذا فارقت الجسم فقدت كل ما كانت تعرفه في هذا العالم الحسى . وحينئذ يتبين لنا أن هذا العقل يتألف من عنصرين هما العقل المادى والصور العقلية ، أى المعانى التى انتزعت من الأشياء الحسية . وهذا يختلف الشارح الأكبر عن غيره من فلاسفة الإسلام الذين كانوا يرون أن هذا العقل نتيجة للاتصال بين العقل الفعال والعقل المادى . ولذا كانوا يطلقون عليه اسم العقل المستفاد لا العقل المكتسب . لأنه ليس سوى ما يفيض على النفس من عقل خارج عنها .<sup>(١)</sup>

وفى جملة القول لم يكن ابن رشد أحد أتباع الأفلاطونية الحديثة بحال ما . كما يظن ذلك كثير من المستشرقين ومن تبع سبيلهم ، فإننا نجد لديه كما نجد لدى أرسطو نفسه ثلاثة عقول . ولكنه فاق أرسطو وغيره من الشراح فى تحديد الصلة بين هذه العقول فاستطاع أن يقرر وحدة النفس على أكمل وجه . فإنها لما كانت جوهرأ روحيا أصبحت عقلا بالقوة لدى اتصالها بالبدن . ثم أدركت بعض المعارف فعدت عقلا مكتسبأ . ولما كانت مستقلة فى جوهرها فإنها قد تصل إلى إدراك ذاتها وجوهرها الحقيقى ، فتعلم أنها عقل فعال ، أى نشاط عقلى محض .

وإذا كنا قد أوجزنا بعض الشيء فى بيان طبيعة العقل المكتسب لدى هذا الفيلسوف فذلك حتى تتلافى التكرار فيما لا جدوى فيه ؛ إذ سوف نعرض لهذا الأمر بالتفصيل حين نتحدث عن نظرية الاتصال لديه ، وهى نظرية مختلفة كل الاختلاف عن تلك التى رأيناها لدى كل من الفارابى وابن سينا وابن طفيل .

---

(١) يخطئ « مونك » حين ينسب إلى ابن رشد الرأى القائل بأن العقل الفعال هو الذات

## ١٢ - آراء توماس الأكويني

لقد وجد « توماس » نفسه وجهاً لوجه مع عدد لا بأس به من الصعوبات عسيرة الحلّى عندما أراد أن بظل أميناً على تعريف أرسطو للنفس ، وعلى مبدئه القائل بأن المادة هي السبب في اختلاف الأفراد . وقد رأينا كيف أن ذلك التعريف كان لا يتيح البرهنة على خلود النفس بحال ما ، ورأينا كيف عدل عنه كثير من فلاسفة الإسلام . كذلك ذكرنا أن المبدأ القائل بأن المادة هي سبب الاختلاف بين أفراد النوع الواحد قد أفضى إلى تلك البدعة الفارابية التي تنص على اشتراك جميع أفراد الإنسان في نفس واحدة وعقل واحد .

وكل هذه الصعوبات أمر لا ينفعك عن الفلاسفة الأرسطوطاليسية . فلما ارتضى « توماس الأكويني » تعريف أرسطو للنفس على علته لم يكن له بد من التخليط وسط هذه الشبهات . غير أنه كان يتمسكه بالحق والغضب حيناً بعد حين ، فينقلب يسب أباً الوليد ، ويصفه بأنه شارح معرض معوج التفكير . ونعتقد أنه لا يعرف خصمه ، وأن غضبه غير المألوف ليس سوى الدليل على عجزه عن تنفيذ نظرية وحدة العقل التي كان يعتنقها جم كبير من اللاتينيين الذين وصفوا أنفسهم ، ووصفهم الناس ، بأنهم تلاميذ ابن رشد . وإنما أقحم هذا الأخير إقحاماً في هذا الجدل بينهم وبين خصومهم من أمثال « توماس الأكويني » لأنهم وقعوا على ذلك النص الذي يعرض فيه الشارح الأكبر الصعوبات التي تترتب على الأخذ بمبدأ أرسطو سالف الذكر . فظنوا أن هذا هو رأى ابن رشد الحقيقي . ولذا فإن غضب « توماس الأكويني » ونقده لا يتجهان بحال ما إلى فيلسوف قرطبة . فإن هذا الأخير عرف النفس على نحو مخالف لكل من أرسطو و « توماس الأكويني » . ومن العجيب أن ينسب هذا المفكر المسيحي

إلى فيلسوفنا أنه قال بأن العقل نوع آخر من النفس ، وكان ينبغي له ، إن أراد الحق ، وما كان ذلك بعزير عليه ، أن ينسب هذا القول إلى صاحبه الحقيقي ، وهو أرسطو ، كما يعلم حق العلم .

لقد سوى أبو الوليد بين العقول الثلاثة فقال : إن النفس عقل في جوهرها ، وإن اختلفت مظاهر هذا العقل حسب اختلاف درجة المعرفة لدى الإنسان . فجاء « توماس الأكويني » يشوه هذا الرأي الصريح الذي لا يمتثل تشويهاً ، فنسب إلى صاحبه رأياً لم يذهب إليه قط . وإذا صدقنا توماس<sup>(١)</sup> فعلياً أن نسلم معه بأن ابن رشد قال بأن السبب في المعرفة ، وهو العقل المنفعل أو الهيوولاني ، ليس النفس أو أحد أجزائها ؛ بل هو بالأحرى جوهر مفارق وحيد مشترك بين جميع الناس ، فيتصل بكل واحد منهم بواسطة الصور الخيالية . وهكذا يمتوى الإنسان ، بناء على ما ينسبه « توماس » إلى خصمه ، على ثلاث ذوات مختلفة هي : الجسم والعقل الهيوولاني والعقل الفعال . ولا نظن إلا أن هذا نوع من الإيحاء الذاتي ، بمعنى أن « توماس الأكويني » ينسب إلى أبي الوليد رأياً يحاول هو الفرار منه . وذلك لأنه كان يعتقد أن ابن رشد يفرق مثله بين النفس الإنسانية وبين كل من العقل المادى والعقل الفعال .<sup>(٢)</sup> وكانما قد غابت عنه الحكمة في إلحاح الفيلسوف القطرطبي في محاولة التخلص من مذهب الإسكندر ، حتى لا يفرق بين العقل المنفعل وبين النفس .

وما يدعو إلى العجب ، أو إلى الإشفاق أن « توماس الأكويني » لم يقف عند هذا الحد ؛ بل نسب إليه أيضاً نظرية أخرى في الاتصال . فهو يزعم أن

(١) وحدة العقل : P. 55 De Unitate intellectus

(٢) الخلاصة اللاهوتية الجزء الأول ، السؤال السابع والسبعون الفصل الأول .

أبا الوليد بن رشد قال باتصال العقل الفعال الخارج عن النفس بالعقل الهولاني . وليس بغريب بعد هذا التشويه كله أن يبدو أبو الوليد لجورج فاللا « George Valla » كرجل فظ غبي لعين .<sup>(١)</sup> وحقيقة ما كان أجدره بمثل هذه الأوصاف المقذعة لو كان ما نسبته إليه خصمه يعبر حقيقة عن رأيه في هذه المسألة . لكن للأسف كان ابن رشد ضحية هذا الخلط ، فغدا هدفا لهذا السباب المقذع لا شيء إلا لأن توماس كان يصر على اعتبار أن النفس ليست جوهرًا كاملاً ، وأن تعريفها لا بد من أن يحتوي على معنى الجسم . وهذا هو السبب الذي صرفه عن التسوية مثل ابن رشد بين كل من العقل المنفعل والعقل الفعال<sup>(٢)</sup> . وقد هاجم هذا الفيلسوف المسلم على أنه يرى رأيه في وجوب التفرقة بينهما .

ولما كان الاتصال بين النفس والجسم اتصالاً جوهرياً في ظنه لم يجد بداً من تحطيم وحدة النفس . فإن هذه لما كانت صورة للبدن فإنها لا تستطيع أن تصبح شيئاً واحداً مع أهم أجزائها ، وهو العقل ؛ ويرجع السبب في استحالة هذا الأمر إلى أن هذا الأخير لا يستخدم عضواً جسيماً ، فلا يمكن تبعاً لذلك أن يقال عنه إنه صورة للبدن . ولا بد حينئذ من التسليم معه بأن النفس تحتوي على عقليين . يختلف كل منهما عن الآخر ، وليس كلاهما جوهراً . كذلك قال إن هناك تارقاً بين أحد الأفعال وبين السبب في وجوده ، أو بينه وبين المبدأ الذي يقضى إليه ، أي لا بد من وجود تارق بين عملية الإدراك والعقل نفسه . ومعنى هذا أن العقل لا يمكن أن يتحد مع الجوهر إلا في حالة واحدة وهي الله وحده ؛ في حين أن العقل في المخلوقات العاقلة قوة خاصة من قوى النفس.<sup>(٣)</sup> ولكن ما سبب التفرقة هنا بين

(1) Duhem , Système de monde, T, IV · pages 560—562

(2) Sum theol, 1 q. Liv art 3 ; LIX art 2 ; LXXVII, art 2 ·

(3) Ibid, 1, q, LXXIX art. 1

الذات الإلهية وغيرها من الذوات الروحية ؟ ذلك لأن الماهية والوجود في الله تعالى شيء واحد ؛ بينما نجد أن الوجود يختلف عن الماهية في نفوس الملائكة وفي أرواح البشر .<sup>(١)</sup>

ويبدو لنا أن ابن رشد كان أكثر من « توماس الأكويني » أمانة على مذهب أرسطو في هذه الناحية ؛ وذلك لأنه لا يفرق بين الماهية والوجود في الذوات العقلية ، ولأنه يسوى بين العقل المنفعل والعقل الفعال . ففي الوقت الذي نرى فيه أن الأول يسلم بإمكان الحدس العقلي ، أى إدراك النفس لذاتها إدراكاً عقلياً محضاً ، نجد أن الثاني ينكر ذلك النوع من الإدراك ، ويفرق بين الماهية والوجود ، والقوة والفعل ، في النفس الإنسانية ؛ فيجزم بأن هذه النفس تحتوى على عنصرين مختلفين تمام الاختلاف : أحدهما يعد ماهية ووجوداً بالقوة ، ويعد الثاني وجوداً بالفعل ، وهما العقل المنفعل والعقل الفعال . وحينئذ فليس من الممكن أن نسوى بينهما بحال ما . وبذلك يحاول « توماس الأكويني » الجمع هنا بين نظريتين مختلفتين ، إحداهما تنسب إلى أرسطو ، وتفرق بين الوجود بالقوة والوجود بالفعل ، والأخرى إلى ابن سينا ، وتفصل فصلاً باتناً بين الماهية والوجود .<sup>(٢)</sup> وقد طبق هذا الشارح نظريته هذه على العقول المقارفة فقال : إن عقل الملائكة ليس بجوهرها وماهيتها . فهى إذن لديه مركبة من شيئين : أحدها يوجد بالقوة والآخر بالفعل .

ويجدر بنا أن نلاحظ أنه ، حينما يهاجم النظرية القائلة بوجود عقل فعال مستقل عن النفس الإنسانية ، لا يذكر اسم أبي الوليد ؛ بل ينسب هذا الرأي

(١) أخذ توماس الأكويني هذه التفرقة عن ابن سينا .

(٢) كان ابن سينا ، لا يفرق بين الماهية والوجود في النفوس الإنسانية .

إلى ابن سينا (١) وذلك دليل واضح على أنه ما كان له إلا يعترف بأن تلك النظرية من صنع أتباع الأفلاطونية الحديثة من المسلمين . وأنا أنرى في هذا المسلك نوعاً من الإنصاف غير المقصود لفيلسوف قرطبة . إذ ما كان لـ «توماس الأكويني» أن يتردد في نسبة هذا الرأي إليه لو وجد لديه أى إشارة — مهما بدت تافهة واهية — إلى هذه المسألة . فإنه ألفت كتابه في «وحدة العقل» السكى يبرهن فيه على فساد آراء هذا الفيلسوف .

فن الثابت إذن أن هذين الشارحين يتفقان إلى حد بعيد في تحديد طبيعة العقل الفعال ؛ وذلك لأنهما يصرحان بأنه ليس ذاتاً خارجة عن النفس الإنسانية، ويمزمان بأنه هو السبب في انتزاع المعانى وتجريدها من الصور الخيالية . ومع ذلك ، فإنهما يختلفان من جهة أخرى حين يقرر «توماس الأكويني» أن هذا العقل أحد أجزاء النفس ، وحين يؤكد فيلسوف قرطبة أنه هو النفس ذاتها ، على اعتبار أنها في جوهرها نشاط عقلى . ولكن على الرغم من هذا الاختلاف فهما أقرب الشراح في العصور الوسيطة إلى الفلسفة المشائية ؛ إذ يفسران نشأة المعرفة بأنها نتيجة للأدراكات الحسية .

ومهما يكن من أمر أمانتهما في عرض النظرية الأرسطوية طاليسية فقد أدخلنا شيئاً من التعديل والتحوير فيها . وبيان ذلك أن ابن رشد يذهب كما رأينا ، إلى أن النفس ذات كاملة ، كما أن «توماس الأكويني» يفرق فيها بين الماهية والوجود . وهذا شيء لم يقل به أرسطو . ولقد كان أولهما أقل اتباعاً للفلسفة المشائية من الثانى عند ما سوى بين العقل المادى والعقل الفعال ، وكان ثانيهما

---

(١) الخلاصة اللاهوتية 4. q.79. art 4. Sum. Theol I, q.79. art 4.  
والنظر أيضاً جيلسون Gilson. le Thomisme. P. 290

أفل حرصاً على هذه الفلسفة من الأول عندما فرق بين الماهية والوجود .  
وهناك عقل ثالث لدى « توماس الأكويني » ، وهو العقل المكتسب .  
ولا يختلف رأيه في هذا العقل عن رأى أبى الواليد اختلافاً كبيراً . فالعقل  
المكتسب يتألف لديها من العقل المادى ومن الصور العقلية التي جردها العقل  
الفعال من الأشياء الحسية . (١) وقد أطلق على هذا العقل الأخير اسم الذاكرة  
العقلية ، وهى التى ينكر ابن سينا وجودها حين يذكر أن النفس ليست خزانة  
للعانى ؛ بل تفيض عليها هذه الأخيرة من ذات خارجة لا تضن عليها بها كلاً  
اتجهت إليها . وهناك فارق كبير بين هذين الرأيين ، وهو الفارق بين اكتساب  
المعرفة وبين قبولها عن طريق الفيض . فإذا وجه « توماس » نقده إلى ابن سينا  
لا لى ابن رشد فسبب ذلك واضح كل الوضوح . وإذا كان يميل إلى رأى  
هذا الأخير فذلك لأنه أكثر اتساقاً مع مذهب أرسطو .

ولسكن هنا فارقاً بين هذين الشارحين في تحديد طبيعة العقل المكتسب  
أو العقل بالفعل - وكلا التعميرين سواء ليهما - ذلك لأن « توماس »  
يقول بأنه خالد كالعقل الفعال . (٢) ومعنى ذلك أن النفس الإنسانية تحتفظ بعد  
مفارقتها للبدن بكل المعارف التى أدركتها فى حياتها الدنيا . أما ابن رشد فيجزم  
بأن المعانى المكتسبة فى هذه الحياة تندثر بعد الموت . وهذا ما يبر عنه فى كتاب  
« الفحص عن الاتصال » بفساد العقل المكتسب .

فشكل ما حاكه الأساطير والجمل حول اسم ابن رشد فى أوربا المسيحية  
لا يرتكز على أساس ما . ولقد أخطأ « توماس الأكويني » أو لم يكن منصفاً  
فى اختيار خصمه . فإن فيلسوفاً كابن سينا أو الفارابى كان أجدر بخصوصته .

(1) Sum theol. I, q. 79 ; I. q. 84. art. 7

(2) Ibid. I. q. 89 art 5 ad Respondeo

ولكن ما كان له أن يجيد الاختيار . فقد كان مضطراً إلى الرد على ملحدى  
بنى ملته الذين كانوا يعتمدون على شهرة الشارح الأكبر في تدعيم بدعهم .  
ولو علموا وأنصفوا لاتخذوا ابن سينا أو الفارابي أو أرسطو نفسه عضداً لهم .  
ولو أنصف « الأكويني » لأظهر لهم أنهم يسيثون بزعمهم إلى الحقيقة ، وأن آراء  
ابن رشد في العقل كانت أبعد ما يكون على آرائهم ، بدليل أنه قد ارتضاها لنفسه .

---

## الفصل الثامن

### وحدة في العقل

تمهيد

شغلت هذه المسألة تفكير الغربيين من أتباع الفلسفتين المشائية والإسلامية ردحاً طويلاً . وقام جماعة من اللاتينيين بقررون أن جميع الناس يشتركون في عقل واحد . وكانت هذه اليدعة نتيجة طبيعية لنظرية النفس الكلية التي جاء بها الفارابي ، وأقبحها على التفكير الإسلامي . غير أنها عرفت في أوروبا بأنها وجهة نظر ابن رشد . ويكاد مؤرخو الفاسفة جميعهم يؤكدون أنها من صنعه ، وأنه هو المسئول الأول عن جميع ما تطرق إلى أهل أوروبا من البدع والأباطيل في القرون الوسطى . ومع ذلك فإن هذا الإجماع كان يقوم على أساس واه ؛ لأن نظرية النفس الكلية كانت معروفة عند فلاسفة الإسلام منذ عهد بهيد ، أي قبل معرفة ملحدى الغرب لفلسفة ابن رشد . وينبغي أن نذكر أن هذه النظرية لم تسكن من ابتكار المسلمين ؛ بل أخذها هؤلاء عن غيرهم ؛ فإن أفلوطين كان هو الذي قررها على نحو مفصل لا لبس فيه . وقد اعتمد في تأكيدها على آراء الإسكندر الأفروديسي في النفس الإنسانية والعقل الفعال . فقال إن هناك نفساً واحدة تندمج فيها جميع النفوس الجزئية ، وليس هناك تعدد في الواقع . فالنفس تفيض وتتعدد ، ولكنها لا تفيض في نفس الوقت . ويكفي أن تحمل في جميع الأفراد ، وأن تظل واحدة في الوقت ذاته . وتبدو آثارها بصيغة خاصة في نهايا الأمر ، ولكنها ليست منفصلة تماماً عن كل إنسان . فهي إذن نفس الشيء في

أفراد كثيرين . وهنا يعمد « أفلوطين » إلى آراء أرسطو فيقول : إنما كانت النفس كلية ؛ لأن الاختلاف بين الأفراد إنما يأتي بسبب اختلاف المواد التي تدخل في تركيبهم .

وقد رأينا كيف ترتبط هذه النظرية لدى أبي نصر الفارابي بنظريته في الفيض . وكان لشروح ابن رشد أثر في تعضيدها فيما بعد . ويتبين لنا ذلك من سلوك تلاميذه الأعداء . فإن هؤلاء كانوا يعتمدون ، أول الأمر ، في تقرير وحدة النفس والعقل ، على نظرية الفيض ، بدليل أن أساطين « المدرسين » أخذوا يفقدون دعواهم بنقض هذه النظرية والسخرية منها . فلما لم يجد الملحدون بدا من الاعتراف بفسادها أخذوا يبحثون عن عضد جديد . فوجدوا شروح أرسطو ، وعلموا أنه من الممكن الاعتماد على مبدئه القائل بأن المادة هي سبب الاختلاف بين الأفراد ، وأن الصورة مشتركة بينهم جميعاً . فقالوا لما كانت النفوس صوراً للأجسام ، ولما كان العقل أحد أجزائها ، وجب أن تكون هناك نفس كلية وعقل كلي . ثم بحثوا عن ينسبون إليه إلى هذا الرأي فلم يجدوا سوى أبي الوليد . وهكذا غدا هذا الفيلسوف ، دون سبب ما ، رمز الإلحاد . وتبع ذلك أن شوه الغريبيون مذهبه ، وورثت عنهم القرون التالية فكرة أسطورية غريبة عن ذلك المفكر المسلم الذي كان أقرب فلاسفة العرب إلى روح التعاليم الدينية الخفيفة .

## ٢ - نظرية ابن رشد في وحدة العقل

إن « رينان » الذي أخطأ أكثر من مرة في فهم فلسفة ابن رشد ، كاد يصيب هذه الحقيقة الكبرى مرة واحدة عندما أخذه الغضب للتهمة التي نسبت إلى الشارح الأكبر بشأن وحدة العقل ، فقال في كتابه عن هذا الفيلسوف :

« حقاً لو كان هناك في الوجود سخف في التفكير يدعو إلى ثورة النفس لكان ذلك وحدة النفوس الإنسانية . كما تظاهر بعضهم بقبولها . ولو كان ابن رشد عضداً هذه النظرية حرفياً لحق أن يدرج مذهبه في قائمة الهذيان ، لافي قائمة الفلسفة ... إن وحدة العقل لا تعبر عن شيء آخر سوى عموم مبادئ العقل المحض ، ووحدة التكوين النفسى في جميع أفراد النوع البشرى . »

أما نحن فسنبين أن وحدة العقل التي يتحدث عنها الفيلسوف القرطبي ليست شيئاً آخر سوى وحدة المدركات العقلية التي يطلق عليها أحياناً اسم العقل بالفعل ، وأحياناً اسم العقل المكتسب . ذلك أن جميع الناس يفكرون بنفس الصور العقلية لهذا السبب اليسير ، وهو أن هذه المعانى التي تتألف منها المعرفة الإنسانية إنما تنشأ عن أصل واحد مشترك بينهم جميعاً ، وهو العالم الخارجى وما يحتوى عليه من كائنات .

وقد عبر ابن رشد عن اتحاد هذه المعانى على الرغم من اختلاف الأشخاص بقوله : إن المقولات تختلف من جهة الكم إذا نظرنا إليها باعتبار الأشخاص الذين تتحقق فهم ، أى أنها تختلف من جهة تصورنا لها عن طريق الخيال . ولكنها شيء واحد فقط إذا نظرنا إليها على اعتبار أنها صور عقائدية محضة في ذهن من يستحضرها ، أى أنها تبدو واحدة في العقل المادى الذى يتقبلها ، ولا يخلع عليها صورة خيالية ما .<sup>(١)</sup> ومن العجيب أن «دوهم» اعتمد على مثل هذه العبارة ليؤكد أن بدعة العقل الكلى في العالم المسيحى من صنع الشارح الأكبر . حقاً إن لغة هذا الأخير معقدة كلغة باقى فلاسفة القرون الوسطى ، وقد تدعو أحياناً إلى اللبس وسوء الفهم . ولكن ليس في كلام ابن رشد ما يدعو إلى ذلك ،

(1) De Anima, lib' III Sum. I cap'III, comm 2. cité par Dubern

وبخاصة إذا عرضناه على هذا النحو فقلنا : إن الصورة الخيالية التي أكونها  
«لنفسى عن الإنسان تختلف عن الصورة الخيالية التي تكونها أنت لنفسك عنه .  
فليست هذه الصورة لدى نفس الصورة لديك . ولكن الصورتين تدخلان تحت  
معنى كلّى واحد لا تختلف فيه كاللانا ، وهو المعنى الذى نعبر عنه بالحيوان الناطق .  
فهل لـ «دوم» أن يستنبط من هذا المثال أن اتحاد المعانى العقلية معناه وجود عقل  
كلّى يشترك فيه جميع أفراد البشر : فى ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ؟ .

إن « دوم » ينسب أمرين ، وهو فى ذلك كالمدرسين «Scolastiques» .  
فإن العقل الذى يتحدث عنه فيلسوف قرطبة هو الذى سبق أن أطلق عليه اسم  
العقل المكتسب . ومن جهة أخرى ، تدل كلمة «واحد» فى اللغة العربية على معنيين  
مختلفين . فقد تدل على الشيء الفريد فى نوعه ، أو على الشيء المساوى لشيء  
آخر . فهى كلمة مبهمه تستخدم للتعبير عن التفرد أو المساواة . وليس ثمة ريب فى  
أن ابن رشد يستخدمها فى هذا المعنى الثانى ؛ بل إن طريقة استخدامه لهذا اللفظ  
خير دليل على ماذهب إليه ، وهو أن جميع الناس يشتركون فى المعانى العقلية  
العقلية المجردة عن كل حس وخيال ، وهى التى يمكن وصفها بأنها غير شخصية ،  
وأنها لا تفسد بفناء الأشخاص . فقد قال هذا الفيلسوف فى عرض وجهة نظره  
هذه : « معنى ما حكاه [ الفزالى ] عن الفلاسفة . . . أن العقل يدرك من  
الأشخاص المتفقه فى النوع معنى واحداً تشترك فيه ، وهو ماهية ذلك النوع  
من غير أن ينقسم ذلك المعنى بما تنقسم به الأشخاص من حيث هى أشخاص :  
من المسكان والوضع والمواد التى من قبلها تسكرت . فيجب أن يكون هذا  
المعنى غير كائن ولا فاسد ولا ذاهب بذهاب شخص من الأشخاص التى يوجد  
فيها هذا المعنى . ولذلك كانت العلوم أزلية وغير كائنة ولا فاسدة إلا بالعرض ،

أى من قبل اتصالها بزيد وعمرو ، أى أنها فاسدة من قبل الاتصال ، لأنها فاسدة فى نفسها ؛ إذ لو كانت فاسدة لكان هذا الاتصال موجوداً فى جوهرها ، ولكانت لا تجتمع فى شىء واحد . » (١) فالمعنى لديه تكاد تكون شبيهة بالمعنى لدى أفلاطون وهى تتصل ، حسب رأيه ، بالعقل الشخصى فى كل فرد . وهو العقل الذى سماه العقل الهولانى . وقد تدارك أبو الوليد إحدى الشبه التى قد يزل عندها التفكير فقال : إن بعض الناس لما رأوا اتحاد هذه المعانى الكلية لدى جميع أفراد الجنس البشرى جزموا بوجود نفس كلية مشتركة بينهم . ثم نقض هذا الرأى بأن لكل فرد نفسه الخاصة به ، كما ذهب إلى ذلك كبار الفلاسفة ومنهم ابن سينا .

ومع ذلك ، فقد شوه « المدرسيون » وكثير من المحدثين هذا النص ، واتخذوه دليلاً قاطعاً على أن فليسوف قرطبة كان على رأس القائمين بوجود نفس كلية . ولكننا نعلم مدى الثقة التى يمكن أن نوليها لمثل هذا التأويل . فإن ابن رشد يتحدث هنا عن أفراد النوع بصفة عامة ، لا عن أفراد الإنسان . وإنا لنعلم كذلك جيد العلم أنه كان يذهب إلى تعدد النفوس وبقائها على هذه الحال بعد الموت . وكيف له أن يسلك مسلكاً آخر إذا كان يرى أن كل نفس إنسانية جوهر روحى مستقل خالداً ؟ فلوحدة العقل عنده معنى خاص جداً ، وهو اتحاد المعانى أو المدركات الكلية لدى جميع الناس . وليس العقل الذى يتحدث عنه هنا بالعقل المادى أو الفعال ، فإنها مظهران مختلفان لذات قائمة بنفسها ، وإنه من الغريب حقاً أن نستنبط من ذلك أنه كان يؤمن بوجود عقل كلّى .

ولقد رأينا منذ قليل أن « رينان » (٢) أخذته العزة بالحق . فوصف التهمة .

(١) تهافت التهافت طبعة بيروت س ٥٧٤ .

(٢) Renan, Averroès P. 125

التي نسبها الغريبيون إلى أبي الوليد بالسخف والشناعة . ومع ذلك ، فإننا نراه مرة أخرى ينسى ثورته ، فتذهب عنه سورة غضبة ، ويروض نفسه على قبول أسطورة مبتذلة لم تستمد قوتها وبقائها إلا من الجهل والتقليد . فإنه لا يفرق بين فليسوفنا وبين غيره من شراح أرسطو ممن عضدوا النظرية القائلة بوجود عقل مستقل عن النفوس يشرق عليها جميعاً ، فتقبل منه معاني الأثيماء ، كما تتقبل الأشياء المادية على اختلافها ضوء الشمس . وليس بالعسير في شيء أن يقف المرء على السبب في تردد « رينان » وتناقضه . فإنه ، وإن أدرك رأى ابن رشد في طبيعة العقل المكتسب ، فقد أخطأ فهمه فيما يتعلق بالعقل النعال . ومعنى ذلك أن « رينان » يعتقد ، على غرار كثير من مؤرخي فلسفة العصور الوسطى ، أن العقل الفعال عند هذا الفايسوف هو الملك الذي يشرف على فلك القمر ، كما كان يرى ذلك جل فلاسفة الإسلام قبله . فهو يسوى حينئذ بينه وبين غيره من هؤلاء الذين وضعوا أسس فلسفتهم على تلك النظرية الغريبة عن الإسلام ، ونعنى بها نظرية الفيض . ولقد كان « توماس الأكويني » لعمر الحق أكثر حذراً من « رينان » . فإنه ، على الرغم من عنف الخصومة بينه وبين ابن رشد ، قد حرص كل الحرص على أن ينسب نظرية المعرفة الإشرافية إلى أهلها . فكان إذا عرض لنقدها وتفنيدها ذكر صاحبها ، أو بعبارة أكثر دقة ذكر أشد أنصارها ، وهو الرئيس ابن سينا .

ولسنا عند رأى « رينان » حين يقول : « لاشك في أن مثل هذه النظرية أبعد ما يكون عن روح الفلسفة المشائية . » وذلك لأن هذه النظرية ، وإن كانت شديدة الصلة بطريقة فهم أتباع الأفلاطونية الحديثة من المسلمين لطبيعة تركيب السكون وتدرج الأفلاك فيه ، فإن جذورها تمتد ، على الرغم من ذلك ، إلى

أصول مشائية بعيدة النور . فإن لأحد مبادئ أرسطو أثراً كبيراً في تكوين هذه الفكرة ، ونعني به المبدأ القائل بأن المادة هي السبب في اختلاف أفراد النوع الواحد . وسنرى أن « غليوم دوفرنى - Guillaume D' Auvergne » فطن إلى العلاقة الوثيقة بين البدعة التي ذهب إليها ملحدو بني ملته وبين مبدأ أرسطو سالف الذكر . وقد اضطر هؤلاء الملحدون ، حيناً رأوا تداعى نظرية الفيض وعدم ثباتها أمام نقد خصومهم ، إلى العدول عنها - كما قلنا - ، وإلى البحث عن أساس جديد لها في الفلسفة المشائية ؛ إذ أن نظرية فيضان النفوس الإنسانية عن العقل الفعال ، كما يقول الفلاسفة المسلمون الذين سبقوا ابن رشد ، كانت تكفي وحدها لتمزيق بدعتهم في الزمن الماضي . وفي الواقع ما كان أيسر أن يقول المرء بوجود عقل كلى واحد تفيض منه النفوس ، وتتلقى عنه المعاني في وقت واحد . بيد أنه قدّر لهذه البدعة أن تبقى وتزدهر على الرغم من سخرية « غليوم » لأنها وجدت منبهاً الأول التي حادت عنه ردحا غير قصير من الزمن . فإننا إذا تبعنا أرسطو ، فقلنا إن النفس صورة للبدن ، وإن المادة هي التي تفرق بين أفراد الإنسان فقد نستطيع القول ، تبعاً لذلك بوجود نفس كلية . وإذا تقرر وجود هذه النفس فليس من العسير أن يذهب القائلون بها إلى تأكيد وجود عقل كلى واحد يشترك فيه البشر جميعاً .

وحيثئذ فإذا هاجم «توماس الأكويني» أنصار العقل الكلى فينبغي لنا أن تبين الأمر ليرى أن خصومه ايسوا فقط من أتباع الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، أو الإسلامية المشربة إلى حد كبير بروحها ، وإنما هم أنصار فلسفة أرسطو وأكثر الناس منطقاً في فهمها . وذلك لأن وحدة العقل مظهر من مظاهر وحدة النفس ، وكلاهما نتيجة منطوية للتعريف أرسطو للنفس بأنها صورة أو كمال أول للجسم طبيعى توجد فيه الحياة بالقوة .

وقد رأينا كيف جهد أبو الوليد بن رشد في تفسير الفلسفة الأرسطوطاليسية في هذه المسألة على نحو جديد عند ما قال : إن أرسطو لا يفرق بين طبيعة العقل المادى والعقل الفعال ؛ بل يرى أنهما مظهران لشيء واحد بعينه يوجد أحياناً بالقوة وأحياناً بالعقل ، أى تارة كاستعداد كامن لإدراك الأشياء ، وتارة كنشاط وقوة فعالة تنتزع صور هذه الأشياء انتزاعاً ، فتجردها من كل أثر حسى أو خيالى . ومع ذلك فإنه ينبغى لنا أن نعتزف ، دون حرج ما ، أن هذا الفيلسوف لم ينجح في محاولته هذه إلا بعد تحويره لمذهب أرسطو الجامد الصريح تحويراً بالغاً كعاد يقبله رأساً على عقب . فإن النفس إذا لم تسكن صورة للبدن فحسب بل ذاتاً روحية تتصل به فمن الضرورى أن تسكون شخصية ، أى خاصة بجسم معين . ويتبع ذلك أن يكون العقل المنفعل والعقل الفعال شخصيين أيضاً . فإذا انطوت النفوس المختلفة على عنصر غير شخصى ومشترك بينها جميعاً فذلك هو الصور العقلية التى توجد على حد سواء في جميع العقول الفردية الخاصة . تلك هى نظرية ابن رشد في تفسير آراء أرسطو الخاصة بالعقل . (١) وهذا هو السبب الذى يدعونا إلى القول بأن هذا الشارح كان أقرب مفكرى العصور الوسيطة إلى روح المذهب العقلى « Rationalisme » ؛ لأنه استطاع أن يتغلب على جميع الشبهات والصعوبات التى كانت تثيرها نظرية النفس في الفلسفة الأرسطوطاليسية . ولأن حق أن يوصف الفيلسوف القرطبي بالخروج على هذه الفلسفة فلنصفه بأن لم يكن أميناً عليها ؛ ولكن ليس لخصومه أن يرموه بالكفر والزيغ بسبب حرите في فهم أرسطو .

---

(١) ذهب دنيس في رسالته « Rationalisme d' Aristote, Paris 1848 » إلى رأى ابن رشد . ومع ذلك فإنه ينسب إلى هذا الفيلسوف رأياً مخالفاً ؛ ويهاجمه على هذا الأساس المزعوم .

وحقيقة إن رجلا مثل « سيجيردي برابانت » — الذي كان رئيساً للرشديين من اللاتين — كان أكثر أمانة من ابن رشد على الرغم من أنه يدعى التلمذ عليه . ولا شك في أنه أجاد فهم الفلسفة الأرسطوطاليسية في هذه المسألة وأساء فهم آراء أستاذه المزعوم . وليس هؤلاء الرشديون من اللاتينيين سوى هؤلاء الملاحدة اللذين حاربهم رجال الكنيسة ؛ لأنهم كانوا يؤكدون نظرية النفس الكلية عندما قالوا ، كأبي نصر الفارابي وابن سينا وغيرهما ، بأن العقل الفعال ذات خارجة عن النفس ، وأنه هو واهب الصور الذي تفيض منه جميع كائنات هذا العالم الدنيوى ونفوس البشر أيضاً . وقد كان « غليوم دوفرنى » ألد خصومهم . ثم جاءت مرحلة ثانية اعتمد فيها هؤلاء الملاحدون على رأى جديد ، فقالوا أو زعموا — بعبارة أكثر وضوحاً — أن ابن رشد قد قرر اشتراك الناس في عقل مادى كلى . وحينئذ فن الضرورى أن يشتركوا أيضاً في عقل فعال واحد ونفس كلية واحدة . فالهدف إذن واحد ، وإن اختلفت طرق الوصول إليه .

ومما هو جدير بالملاحظة أن أنصار وحدة العقل من الغربيين لم يجدوا مفرأ من الاعتراف بأن وجهة نظرهم الفلسفية تناقض تعاليم دينهم . وليس لنا أن نصدر حكماً عليهم حينما يحاولون تبرير سلوكهم بقولهم : « إنا نقرر حتماً حسب العقل أن هناك عقلاً واحداً فقط . ومع ذلك فإننا نؤكد العكس حسب الدين . » (١) فإن ما يهنا هنا هو أن نلاحظ أن تعريف أرسطو للنفس الذى يأخذ به « توماس الأكويني » يفضى إلى هذه اليدعة التى كان حريصاً على محاربتها ، وعلى نسبتها إلى ابن رشد بأى ثمن .

ولقد كان ابن رشد أكثر جرأة من خصومه عندما بين معارضة الفلسفة

(1) Du Unitate Intellectus P. 69

المشائية للدين في هذه المسألة . غير أنه لم يقف عن حد بيان هذه المعارضة ؛ بل اختار مذهباً آخر في تعريف النفس حتى يستطيع التوفيق بين الدين والعقل . ولم ينجح هذا الفيلسوف إلى الدين لكي يبرهن على أن الوظائف العقلية شخصية ، ولكنه وجد الحل لدى بعض مشاهير الفلاسفة الذين رعبوا عن تعريف أرسطو للنفس . ولا شك في أنه يشير هنا إلى الرئيس ابن سينا . ويمكننا القول أيضاً بأن ابن رشد كان أحد هؤلاء الفلاسفة . وأن حق للمرء أن يوجه إليه لوماً ما فمن الواجب ألا يأخذ عليه غلوه في نصرة المذهب العقلي ؛ بل يأخذ عليه بالأحرى تواضعه وحرجه في بيان اختلاف وجهة نظره عن وجهة نظر أرسطو . وربما أمكن تفسير تواضعه هذا بأنه كان شديد الإعجاب بالفلسفة المشائية ، وبأنه كان عنيقاً في نقد أمثال أبي نصر وابن سينا ممن كانوا يبيحون لأنفسهم أن يعبروا عن آرائهم الشخصية . ولكن مهما يكن من شأن هذا المسلك الغريب فإن هناك أمراً أكيداً لا بد لنا من التسليم به ، وهو أن فيلسوف قرطبة قد أباح لنفسه ما كان ينكره على غيره ، فعدّل وحوّر في مذهب أرسطو ، حتى انتهى إلى التوفيق بينه وبين آرائه الدينية .

### ٣ — المذهب السرري الماتيني<sup>(١)</sup>

ينبغي لنا قبل أن نعرض بالتفصيل لذكر الحركة الفلسفية بين التفكيرين الإسلامي والمسيحي في القرن الثالث عشر أن نتساءل كيف عدل أنصار النفس السكالية عن القول بوحدة العقل الفعال إلى تقرير وحدة العقل المادي . فإن فهم سبب هذا العدول يأتي ضوءاً كافياً على الخصومة بين « توماس الأكويني »

(1) L' Averroïsme latin

ويبين ابن رشد، كما يحدد لنا قيمة تلك الدعوى التي ترجع إلى الأول الفضل في إخماد ملحدى الغرب والقضاء على آثار الفلسفة الإسلامية في أوروبا .  
وقد سبق أن أشرنا لماما إلى سبب أسطورة ابن رشد في العالم المسيحي .  
ونشير هنا إلى تطور نظرية النفس السكلية لدى اللاتينيين بدل دلالة قاطعة على شناعة تلك الأسطورة وبهتانها . فإن « غليوم دوفرنى » رأى بثاقب فكره أن هذه النظرية نتيجة منطقية لنظرية الفيض ، ويمكننا تأكيد رأيه هذا بأن الملحدين من المسيحيين اعتمدوا ، أول الأمر ، على آراء الفارابي . وهناك ظاهرة أخرى ، وهي أن غليوم كان يجهل فلسفة ابن رشد . ومعنى ذلك أن آراء هذا الأخير لم تكن قد نقلت بعد إلى أوروبا . ومن المعجيب أن « إرنست رينان » يصرح بأن هذه الآراء كانت معروفة في ذلك العهد ، أى حوالى سنة ١٢٢٩ ميلادية .<sup>(١)</sup> ولئن كان ما يصرح به حقاً لوجب أن يكون « غليوم » على علم بالأساس الذى يبنى عليه خصومه بدعتهم . ولكن الواقع هو أن « غليوم » لم يذكر اسم ابن رشد سوى مرة واحدة ، وكان ذكره إياه في معرض المدح ؛ إذ وصفه بأنه فيلسوف فاضل كل الفضل .<sup>(٢)</sup> فهذا إذن دليل واضح على أن بدعة النفس السكلية لم تكن أمراً مستحدثاً ، وعلى أن ابن رشد ليس بالفيلسوف الذى يستحق أن تنسب إليه تلك البدعة . ولا شك لدينا فى قرابتها لآراء الفلاسفة المسلمين من أنصار الأفلاطونية الحديثة . ذلك أن غليوم يعرفها على هذا الأساس لأنه يقول : إن الملحدين يرون أن العقل الفعال هو المبدأ الذى تفيض منه جميع الأشياء القابلة للكون والفساد ، وأنه مصدر الصور والنفوس الإنسانية ، وأنه واحد ، وإن تعددت مظاهره . ومن ثم فليست

(1) Renan, Averroès, P. 225.

(2) De Universo, Ed, 1516, III. ch. x. T, II. II. tol. C. III' col. 4

جميع النفوس في حقيقة جوهرها سوى نفس واحدة . فهذا هو الأساس الذي كان سبباً في ضلالهم .

ونضيف إلى ما سبق أنه ليس بصحيح ما ذهب إليه « رينان » أيضاً من أن « غيلوم » كان أول أعداء الفلسفة الرشدية ، إذ لا تنسب النظرية التي حاربها هذا المفكر لا إلى ابن سينا ولا إلى الغزالي ولا إلى ابن رشد . فإن الرئيس أبا علي الحسين ، وإن أكد أن النفوس الإنسانية تفيض من العقل للفعال ، فقد قرر من جهة أخرى بقاء هذه النفوس بعد الموت . وكذلك فعل الغزالي . أما أبو نصر الفارابي فكان أكثر من هذين الفيلسوفين اتباعاً لمنطلق نظرية الفيض . ولذلك ذهب إلى أن النفوس تعود بعد الموت إلى مصدرها الذي فاضت عنه . ولما كان هذا المصدر ذاتاً واحدة وجب أن تتحد النفوس ، وتكوّن نفساً كلية . وحينئذ فن الأكد أن « غيلوم » لم يفكر قط في نسبة هذه النظرية إلى ابن رشد . وفيما عدا ذلك ، فإن هذا الفيلسوف الأخير أبعد ما يكون عن كل شبهة ، لأنه رفض قبول كل من نظرية الفيض ، والتمفرقة بين الماهية والوجود ، وعدّها خارجيتين على أصول الفلسفة الأرسطوطاليسية .

وإنما أخطأ « رينان » في هذا الصدد ، لأنه بنى حكمه على أساس واه ، وهو أن أبا الوليد لم يكن فيلسوفاً بمعنى الكلمة ، وأنه لم يفعل سوى أن نقل آراء سابقيه من مفكري الإسلام . ويفسر لنا هذا لماذا أصر « رينان » على أن ابن رشد كان المقصود بكلام غيلوم ، وإن لم يصرح باسمه . ولا نسكاد ندرك السبب في هذا التحامل والأصرار على تحميل النصوص ما لا تحتل . لقد ذكر « غيلوم » اسم الفارابي وابن طفيل ذكر اصريحا ، وكان يجهل كل شيء عن فيلسوف قرطبة .

آخر فلاسفة الإسلام في الأندلس . ومع ذلك فإن « رينان » يرى غير ما نرى ،  
وغير ما يرى غليوم نفسه ، فكيف نستطيع مناقشته بعد ذلك كله ؟

وإن لنا أن نعجب كيف لم يقطن « رينان » إلى إلحاح غليوم في بيان  
الصلة بين بدعة النفس السكلية ونظرية الفيض ؛ وكيف أنه لم يعدل عن خطئه ،  
وبخاصة بعد أن أظهر « غليوم » سخطه وغضبه على هؤلاء الذين يستترون تحت  
اسم ابن رشد . أليس هذا السخط دليلا على أن أساتذة الجامعة في باويس كانوا  
قد شرعوا يغيرون اتجاههم ، ويتخذون أكبر شراح أرسطو إماما لهم مع أنهم  
كانوا يجهلون كل شيء عن فلسفته وشروحه ؟ لقد سمعوا باسمه ، ووقفوا على  
شهرته ، قبل أن تتطرق فلسفته الحقيقية في أوروبا <sup>(١)</sup>

وفي الواقع لم يقف الغربيون على شروح ابن رشد لكتب أرسطو  
إلا في وقت متأخر . وذلك عندما نشطت حركة الترجمة في النصف الأول من  
القرن الثالث عشر . وقد أدى تطرق شروحه لأرسطو إلى تحول حاسم في مسلك  
أنصار بدعة النفس السكلية والعقل السكلي ، وبيان ذلك أنهم كانوا يتحدثون  
في أيام ألبرت الأكبر عن وحدة العقل الفعال . وكان ألبرت نفسه يرى  
رايهم في طبيعة هذا العقل لأنه يقول : « إن هذا العقل يفعل دائما .  
وهذا هو ما أراد الفلاسفة القدماء التعبير عنه بأن العقول الإنسانية توجد فيه  
غير منقسمة ؛ لأنها توجد جميعها في ذاته ، وتستمد حياتها من ضوئه .  
ولما كان فعله عاما فإنه يترتب على ذلك أنه صورة لجميع المعقولات .  
ومع ذلك ، فإن هذه الصورة توجد في كل عقل من العقول [ الإنسانية ]

---

(١) كان الأوروبيون قد شرعوا منذ قليل في نقل شروحه لأرسطو ، ولسكنهم لم يكونوا  
قد فسكروا بمد في نقل كتبه الخاصة أو الاطلاع عليها .

حسب استعداده العقلي ، لا حسب قوة المبدأ الفعّال . . . وهذا المبدأ الفعّال هو في ذاته أصل كل إدراك عقلي ، وهو السبب في إدراك النفس لكل الأمور العقلية .<sup>(١)</sup>

وقد حاول بعض مؤرخي الفلسفة المسيحية في العصور الوسيطة أن يروا في هذا النص دليلاً على أن « ألبرت » كان يدين إلى حد ما بنظرية وحدة العقل المنسوبة إلى ابن رشد . ولكن مهما يكن من قول هؤلاء ، ومن ادعاء « ألبرت الأكبر » أنه أخذها من الشارح الأكبر ، فليست هذه النظرية رشدية . والسبب في ذلك جد يسير . فإن الحديث يدور هنا حول العقل الفعّال كبدأ وجرثومة لكل الصور العقلية . فليس هذا العقل إذن سوى واهب الصور في الفلسفة الإسلامية السنية أو الفارابية . ونحن نعلم موقف أبي الوليد في هذه المسألة . هذا من جهة ، ومن أخرى نرى أن « ألبرت » يصرح بأن العقل الفعّال يحرك النفس ، ويشرق عليها وهو خارج عنها ؛ بينما كانت الفيلسوف القرطبي ينكر نظرية الإشراق إنكاراً باتاً . فليس ثمة لأذن ريب في المصدر الذي نهل منه « ألبرت » — ومن المحتمل أن يكون قد أخذ ذلك إما عن موسى بن ميمون ، وإما عن الفارابي .<sup>(٢)</sup> وبناء على ذلك نرى أن نظريته في وحدة العقل ليست نصف رشدية ، كما يزعم بعض مؤرخي الفلسفة ، بل هي أفلاطونية حديثة ملونة بلون إسلامي إلى أكبر حد .

(1) Albert le Grand. De intellectu et intelligibili. T. IX P 506 - 507° cité par M. Gorce. Mélanges Mandonnet. T. 1. P 225

(٢) فيما يتعلق برأى موسى بن ميمون لإرجع إلى :

Munk, Guide des Egarés T III p 212.

ونستطيع القول — على نحو ما — بأن « ألبرت الأكبر » كان أول تلاميذه.  
ابن رشد الأدعياء ، وأنه كان جديراً بغضب « غليوم دوفرنى » الذى كان يعجب  
لأمر هؤلاء المارقين الذين يستترون وراء اسم فيلسوف نبيل . وقد بلغت بألبرت  
الجرأة على فيلسوف قرطبة إلى حد أنه يقول: « إن العقول من حيث هى عقول ليست  
إلا عقلاً واحداً ، وإنما تتعدد من جهة اتصالها بهؤلاء أو هؤلاء . ونحن نفكر  
مثل ابن رشد ، وإن كنا نختلف عنه بعض الشيء فيما يتصل بمسألة تجريد المعانى . »  
ولسكنه نسى أن الفيلسوف المسلم إنما يتحدث عن المعانى السككية — كما رأينا —  
لاهن العقول الإنسانية . وإنما يرجع هذا الخلط إلى سبب يسير ، وهو أن  
« ألبرت » كان يسوى ، على غرار النزاربى وابن باجه ، بين المعقولات والعقول ؛  
بينما كان ابن رشد يتحدث عن وحدة الصور العقلية التى يكتسبها جميع الناس  
على حد سواء بواسطة التجريد . وإنا لنعرف لماذا يقول « ألبرت » إنه يختلف  
بعض الاختلاف عن أستاذه المزعوم ؛ وذلك لأنه كان مشبعاً بروح الفلسفة  
الإشراقية . ومنتقد من جانبنا أن الاختلاف بينهما ليس يسيراً ، كما يظن  
« ألبرت » بل هو اختلاف كبير جداً . ولقد كان ادعاء « ألبرت الأكبر »  
بدءاً لذلك المذهب الغريب الذى سموه المذهب الرشدى اللاتينى . وقد ذهب  
بعض أبناء ملته إلى القول بأنه كان السبب فى تطرف جامعة باريس فى تمضيد  
أسوأ مذهب رشدى فى وحدة العقل .

ومن الغريب أن البابا عهد إلى « ألبرت » فيما بعد أن يقوم بتفنيد هذه  
المبدعة وإظهار تهافتها . غير أن الزمن كان قد دار دورته ، وشدا أنصار وحدة  
العقل يتمددون على أساس جديد . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن كتب أرسطو  
وشروح ابن رشد لها كانت قد أخذت فى الظهور فى أثناء تلك الفترة ، وإلى أن

آراء الفلاسفة المسلمين من أنصار الأفلاطونية الحديثة كانت قد بدأت تنهار شيئاً فشيئاً . ويفسر لنا هذا السبب في إخفاق « ألبرت » في محاولته . فإن هذا المفكر كان يتحدث بلغة لم تعد تتفق مع تفكير ذلك العصر . ومن ثم فإن مقالته في « وحدة العقل » لم تؤد إلى الغاية المرجوة منها . وهكذا ظل بعض أقطاب جامعة باريس يدرسون هذه البدعة . بيد أنهم كانوا لا يعتمدون على نظرية الفيض ، كما كانت الحال منذ خمسين سنة خلت ، وإنما أخذوا يعتمدون على مبدأ أرسطو القائل بأن أفراد النوع الواحد لا يختلفون بصورهم ؛ بل بموادهم .

تلك هي المراحل التي مرت بها بدعة النفس الكلية والعقل السكلي في أوروبا حتى انتهت إلى مرحلتها الأخيرة ، ونعني بها تلك التي احتدمت فيها الخصومة بين علمين من أعلام التفكير الفلسفي المسيحي في القرن الثالث عشر ، وهما « توماس الأكويني »<sup>(١)</sup> و « سجيردي برابانتي »<sup>(٢)</sup> . ويلاحظ أن محور الخلاف بينهما كان يدور فقط حول مبدأ أرسطو سالف الذكر ؛ وذلك أن نظرية الفيض الإسلامية كانت قد أصبحت نسياً منسياً .

#### ٤ — موقف توماس الأكويني

هاجم توماس آراء أهل جامعة باريس مرتين . فإنه يقال إن البابا الإسكندر الرابع طلب إليه حوالي سنة ١٢٥٧ ، أن يتصدى للرد عليهم ، وأن يفند بدعتهم التي أخذوها — كما يقولون — عن الفلسفة الإسلامية ، وعن أبي الوليد بن رشد بصفة خاصة . ويقال أيضاً إنه ألف كتابه المسمى « الخلاصة ضد أهل

(1) Thomas d' Aquin. (2) Siger de Brabant.

( ١٨ في النفس والعقل )

جامعة باريس»<sup>(١)</sup> في هذا التاريخ تقريباً . وإنما لنيل إلى تصديق هذه الرواية ؛ لأنها تتفق وسسير حركة الإلحاد في أوروبا وإخناق « ألبرت » في القضاء عليها .

ويحتوى كتاب الخلاصة على فصلين يتصلان اتصالاً وثيقاً بالمسئلة التي نعالجها في هذا المقام ، وهما الفصل التاسع والخمسون والفصل الستون من الجزء الثانى . ويزعم توماس في الفصل الأول منهما أن ابن رشد كان يقول بأن العقل المادى جوهر روحى مفارق ، وليس صورة للبدن<sup>(٢)</sup> ، ثم يعقب على ذلك بأن فيلسوف قرطبة كان يرى أن هذا العقل يتصل بالإنسان بواسطة الصور الخيالية ، وأن المعانى العقلية بالفعل صور له ، وأنه لا فرق هنا بين هذه المعانى وبين هذا العقل .

ولكن لنا أن نتساءل فنقول : هل نستطيع الثقة بأمانة هذا المنسكرو وحسن عرضه لنظرية ابن رشد الخاصة بالعقل المادى ؟ حقا إن فيلسوفنا يقول بأن هذا العقل جوهر مفارق ، بمعنى أنه مستقل عن البدن وعن الصور العقلية التي يتقبلها.<sup>(٣)</sup> كذلك نعلم من جانب آخر أنه لم ينكر قط أن هذا العقل صورة للجسم . ومع ذلك فهناك ما يحول دون قبولنا للحجج « توماس الآ كوينى » . فإن معنى الصورة عند هذا الأخير يختلف كل الاختلاف عنه لدى الشارح الأكبر ؛ لأن ابن رشد ينص على أن العقل المادى صورة للجسم من جهة أنه أحد مظاهر النفس ، وهى كما نعرف جوهر مستقل يتصل بالبدن . ولقد رأينا أنه أكد هذا

(1) Pettot. Saint Thomas d'Aquin. 81.

(2) Cont. Gent. II. Cap LIX ; Ut ipse dicit ( De Anima III text: Comm. 5 ) ad ponendum intellectum possibilem, quo intelligit anima, esse separatum secundum esse a corpore et non esse formam corporis.

(٣) أنظر ص ٢٥٢ وما بعدها

الرأى فى تلخيصه لكتاب النفس لأرسطو ، وأنه سوى بين كل من العقل المادى والعقل الفعال (١). أما معنى الصورة لدى « توماس » فهو معناه لدى أرسطو . ولذلك ليس بمجيب بعد هذا كله أن يسىء هذا المفكر فهم مذهب ابن رشد ، إن عفوا وإن قصدا . ولم يكن بد من أن تتراكم الأخطاء ، ويتوالى سوء الفهم ، وبخاصة لأن كلا من الخصمين يستخدم مصطلحات مخالفة لما يستخدمه الآخر .

وعلى هذا النحو استطاع « توماس » ، دون مشقة ما ، أن ينسب إلى خصمه ما شاء من الأباطيل والآراء التى لم نجد لها أثراً فى كتبه . فهو يزعم أن الفيلسوف القرطبي يرى أن العقل المادى جوهر عقلى مشترك بين جميع النفوس البشرية . ولا شك فى أنه يخطئ الهدف كما فعل الرشديون اللاتينيون من قبل . وبيان ذلك أنه لم يستطع — أو لم يشأ — التفريق بين أمرين هما : نظرية اتصال النفس بالبدن عند ابن رشد ، ونظرية النفس الكلية التى ذهب إليها فلاسفة آخرون يعلمهم « توماس الأكويني » كل العلم . وشتان بين كلتا النظريتين . فإن أبا الوليد إذا تحدث عن اتصال ما فإنه يتحدث عن اتصال العقل المادى بالعقل الفعال . وسنرى أن لهذا الاتصال معنى خاصاً يختلف اختلافاً تاماً عما ذهب إليه الفارابي وابن سينا والغزالي وابن طفيل . ذلك بأن الاتصال لدى الأول عقلى إنسانى محض ، أى عمالية تتم داخل النفس الإنسانية أولاً وآخراً ، وأما الاتصال لدى الآخرين فذو دلالة أو اتجاه صوفى ؛ لأنه يزعم أنه يرفع الإنسان من عالمه الحسى لينتهى به إلى مشاركة عالم الأمر الألهى .

ومن الواضح أن تعريف أرسطو للنفس كان أشبه بستانار كثيف حجب عن عقل « توماس » حقيقة الأمر فى مذهب ابن رشد ، فلم ير أن هذا الفيلسوف

(١) أثار ص ٢٤٥ وما بعدها .

يضع أسس مذهب عقلى مجرد من كل نزعة صوفية . وهذا هو السبب الذى من أجله أجهد « الأكويني » نفسه فى البحث عن الحجج للبرهنة على تفاهة آراء أبى الوليد ، ولإظهار أن فساد نظريته أشد ما يكون جلاء ووضوحا .

ومع كل ما بذله من جهد ، فإن تلك الحجج لتضاهى جميعها ، واحدة تلو أخرى ، أمام هذه النظرية الجديدة التى تقرر أن هناك تدرجا بين الوظائف النفسية من أدنى مراتب الإدراك إلى أسماها شأنا ، أى من مجرد الإدراك الحسى للأشياء الخارجية حتى الحدس العقلى ، وهو إدراك النفس لذاتها كجوهر روحى مفارق لكل مادة . فليس العقل المادى ذاتا خارجة عن النفس ، ولكنه النفس ذاتها إذا نظر إليها من زاوية خاصة .

ومن الغريب حقا أن يعود « توماس الأكويني » ، بعد أن بذل كل ما بذل فى نقد خصومه من اللاتينيين ، إلى هذه النتيجة التى سبقه إليها أبو الوليد ، فيتخذها قولا فصلا بينه وبين الملحد من بنى ملته . ومعنى ذلك أنه لم يستطع إقحام أنصار بدعة العقل الكلى إلا بالاعتماد على رأى يختلف تمام الاختلاف عن آرائه الشخصية السابقة . وذلك لأنه يقول كيف لنا أن نقبل وحدة العقل ، ونحن نعلم أن النفس فى جوهرها عقل محض ، وأن هذا العقل هو الصورة الحقيقية للبدن ؟<sup>(١)</sup> فما الذى دعاه إلى هذا التحول المفاجيء ؟ ولماذا يهرع من جديد إلى آراء ابن رشد الحقيقية لى يتخذها سلاحا ضد تلاميذه الأذعياء ؟ ألم يؤكد لنا توماس الأكويني أكثر من مرة أنه ليس ثمة سبيل إلى التسوية بين العقل والنفس لأنه أحد أجزاءها ؟ وعلى الرغم من هذا التناقض ، فليس لنا أن نجهد الفكر أكثر مما ينبغى فى تلس أسباب هذا العدول . فإن لتوماس آراء مختلفة

(1) Summa contra gentiles : Est igitur intellectus anima hominis et per consequens forma eius.

ومتناقضة ، وهو يستخدم ما يحلو له منها حسبما تدعو إليه الحاجة . ولو ذهبنا  
نحصى عليه ترده لخرجنا عن الحدود التي رسمناها لأنفسنا في هذا الكتاب ،  
فيكفي أن نقول : إنه الآن في معرض الرد على ملحدى بنى ملته . فما الذي يمنعه  
إذن من التنكر لأرائه السابقة ما دامت الغاية تبرر الوسيلة ؟ وقد يتوقع المرء أن  
ينسب هذا المفكر هذا الرأي الجديد إلى صاحبه . ولكنه لم يفعل ؛ بل ذهب  
إلى ما هو أبعد من ذلك ، فزعم أن أبا الوليد شوه فلسفة أرسطو ، وأنه استقلها  
أسوأ استقلال ؛ لأنه يذكر أن العقل المادى يوجد لدى الطفل . وحقيقة لا ندرى  
لماذا يجد توماس مغمزا ومطعنا حيث لا مغمز ولا مطعن ؟ وهل من التناقض في  
شيء أن تسكون النفس لدى الطفل مجرد استعداد للمعرفة والإدراك ، وأن تصبح  
عند البالغ قدرة على تجريد معانى الأشياء واستيعابها وإدراك ذاتها ؟

ومما يدل دلالة واضحة على أن مسلكه هذا مسلك مؤقت دعت إليه الحاجة ،  
ولا ينبع عن فكرة واضحة ثابتة أنه عدل عنه في نفس الكتاب الذى ألفه لتنفيذ  
آراء ابن رشد المزعومة . فإنه يقول في الفصل الستين من كتاب « الخلاصة ضد  
أهل جامعة باريس » : إنه لا بد من التفرقة بين العقل والنفس ؛ لأن هذه  
الأخير ليست جوهرأ كاملا ؛ بل هي صورة للبدن ، وهي تحتوى إلى جانب  
ذلك على شيئين مختلفين كل الاختلاف : يوجد أحدهما بالقوة ، ويوجد الآخر  
بالفعل ، وهما العقل المنفعل والعقل الفعال ، وكلاهما وظيفة من وظائفها . أفبعد هذا  
كله يحق لمثل هذا المفكر أن يأتي ويدعى أنه يهاجم ابن رشد ، ويهدم نظريته ،  
مع أن هذا الفيلسوف المسلم كان يرى أن حقيقة الإنسان هي نفسه لا بدنه ، وأن  
لهذه النفس مظاهر شتى ، فأحيانا توجد بالقوة وأخرى بالفعل ؟

وربما كان « لتوماس الأكويني » بعض العذر لو جمع أبا الوليد وأبا نصر

وابن طفيل في سلك واحد . ولكنه أبى ، على العكس من ذلك ، إلا أن يخص الأول منهم بكل عنايته وخصومته . ولو سلمنا جدلاً أن نقده يصيب هدفاً ما فليس من الممكن أن يكون ذلك الهدف سوى هؤلاء الذين عجزوا عن فهم فلسفة ابن رشد ، ونعى بهم ملحدى باريس ، أو متدينهم . أما الأولون فلاهم نسجوا إليه ما هو منه براء ، وأما الآخرون فلاهم ، وإن علموا آراءه الحقيقية وأحسنوا استخدامها للرد على آرائه المزعومة ، فقد آثروا أن يكتنموا وجه الحق في مذهبه ؛ لأن هذا المسلك كان في صالحهم .

ولقد سنحت لتوماس فرصة أخرى يهاجم فيها نظرية وحدة العقل . ذلك أنه عاد إلى هذه المسألة بعد ثلاث عشرة سنة تقريباً ، أى سنة ١٢٧٠ ميلادية . ومع ذلك فإن خصومه في هذه المرة كانوا هم أنفسهم خصومه في المرة الأولى ؛ وذلك لأنه يقول : « لقد كتبنا أشياء كثيرة ضد هؤلاء منذ زمن طويل . ولكن لما كان هؤلاء لا يقلعون عن تبجحهم في إنكار الحقيقة فقد عقدنا العزم على الكتابه من جديد . » تلك هى العبارة التى قدم بها كتابه الجديد الذى أطلق عليه اسم « وحدة العقل ضد الرشدين من أهل باريس » . وليس ثمة ريب فى أن هذا الكتاب كان رداً على « سيجيردى برابانت » . ولذلك فليس من الممكن أن يكون موجهاً إلى ابن رشد نفسه وبطريقة مباشرة .

وفى الواقع لا يهاجم هذا المفكر نظرية وحدة العقل إلا على اعتبار أنها مرتبة ارتباطاً وثيقاً بنظرية النفس الكلية . وإذن نجد أن هذا النقد لا يتجه بحال ما لملى أبى الوليد بن رشد . فإن هذا الأخير ، وإن اعترف بقوة حجج هؤلاء الذين يذهبون إلى القول باتحاد جميع أفراد البشر فى عقل واحد ، فإنه يدفعها بقوله إن كل نفس عقل فعال ، وإن لكل شخص نفسه الخاصة به . وبذلك

يتخلص من الصعوبة التي وقع فيها غيره ؛ لأنه يرى أن النفس ، كجوهر روجي مستقل عن البدن ، تختلف عن غيرها بذاتها ، وكأن كل نفس نوع قائم بذاته .  
ومن الغريب أن « توماس الأكويني » لا يتورع عن الاستعانة بأراء ابن رشد مع إصراره على رميه بالفرية الكبرى . أما تلك الحججة الجديدة التي استعارها من فيلسوف قرطبة فهي أن اختلاف الصور الخيالية التي يستخدمها الأشخاص في التفكير دليل على استقلال العملية العقلية لدى كل منهم . وبيان ذلك كما سبق أن بيّنا أن المرء إذا فكر في معنى خاص كالإنسانية مثلا فإنه يتمثله في صورة خاصة ، أي أنه يطبقه على نموذج أو صورة خيالية معينة . وتختلف هذه الصورة أو ذلك النموذج بطبيعة الحال باختلاف الأشخاص الذين يفكرون .

ويعترف « توماس الأكويني » أنه وجد هذه الحججة في شروح ابن رشد للجزء الثالث من كتاب النفس . وقد وصفه بالتمويه والخداع والرياء ، لأن هذه الحججة لا تعبر - كما يزعم - عن رأيه الحقيقي . وللمرء أن يتساءل : وأى حاجة دعته إلى الخداع والتمويه ، وبخاصة إذا كان الأمر بصدد أحد شروحه للفلسفة الأرسطوطاليسية ؟ إنها لو وجدت في كتاب تهافت التهافت أو في أى كتاب آخر من كتبه الشخصية ، كناهج الأدلة أو فصل المقال ، لجاز لخصومه ومهاجميه أن يدعوا أنه مخادع ومموه . ولكننا نعجز والحق عن معرفة السبب الذي دعاه إلى سلوك هذا المسلك في شرح كتاب النفس .

لقد أجهد « توماس » نفسه كل الجهد حتى يعرض علينا خصما لا خلق ولا ضمير له . ولكن ابن رشد كان أكثر عدلا مع خصومه وأشد حرصا على تلمس الأعذار لهم إن أخطأوا ، وأسرع الناس إلى الثناء عليهم إن أصابوا .

وربما لم يكن « لتوماس » بد من أن يبرهن كيفما كان الأمر على تمويهه وخداعه . ولا شك في أن جريرة أبي الوليد لديه كانت من النوع الذي لا يعتقر . فإنه كان طائر الجدين انتسب إليه تلاميذ أديعاء ، ووكّل أمر نقده إلى قضاة ليسوا عدولا مثله . ولقد كان هذان العاملان معاً سبباً في بقاء الأسطورة الرشدية حتى يومنا هذا . فلئن قال فليسوفنا رأياً يتفق مع العقائد الدينية كل الاتفاق في أحد كتبه ، كتهافت التهافت أو مناهج الأدلة ، قيل لنا : احذروا ما يقول ولا تعتقدوا شيئاً مما يذكر . وقد يذهب بعضهم إلى حد أن يصف مثل هذه الكتب بأنها قد ألفت من أجل الجدل والمناقشة ، وأنه ينبغي أن نلجأ إلى شروحه لكتب أرسطو لنعلم رأيه الحقيقي<sup>(١)</sup> . وقد يقول آخرون<sup>(٢)</sup> : إن كتاب مناهج الأدلة لم يكن يرمى إلا إلى تملق العامة والمتدينين . ولكن إذا اتفق أن نص ابن رشد على أن هناك فروقا شخصية في العمليات العقلية لدى الأفراد ، دون أن يكون ذلك مناقضا في شيء لروح مذهبه في تفسير المعرفة الإنسانية ، فإن خصومه لا يتوردعون عن رميه بالخطأ والرياء .

وحقيقة ليست هناك مخالفة من جانبه . ويمكننا القول بأن « توماس الأكويني » إما مخطيء وإما متحامل . وذلك لأن ابن رشد ، وإن سلم بأن المعاني الكلية لا تختلف باختلاف الأشخاص ، فإنه يعترف بوجود فروق بينهم في تصور هذه المعاني واستحضارها في الخيال . إن عموم المعاني الكلية هو ما يطاق عليه هذا الفيلسوف اسم العقل المكتسب أو العقل بالفعل . وهذا هو معنى وحدة العقل لديه كما تبين لنا ذلك في أول هذا الفصل . وليس سبيل إلى

(١) هذا هو رأى ارلست رينان .

(٢) هذا هو رأى ليون جوتيه « Léon Gauthier » أنظر كتابه :

Accord de la religion et de la philosophie d'Averroès Alger, 1909

وأنظر كتابنا : الفيلسوف المقترب عليه ابن رشد .

القول بأنه كان يؤكد هذه الوحدة فيما يتعلق بكل من العقل المادى أو الفعال ، كما يحاول « توماس » أن يرغمنا على اعتقاد ذلك . إن طبيعة النفوس البشرية واحدة ، ولكن ليس معنى ذلك أنها متحدة بالفعل ، وأنها تكون نفساً واحدة أو عقلاً كلياً ، وذلك لأن النفس في مذهب ابن رشد كأن روحى قائم بذاته ، ولأنها تبدو بمظاهر أو وظائف شتى .

إن المصادر التى اعتمدنا عليها لكثيرة العدد ، وإنا لنشعر بشيء من السأم فى العودة إليها حيناً بعد حين . ولئن وجد المرء وقتاً للرجوع - لو شاء - إلى هذه النصوص التى تشير إليها فسوف لا يكون أقل منا استهجاناً للمسالك الذى ارتضاه خصوم ابن رشد ، وغضبا من شناعة الأسطورة التى حيكت حول اسمه إن فى الغرب وإن فى الشرق . وهل لنا أن نشق برينان أو بجوتيه أو بتوماس الأكوينى أم ينبغى أن نعود إلى المصادر الأولى لى نبحث عن الحقيقة ، دون أن نكون متأثرين بنزعة دينية ، أو بهذه الأخطاء المتراكمة منذ القرون الوسطى ؟ أليس من حسن السياسة فى البحث أن نتصفح كل ما كتبه الفيلسوف القرطبي حتى نكون لأنفسنا فكرة صادقة وواضحة عن نظريته المنسقة التى لا عوج فيها ولا اضطراب ؟

وسوف نزيد علماً برأيه الحقيقى فى مسألة العقل عندما نأخذ فى تحايل نظريته فى الاتصال بين العقل المادى والعقل الفعال . فليست هذه النظرية إلا تفسيراً لما نطلق عليه اسم الحدس العقلى ، أو ما يسميه أبو الوليد إدراك النفس لذاتها . ويمكننا القول بأن هذه العملية العقلية الأخيرة هى خلاصة مذهب الفيلسوف القرطبي فى شرح المعرفة الإنسانية .

وما كان من المستطاع مجال ما أن يرقى « توماس الأكوينى » إلى هذه

القمة . فإن إدراك النفس لجوهرها لا يتفق مع آرائه فيها . فإنه كان يرى أن اللحم جزء من ماهيتها . ولكن يذكر له أيضاً أنه كان يصف النفس في قليل من الأحيان على نحو يقربه من الشارح الأكبر . ومع ذلك فقد كانت تلك الأحيان شطحات أو خلسات لا يستقر عليها « الأكويني » إلا قليلاً . فمثلاً نقرأ لديه على مثل هذه العبارة : « إن النفس جوهر وهي بطبيعتها صورة لجوهر آخر »<sup>(١)</sup> . إن توماس يتأرجح بين تعريفين للنفس أحدهما أرسطو طاليسي والآخر إسلامي . غير أن ذلك لا ينقذه من التناقض . وها هو ذا مثال لذلك . فإن النص الذي سنورده يحتوي على شقين أحدهما أرسطو طاليسي والآخر إسلامي . فقد قال هذا المفكر<sup>(٢)</sup> : « ومع ذلك فمن الواضح أن النفس العاقلة تتحد ، بحسب طبيعتها ، بالبدن كصورة له ، ومع ذلك فإنها تعود إلى وجودها الخاص إذا تهدم البدن » . وقد تلافى ابن رشد مثل هذا التناقض حين قال إن النفس جوهر روحي . قائم بذاته وصورة للبدن في وقت واحد .

أما فيما يتعلق بالحجج التي أوردتها « توماس الأكويني » لبيان فساد الرأي القائل بأن العقل الفعال مشترك بين جميع أفراد البشر فإنها لاتتجه بحال إلى فيلسوف قرطبة ، بل إن أتباع نظرية الفيض أحق بها منه . ولو أن توماس كان منصفاً لوجهها إلى أبي نصر الفارابي أو إلى ابن سينا أو إلى الغزالي . ولكن كيف له أن يكون منصفاً ، وقد أخذ على عاتقه هدم فلسفة ابن رشد مهما كلفه الأمر ؟

وما يدل . على حدة الخصومة بينه وبين تلاميذ ابن رشد الأدعياء أنه أصر على موقفه هذا مع علمه بحقيقة نظرية العقل لدى هذا الفيلسوف المسلم .

(1) Sum. Theol. I, q. 76, art, 2

(2) Ibid, I q, art 5. ad 2 m.

فقد عرض هذه النظرية عرضاً صحيحاً في كتابه المسمى الخلاصة اللاهوتية حين قال : « إن العقل الفعال يخلق المعنى الكلي بتجريده من المادة . وليس معنى ذلك أنه واحد لدى جميع أفراد البشر . ومن الممكن اعتباره كذلك تبعاً لمسلكه من جميع الأشياء التي يتخذها نقطة بدء لتجريد المعنى العام » .<sup>(١)</sup> وهذا هو ما كان يقوله أبو الوليد بصدده وحدة العقل . ويمكن التعبير عن هذه الوحدة بعبارة حديثة إذا قلنا إن التركيب النفسى لدى مختلف أفراد الجنس البشرى من نوع واحد . فكيف لا يرى إذن « توماس الأكويني » بتهمة العقل الكلى مادام يعترف هو الآخر بوجهة نظر خصمه الألد ؟ إنه ليعترف بأن الإدراك العقلى يمر بمراحل مختلفة : فهو يوجد بصفة كامنة أو بالقوة ، كما يقول ، ثم يظهر بصفة فعلية ، وتساعد على ذلك بعض العوامل الأخرى ، ويعنى بها الإحساسات والصور الخيالية .

ولسكن لئن اتفق الخصمان على تفسير تدرج الوظائف العقلية على النحو السابق فإنهما يفترقان آخر الطريق . وذلك لأن ابن رشد كان يرى أن النفس إذا أدركت معانى الأشياء المادية استطاعت إدراك ذاتها فى آخر الأمر . وإنما كان ذلك أمراً مستطاعاً لأنها كأئن مستقل على الرغم من وجود بعض الصلات بينها وبين الجسد . وإذا أدركت النفس ذاتها لم يعد ثمة مجال للفرقة بين المدرك والمدرك ، أى بين العقل والمعقول ، وذلك لأنه لا يمكن التمييز حينئذ بين مظهرين مختلفين : أحدهما بالقوة وأحدهما بالفعل . أما « توماس الأكويني » فإنه ، وإن اعترف بأن العقل يدرك نفسه ، فإنه يرفض نظرية الحدس العقلى رفضاً باتاً ، فيقول إن النفس تستطيع إدراك عملياتها العقلية ،

(1) Ibid I, q. 76 art, 2 ad 2 m .

ولسكنها تعجز عن إدراك جوهرها على حقيقته ، لأن اللحم يدخل في تعريفها ، وهو جزء من ماهيتها .

فإذا نحن بحثنا عن السبب في الاختلاف بين هذين المفكرين وجدنا أنه يرجع إلى عدم اتفاقهما في تعريف النفس . وربما كان هذا الاختلاف أحد العوامل الثانوية التي أدت إلى عدم فهم توماس الأكويني لمذهب خصمه على حقيقته ، أو التي ساعدته على تشويبه .

ومها يكن من شيء ، فإن « توماس » يقف في منتصف الطريق فيكتفي بوصف عملية التجريد الخاصة بانزاع المعاني من الأشياء الحسية . ولم يكن مذهب ابن رشد المثالي ليغريه ، مع أنه ليس في هذا المذهب ما يدعو إلى الريبة أو يوصف بالإلحاد . إنه مذهب نفسى مثالى يقف فيه الشعور أو « الأنا » على شخصيته ، وتنمحي فيه كل فكرة تدل على الازدواج ؛ لأن المعقول والعقل شيء واحد . وقد كان فيلسوفنا المسلم يرى في هذا الحدس العقلى سعادة المرء في أثناء الحياة الحاضرة .

وإنه لمن الخطأ الفاحش أن اختار أنصار الفلسفة الأرسطوطاليسية في أوروبا ابن رشد ليجملوه حامل لواء إلحادهم ومروقهم . ولقد وقف « رينان » بثاقب فكره على هذا الأمر ، وهو أن فيلسوف قرطبة كان يعبر عن شخصيتين مختلفين كل الاختلاف في الفلسفة المسيحية في القرون الوسطى . فهو من جهة الملحد الزنديق ، وهو من جهة أخرى الشارح الأكبر . ولقد قال « أسين بالاسيوس » الذى أخذنا عنه هذه الفكرة الأخيرة : « إنى أعتقد أنى برهنت على أن القديس توماس لم ير سوى الوجه الثانى لهذه الشخصية المزدوجة ، وفضلا عن أنه كان أبعد الناس عن أن يكون ضحية للخطأ الذى وقع فيه

---

« المدرسيون » الآخرون الذين نسبوا إلى ابن رشد آراء المارقين من اللاتينيين فإنه عرف كيف يقدر له التوفيق المتسق بين الدين والعقل الذي أخذه عنه كاملاً<sup>(١)</sup>. وقد قال « أسين » أيضاً: إن الأكويني لم يشارك أهل ملته في وصف ابن رشد بالكفر . ومع ذلك فإننا نرى ، من جانبنا أنه مسئول ، إلى أكبر حد ، عن خلق الأسطورة الرشدية في الغرب ، لأنه كان يستطيع الرد على أكبر خصومه من الباريسيين ، ونعني به « سيجير دى برابانت » ، دون أن يقحم أبا الوليد في مثل هذه الخصومة .

---

(1) El Averroismo Teológico de Santo Tomas d' Aquino, Zaragoza, 1904, P. 319 et suiv.

## الفصل التاسع

### نظرية ابن رشد في الاتصال

#### ١ — تمهيد

لقد خصص ابن رشد عدة مقالات للبت في مسألة عرضها أرسطو في كتابه عن النفس وتركها دون حل . فإنه قال في نهاية الفصل السابع من الجزء الثاني من الكتاب سالف الذكر : « أما فيما يخص هذه المسألة وهي : أمن الممكن أن يفكر العقل في شيء مفارق ، دون أن يكون هو نفسه مفارقاً للمادة ، أم ذلك غير ممكن ؟ فهذا هو ما سنفحصه هنا فيما بعده » . ومع ذلك فإنه لم يف بما وعد ولم يرجع إلى هذه المسألة في أى موطن آخر من كتبه . فإذا كان يريد بالشيء المفارق ؟ أيريد به أحد العقول المفارقة التي تدبر حركة الأفلاك السماوية ، أم يريد به الصور العقلية ، أم العقل الفعال ؟ ونعتقد أننا لسنا في حاجة إلى أن ننص على فساد الاحتمال الأخير ، لأن فكرة العقل الفعال ، كذات خارجة عن النفس ، فكرة مستحدثة لدى بعض أتباع الفلسفة الأرسطوطاليسية . فبقى إما أن يكون الشيء المفارق أحد العقول السماوية ، وإما أن يكون الصور العقلية ، أى المعاني المجردة .

ثم جاء ابن رشد فوجد تلك المشكلة معقدة . وقد رأينا من قبل<sup>(١)</sup> أن ما ذكره في تلخيص كتاب النفس لأرسطو يكاد يرشد إلى الطريق التي اختارها

(١) أنظر : 1 — Ms. 1009 Fol 144 R.C

للبت في هذه المسألة . فقد حددتها على نحو واضح لا لبس فيه عندما قال :  
« فأما أنه يعقل ذاته ، وهو متصل بنا فسنفحص عنه بعد . » وهو إن لم يذكر  
هناك الحل بالتفصيل فإنه يكاد يصرح به ، لأنه يقول في وصف العقل المادى :  
« وهذا العقل هو بعينه العقل الفعال الذى سيظهر وجوده بعد » (١) .

إذن يتبين لنا كيف استطاع أبو الوليد فهم المشكلة التى لم يفعل أرسطو  
سوى أن عرضها . فإنه يرى أن الأمر ليس بصدد إمكان الاتصال بالعقول  
المفارقة السماوية ، ولكنه يتعلق بإدراك النفس لذاتها : أذلك مستطاع أم  
مستحيل ؟ وليس ذلك بغريب ، فإن هذا الفيلسوف لا يقفل قط عن تأكيد  
وحدة النفس . ويمكننا القول بأنه يسوى بين هذه المشاكل ، أو يجيب عليها  
نفس الإجابة ، وهى :

١ - هل تستطيع النفس إدراك جوهرها ؟

٢ - هل يستطيع العقل الفعال أن يدرك ذاته فى أثناء اتصاله بالجسم ؟

٣ - هل يستطيع العقل المادى أن يتحدد أو يتصل بالعقل الفعال ؟

ولإنما كانت تلك الأسئلة تعتبر عن حقيقة واحدة لأن النفس تسمى عقلا  
فعالا إذا نظرنا إليها على اعتبار أنها الجوهر الروحى الذى يصنع المعقولات  
أو المعانى ، وتسمى عقلا ماديا حين تقبل المعانى التى تجردها من الأمثلة الحسية  
الخارجية عنها .

وإذا أمكن تحديد المشكلة على هذا النحو فإن حلها لدى ابن رشد  
سوف يكون واضحاً لا مجال للشك فيه ، بمعنى أن النفس لما كانت جوهرأ  
مستقلا فإنه من الممكن أن تدرك ذاتها .

(1) Ibid, Vol 144, v, c - 2

## ٢ - تشويه مونك لنظرية الاتصال في مذهب ابن رشد

وإننا لنجد حل هذه المسألة مفصلاً في كتاب « الفحص هل يمكن للعقل الذى هو فينا ، وهو المسمى بالعقل الهيولانى ، أن يعقل الصور المفارقة بآخره . أولاً يمكن ذلك ، وهو المطلوب الذى كان أرسطو وعدنا بالفحص عنه في كتاب النفس . » ولم نقف على النص العربى لهذا الكتاب ، وإنما عثرنا على ترجمة له باللغة الألمانية نقلت حرفياً عن ترجمته إلى اللغة العبرية . وقد قام بترجمته إلى اللغة الألمانية « لدفيج هانس - Ludwig Hannes » . وبالاعتماد على هاتين الترجمتين استطعنا أن نكون لنفسنا فكرة واضحة عن مضمون هذا الكتاب . وقد وجدنا فيما عدا ذلك تلخيصاً له في كتاب « مونك »<sup>(١)</sup> . ولكن هذا التلخيص لم يكن دقيقاً . فإن « مونك » يتصرف فيه على نحو يخرج عن روح الكتاب . أضف إلى ذلك أنه استطاع تشوية فكرة ابن رشد فيه ، ولم يفتن إلى أنه حور آراء هذا الفيلسوف ، فجعلها تتناقض مع آرائه الأخرى التى جاءت فى كتبه المتداولة المعروفة . ونعتقد من جانبنا أن ما أضافه « مونك » إلى كتاب الفحص عن اتصال العقل الهيولانى بالعقل الفعال مأخوذ عن الشروح التى قام بها اثنان من يهود القرن الخامس عشر ، وهما موسى دى ناربون<sup>(٢)</sup> و « يوسف بن شم تب »<sup>(٣)</sup> .

وقد وصف « شتينشneider Steinscheider » هذا الكتاب بأنه أهم ما كتبه الفيلسوف القرطبي عن العقل المادى .

(1) Mélanges de philosophie juive et arabe.

(2) Moïse de Narbonne, 1433

(3) Joseph ben Schem Tob.

وقد اعتذر « لدفيج هانس » عن غموض ترجمته بما وجدته من بعض الفقرات عسيرة الفهم في الترجمة اليهودية . ولكننا لما وضعنا الكلمات الدريية مكان الكلمات الألمانية أو العبرية استطعنا أن نحصل على نص واضح لا غموض فيه . حقا إننا لم نستطع أن نضع الألفاظ التي استخدمها ابن رشد نفسه ، ومع ذلك فإننا نعتقد أننا كنا حريصين كل الحرص على البقاء أقرب ما يكون إلى عبارته . ومن ثم فإنه لا يسعنا إلا الثناء على أمانة الترجمتين الألمانية والعبرية اللتين أتاحتا لنا أن نقف على هذا النص الهام .

وسنأخذ الآن في تحليل هذا الكتاب لنبين أن ابن رشد سلك مسلكاً فريداً في تفسير المعرفة الإنسانية ، وأنه استطاع أن يرقى إلى مذهب عقلي برىء من كل نزعة صوفية .

بدأ هذا الفيلسوف بتحديد المشكلة التي يريد حلها فقال : إن الفرض من رسالته هو أن يعلم هل من الممكن أن يدرك العقل الهولاني الصور المفارقة<sup>(١)</sup> ؟ ولم يتردد « مونك » في الجزم بأن ابن رشد يريد بهذه الصور الأرواح السماوية أو الملائكة . غير أنه لم يعتمد في جزمه هذا إلا على شروح ليس ابن رشد بمستول عنها . فلما رأى بعد ذلك أن أبا الوليد لا يتحدث إلا عن الاتصال بالعقل الفعال حتى هو بأن يضيف من عنده هذه العبارة ، وهي أن الصور المفارقة هي عقول الأفلاك ، وبخاصة العقل الذي يشرف على حركة فلك القمر ، وهو العقل الفعال .<sup>(٢)</sup> وحينئذ فليس من العسير على « مونك » ، في هذه الحال ، أن يرغم فيلسوف قرطبة على القول بأن هذا العقل ذات توجد خارج النفوس الإنسانية .

(1) Ludwig. p p 19 - 20

(2) Munk, Mélanges de philosophie juive et arabe, P 449.

ومع ذلك فإن وجهة نظره لا تقوم على أساس جدوى ؛ بل ترجع إلى فسكرة خاطئة تعتمد على التقليد أكثر مما تعتمد على البحث والدرس ، و« الفسكرة القائلة بأن ابن رشد لم يكن بدعا من فلاسفة الإسلام ؛ وبأنه كان من أنصار نظرية الفيض . ولما رفض أن يعترف له بأى شخصية فاسفية مستقلة نسب إليه مذهب أى فيلسوف مسلم آخر من أتباع الأفلاطونية الحديثة ، فقال (١) : « إن الصفة العامة لمذهب ابن رشد هي بعينها التي نلاحظها لدى الفلاسفة العرب الآخرين ، فإن مذهبه هو مذهب أرسطو ، وقد عدل بتأثير بعض النظريات الخاصة في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة . فإن فلاسفة العرب لما أدخلوا على الفلسفة المشائية الفرض القائل بوجود عقول الأفلاك بين المحرك الأول [ الله ] وبين العالم ، وسلموا بوجود فيض كوني تنتقل الحركة بسببه شيئا فشيئا إلى جميع أجزاء العالم ، اعتقدوا ، دون ريب ، أنهم قضوا على فسكرة الثنائية في مذهب أرسطو . وإن رشد يسلم بهذه الفروض في أوسع معانيها . »

وقد أراد « مونك » أن يخفف فسكرته الخاطئة السابقة فجاؤا بفسكرة أخرى لا تقل عنها بديا عن الحقيقة لأنها تؤكد الفسكرة الأولى فقال : إنه من الخطأ أن اعتقد بعضهم أن هذه النظرية تنسب إلى ابن رشد خاصة ؛ فإن فلاسفة العرب الأبعد عهدا قد سلموا بها بوجه عام . (٢) وحينئذ فليس بعجيب أن يكون لنفسه فسكرة مشوهة عن حقيقة الفلسفة الرشدية . فإن ما يقوله عن أبي الوائلي يمكن أن ينسب إلى ابن طفيل أو إلى ابن سينا ، بيد أنه لا ينطبق بحال على الفيلسوف القرطبي . وفيما عدا هاتين الفسكرتين الخاطئتين ، سنرى أن « مونك » قد حلل

(1) Ibid. P. 443

(2) Ibid p., 443

كتاب الفحص عن الاتصال تحليلياً ينافي الحقيقة . وسيتاح لنا أن ننبه إلى ذلك في مواضعه .

ويمكن القول ، دون الالتجاء إلى التأويل والتحايل ، بأن الصور المتفاوتة التي يتحدث عنها هذا الفيلسوف في بدء كتابه ليست هي الملائكة كما خيل إلى « موزك » . ولكنها هي العقل المادى والعقل بالثقل والعقل الفعال . ويستطيع المرء أن يتحقق من صدق هذه الدعوى إذا لم يضق صدره بتتبع ابن رشد .

### ٣ — طبيعة العقل المادي

يبدأ ابن رشد كتابه بتعريف العقل المادى فيقول : لقد قلنا في كتاب النفس إن هذا العقل قوة كاملة لا تستكمل بصورة ما ؛ لأن هذه الصورة إما أن تعوقها عن قبول الصور الأخرى ، وإما أن تغير هذه الصور وقت قبولها . ولذلك فإنه يجب أن نبحث في طبيعة هذه القوة التي ليست مخالطة ، وإنما هي قوة كاملة بريئة عن كل صورة .<sup>(١)</sup>

لكن ما المراد بأنها غير مخالطة ؟ إنه يرى أنها لا تتحد بصور الأشياء أى معانيها ؛ لأن القوة التي تتحد مع إحدى الصور تصبح — كما يقول — قابلة للكون والفساد ، أى تغدو كباقي الأشياء في العالم الحسى التي تنشأ بسبب البدن كالإحساس والخيال . وقد قال أبو الوليد : ونحن نتكلم هنا عن القوى التي تنشأ في المواد السكى تتعلق بها الصور .<sup>(٢)</sup> وإنما كانت

(1) Ludwig, Ibid, P, 19-22

ولما لني غنى من التنبه إلى أننا نهمس هنا عبارات ابن رشد حسب معناها فقط .

(2) Ibid, 22-23.

كل من القوة الحسية والقوة الخيالية قابلة للتلفاد لأنها تحتلط بصور الأشياء المادية المتحركة ، أما العقل فلما كان قوة غير جسمية فإنه لا تحتلط بالصور العقلية التي نفنى إذا مات الإنسان الذى أدركها . وقد ألح ابن رشد فى بيان هذه الفكرة . لسكى يبرهن على بقاء العقل الهولانى .<sup>(١)</sup> وحينئذ فليس من التناقض فى شىء أن يدرك هذا العقل نفسه على أنه خالد ؛ لأنه لا تحتلط بالقوى التي هى أدنى منه مرتبة . ومن الضرورى أن يكون الأمر كذلك حتى يمكن تأكيد وحدة النفس وبقائها بعد الموت . وإذا كان هذا العقل خالدا فليس من المستحيل أن يدرك ما هو خالد . ومعنى ذلك بعبارة أخرى أنه ليس من المستحيل أن يدرك ذاته .

وقد رأينا أنه يذكر فى موضع آخر أن العقل الهولانى لا تحتلط لا بالصور العقلية ولا بالجسم .<sup>(٢)</sup> وإذا كان هذا العقل مجرداً بطبيعته عن الصور العقلية فإنه من الممكن أن يتصور نفسه خلواً منها .<sup>(٣)</sup> أما إذا كان تحتلطاً بها فإنه يستحيل عليه أن يدرك ذاته . ويعبر أبو الواليد عن ذلك بأسلوبه الخاص فيقول : إنه لا يستطيع فى هذه الحال أن يتصل بالعقل الفعال اتصال معرفة . وحينئذ فالتجرد وعدم الاختلاط بالمعاني التي تحمل فى العقل الهولانى شرط أساسى فى إمكان إدراك النفس لذاتها كجوهر عقلى .

---

(١) ولا نستطيع أن نقر وجهة نظر « عونك » الذى يزعم أن أبى الواليد كان يرى أن العقل الهولانى فان بطبيعته ، وأن اتصاله بالعقل الفعال سبب فى خلوده . ونسكاد نشير أن «ونك» يتحدث هنا عن أبى نصر الفارابى ، لاهن الفيلسوف القرطبي .

(٢) نظر صفحة ٢٤١

(٣) وقد قال فى هذا المعنى « وما يدل على أنه ليس استعداداً محضاً أنا نجد العقل الهولانى يدرك هذا الاستعداد خلواً من الصور . » أنظر : Mss Hébreu. 1009, fol. 144, v, c-1.

## ٤ — تدرج الوظائف النفسية

لما انتهى ابن رشد من وصف العقل الهولاني أخذ يبين أن مختلف مظاهر النفس وقواها ترتبط فيما بينها أشد ارتباطاً ، وأن الصلة بينها على ضربين : أحدهما من جهة الوجود ، والآخر من جهة المعرفة أو الإدراك ، مثال ذلك أن النفس الغذائية تعد مادة للنفس الحسية ، وهذه تعد مادة للنفس الخيالية .<sup>(١)</sup> ومعنى ذلك أن هناك نوعاً من الاتصال والتدرج بين الوظائف النفسية الدنيا ، وأن هذا التدرج على نحو غير ملموس ، بحيث لا يمكن وضع خطوط فاصلة واضحة بينها . وهذا هو السبب فيما يطرأ على إحدى هذه الوظائف من تغير وتحول بسبب تأثير غذائية أخرى . وقد علل ذلك بقوله : لما كانت هذه القوى توجد في موضوع واحد فلا بد من أن تؤثر القوة الحسية في القوة الغذائية . ويتبع ذلك بالضرورة أن القوة المعدة لقبول المحسوسات تتأثر بالقوة الغذائية . ومع ذلك فإنها لا تتحد بها على النحو الذي تتحد به الصور الأخرى بالأشياء المادية .<sup>(٢)</sup> ويريد أبو الوليد بهذا القول أن ينص على تأثير هاتين القوتين إحداهما في الأخرى ، مع احتفاظ كل منهما بنوع من الاستقلال النسبي . فهناك تدرج تصاعدي بين الوظائف النفسية الأولى ، بحيث تنتقل النفس من إحداهما إلى الأخرى انتقالاً غير محسوس . ولكن هذا الانتقال لا يتم دون أن يلحق النفس بعض الاضطراب . ولذا نجد يقول : وهذا هو السبب في أن هذه القوى يطنى بعضها على بعض . وهذا هو السبب في أنه من المستحيل أن يتخيل المرء شيئاً ، وأن يدركه بالحس في آن واحد . ولذلك يؤدي الخيال وظيفته على أكمل وجه حينما تسكون الحواس معطلة . ولما كان التدرج في الوجود بين هذه القوى قد يؤدي إلى تأثير بعضها في أفعال

(1) Ludwig. Ibid p. 24

(2) Ibid, P P. 28—29

بعضها الآخر فمن الضروري أن يكون لكل منها عضو خاص يضمن لها استقلالاً نسبياً .<sup>(١)</sup> وتستكمل كل قوة من هذه القوى في وجودها بالقوة التي هي أسمی منها . فالقوة الغذائية تستكمل بالقوة الحسية ، والقوة الحسية تستكمل بوجودها بالقوة المتخيلة .

ويوجد فيما عدا هذا الاتصال من جهة الوجود اتصال من جهة المعرفة ، وفيه تستكمل القوة الأسمى مرتبة بالقوة الأدنى مقاماً منها . ويتم ذلك حينما ترفع الأولى الثانية إلى مستواها . ويقول ابن رشد : إن كل قوة تدرك القوة التي هي أدنى منها مرتبة . فالقوة الخيالية تدرك المحسوسات بالضرورة ؛ وذلك لأنها تستكمل بالإدراكات التي توجد فيما يطلق عليه اسم الحس المشترك . وكذلك تدرك الحواس الأشياء الحسية لأنها تستكمل بها . ويبدو أن العقل يستكمل بالصور الخيالية لأنها تعد مادة له . ولكنه حينما يدرك هذه الصور فإنه يرفعها إلى وجود أسمی . وحينئذ تنقلب صوراً عقلية ، أي معاني .<sup>(٢)</sup>

وهكذا يتبين لنا أن هناك نوعاً من التوازي بين تدرج الوظائف النفسية من جهة الوجود ومن جهة المعرفة . فهناك وجود يكمل شيئاً فشيئاً ، وهناك معرفة تسمى هي الأخرى شيئاً فشيئاً . وكل مرتبة من الوجود تقابلها مرتبة في المعرفة . وقد شرح ابن رشد هذه النظرية في كتاب الحس والمحسوس . فقال : « فتكون هاهنا للصورة ثلاث مراتب : الأولى جسمانية ، ثم تليها المرتبة التي في الحس المشترك وهي روحانية ؛ ثم الثالثة ، وهي التي في القوة المتخيلة ، وهي أكثر روحانية . ولكونها أكثر روحانية من التي في الحس المشترك لا تحتاج القوة المتخيلة في إحضارها إلى حضور المحسوسات »<sup>(٣)</sup> .

ويمكن إجمال رأيه في هذا التدرج بقولنا : إن كل وظيفة من وظائف النفس ترقى في مرتبة الوجود والمعرفة بإحدى الوظائف الأخرى . مثال ذلك أن الحس لا يكمل من جهة الوجود إلا بالخيال ، أى على النحو الذى تكمل به أية مادة إذا اتحدت بها صورة خاصة . كما أن الخيال لا يكمل من جهة المعرفة إلا إذا كانت الإحساسات نقطة بدء له ، لأنه يرفعها من مرتبة الحس إلى درجة أكثر كمالا ، أى إلى مرتبة الصور الخيالية . ويقول ابن رشد في ذلك<sup>(١)</sup> : إن القوة الأسمى مرتبة تكمل بالقوة الأدنى مرتبة ، لأنها ترفعها من النقص إلى الكمال .

وقد وضح هذا التدرج في الوجود والمعرفة بمثال يقربه إلى الأذهان فقال :  
في كتاب تهافت التهافت إن اللون الذى يحدث في الهواء ليس باللون الذى يحدث في العين ، واللون الذى يحدث في الحس المشترك ليس باللون الذى يحدث في العين ؛ واللون الذى يوجد في الخيال يختلف عن اللون الذى يوجد في الحس المشترك ، واللون الذى يحدث في الذاكرة شيء آخر غير الذى يحدث في الخيال<sup>(٢)</sup> .

هذا هو مجمل الوصف الذى خصصه أبو الوائيد للوظائف النفسية الدنيا ، وهى تلك التى تستخدم النفس فيها بعض الأعضاء الجسمية . أما الوظائف السامية التى لا تستخدم أى عضو جسمى فهى تلك التى يطلق عليها اسم الصور العقلية أو العقول . وسنرى الآن كيف ينتقل هذا الفيلسوف من النوع الأول إلى النوع الثانى . وبيان ذلك أنه رأى من الواجب أن يبين لنا الصلة بين الصور الخيالية والصور العقلية ، قبل البدء فى وصف العقول الإنسانية المختلفة . وإنما رأى ضرورة المقارنة بين هذه الصور حتى يستطيع تقرير وحدة النفس . وهى تلك

(1) Ludwig PP. 31—32

(٢) تهافت التهافت طبعة بيروت صفحة ٢٦٢ .

الوحدة التي تنسك لها هؤلاء الذين يفرقون بين قوى النفس تفرقة واضحة فاصلة<sup>(١)</sup> ومن ثم فإذا كان هذا الفيلسوف يرى أن هناك تدرجا من حيث الوجود والمعرفة بين كل الصور الخيالية والعقلية فليس بصحيح في مذهبه أن الصور الأخيرة تفيض من مصدر إلهي ، وإنما تنزع من الصور الأولى انتزاعا حقيقيا . وذلك لأن الصور الخيالية تعتبر في نظر ابن رشد حاملا ، أى مادة تقوم الصور للعقلية على أساسها ، كما أن هذه الصور الأخيرة تستكمل بالأولى ، لأنها ترفعها في مرتبة الوجود الحقيقي من عالم الخيال إلى عالم المقولات<sup>(٢)</sup> .

وبهذه تتضح الصلة بين العقل الهولاني والصور العقلية ، لأنه يمد مكانا تجتمع فيه هذه الصور ، دون أن تتحد به اتحاداً وجودياً . ولما كانت الصلة قوية بين كل الصور العقلية والخيالية فإنه يمكن القول بأن كلا النوعين يعد مادة للعقل الهولاني . فإذا تأمل هذا العقل الصور الخيالية على نحو ما يتأمل الإحساس الأمور الحسية ترتب على ذلك أنه متى ظهرت تلك الصور أو اختفت ظهرت أو اختفت معها الصور العقلية<sup>(٣)</sup> . ولما كانت القوة العقلية لا تتحد لديه بالصور الخيالية فليس من الممكن أن تطفى الصور الخيالية على الصور العقلية ، ومعنى ذلك أنه لا يمكن أن توجد صورتان في موضوع واحد ، لأن العقل لا يتحد بأى نوع من الصور<sup>(٤)</sup> . ولذا فلا وجود لمثل هذا الاضطراب الذي نجده حين يطفى الحس على الخيال في الوظائف النفسية الدنيا . وفي بعض الأحيان يضطر العقل إلى طرح الخيال جانبا ، وذلك إذا أراد إدراك بعض الأفكار النظرية البحتة ، كإدراك أنه لا وجود لازمان أو الفضاء خارج العالم . فإن العقل يجتهد ، كما

(١) يمد ابن رشد هنا أمينا على مذهب أرسطو ، لأنه يرى أن للنفس بظواهر شتى ، وأن لكل مظهر منها قوة تعاقبه .

(2) Ludwig, p. 32 (3) Ibid 33 (4) Ibid, P. 35

يذكر ابن رشد ، في إبعاد الخيال وتنحية صورته عن النفس<sup>(١)</sup> . ولا يجد العقل في ذلك مشقة كبرى ؛ لأن الصورة الخيالية ، وإن كانت شرطاً جوهرياً في تجريد المعاني ، فإنها تنتمي إلى قوة جسمية ؛ في حين أن الصور العقلية ترجع إلى قوة غير جسمية .<sup>(٢)</sup> وكلما نما العقل ، واشتد ساعده ضاق مجال الخيال ، واستطاع الإنسان إدراك الصور المفارقة . ولكن ما حقيقة هذه الصور ؟

### ٥ - ترجح الوظائف العقلية

مهما يكن من غرابة الرأي الذي سنذهب إليه في تفسير ابن رشد في هذه القطة فإننا لا نجد حرجاً في عرضه ؛ وذلك لأننا نستطيع إثباته بنصوص لا مجال للطعن فيها . إن تلك الصور المنارقة التي يتحدث عنها هذا الفيلسوف ليست بأرواح الملائكة ، كما كان يظن « توماس الأكويني » أو تلاميد ابن رشد الأدعياء ، أو « مونك » ؛ ولكنها المظاهر العقلية للنفس الإنسانية . والدليل على ذلك أن الفيلسوف الفطري يقارن بين ما يطلق عليه اسم الصور المدركة في النفس وبين ما يسميه الصور العقلية المنارقة . أما الأولى فيريد بها الحس والخيال . وأما الثانية فهي كل من العقل الهيولاني والعقل الفعال . وقد رأينا فيما مضى - وسنرى فيما يلي أيضاً - أن هذين العقلين شيء واحد من جهة الوجود ، أي أنهما يعبران عن مظهرين للنفس إذا اتصلت بالبدن . وها هو النص الذي يقارن فيه ابن رشد بين هذين النوعين من القوى : بعد أن تتج من طبيعة الصور المدركة أنها يكمل بعضها بعضاً بنوع من الكمال ، أعني بكمال في الإدراك وكمال في الوجود فإننا نريد أن نبحث في علاقة صورة العقل الأخير بصورة العقل الفعال .

(1) Ibid, d 37

(2) Ibid, P. 36

فإنه ليس ثمة أفضل من هذه الطريقة لمعرفة هذا الأمر الذي قصدنا بيانه .  
وسنبين هذا بعد ذكرنا لما ترتب على هذا القول في قوانا النفسية . وقد تبين أن  
هذا صحيح في الصور المفارقة أيضاً . فإنه نتج عن طبيعة هذه أمها تتصل اتصال  
وجود واتصال إدراك بعضها ببعض . فإن نفس الإدراك هو نفس الوجود ونفس  
الوجود هو نفس الإدراك .<sup>(١)</sup> ومعنى ذلك أنه لا فارق هنا بين الاتصال من  
جبهتي الوجود والإدراك .

وهناك فارق هام بين الوظائف النفسية الأولى كالإحساس والخيال وبين  
الوظائف العقالية السامية . فإننا رأينا أن الخيال يستكمل بالحس من جهة المعرفة ،  
أى أنه لا وجود للخيال إلا إذا وجدت الصور الحسية قبله . و ليس الأمر كذلك  
فيما يتعاقب بالقوى العقالية ؛ إذ لا تستكمل القوة الأسبى مرتبة بالتي هي أدنى منها ؛  
بمعنى أن العقل بالقوة يسمو من جهة المعرفة فقط فيصبح عقلاً فعلاً ، دون أن  
يصحب ذلك انتقال من وجود إلى وجود آخر . ويقول ابن رشد : فإذا تبين  
في أى شئ تتفق الوظائف النفسية وللوظائف العقالية ، وفي أى شئ تختلف  
فنزيرد البحث أولاً هل الصورة العقالية الحاصلة أخيراً يمكنها أن تتصل بالعقل  
الفعال أم لا ؟ وإن اتصلت نبحث بأى نوع من نوعي الاتصال تتصل به ؟  
أعنى هل يحدث الاتصال بهذا النوع الذي تستكمل فيه الصورة الناقصة بالصورة  
الأكمل وجوداً ، أو بالنوع الذي تنتقل به الصورة الناقصة إلى صورة أكل  
وجوداً .<sup>(٢)</sup>

وقبل أن يبت برأى في هذه المشكلة رأى ضرورة النص على وجود نوع  
من التدرج بين الصور ، بمعنى أن صور الأشياء المادية ما تزال ترتفع من رتبة

(1) Ludwig P. 40

(2) Ibid, P. 42

إلى أخرى حتى تنتهى إلى آخر الرتب ، وهى الصورة العقلية التى تحل فى العقل الهيولانى . ومعنى ذلك أن هناك صوراً مادية تصير صوراً حسية تخيلية فعاقبة وهو يقول أيضاً إن العقل المادى هو آخر هذه الصور<sup>(١)</sup> .

ثم تدرج من ذلك إلى سؤال آخر وهو : أيمكننا القول بأن العقل الهيولانى صورة كباقي الصور التى تتحد بالأشياء المادية أم هو صورة مفارقة ، أى ذات عاقلة مستقلة ؟ ومن الواضح أنه يثير هنا مشكلة قديمة ، وهى الخاصة بتعريف النفس . أهى صورة لجسم طبيعى توجد فيه الحياة بالقوة ، كما كان يقول أرسطو ، أم هى ذات كاملة من عالم الأسر كما كان يرى ابن سينا ؟ وتلك هى المشكلة حقاً : أيستطيع العقل الإنسانى فى هذه الحياة أن يبلغ أقرب الدرجات من العقول المفارقة أى الملائكة أم لا يستطيع ذلك ؟ فإنه إن أمكن ذلك فتلك سعادته حقاً . وذلك لأن العقل يصير بهذا الاتصال موجوداً أبدياً . فلا يظل كإحدى الصور المادية التى تفتى بقاء الأشياء التى تتصل بها . وإنما كانت هذه المشكلة عظيمة الخطر ، لأنه ليس للمرء سوى أن يختار أحد أمرين ، فإما أن يقول مع « الإسكندر الأفروديسى » بأن العقل الهيولانى فان ، وفى ذلك القضاء على وحدة النفس ، وإما أن يقول مع ابن سينا بأن النفس جوهر روى وليست بصورة لا بدن ، وفى ذلك ضمان لوحدة النفس وخروج على تعاليم أرسطو .

وقد رأى أبو الوايد أنه يستطيع الخروج من هذا المأزق والتوفيق بين آراء أرسطو وابن سينا إذا اعتمد على نظرية إمكان تعاقب عدة صور على مادة واحدة . فالنفس ذات كاملة ، ولها مظاهر متتابعة ومتدرجة ، وكل مظهر أو وظيفة منها يعد صورة للجسم فى إحدى مراتبه . فإذا قلنا بأن النفس الغذائية

صورة ، وأن النفس الحسية صورة أخرى أسمى منها ، وأن النفس العاقلة أسمى هذه المراتب استطعنا ، في الوقت نفسه ، أن نقرر وحدة النفس وأن نعرفها بأنها صورة للبدن .

وحينئذ نرى أن نظرية الاتصال عنده نتيجة طبيعية لمحاوثة التوفيق بين كل من الفلسفتين المشائية والسينية . فبسبب هذا الاتصال أو الاتحاد — أو سمه ما شئت من الأسماء — هو أن العقل الهولاني يستطيع أن يدرك ذاته على أنه جوهر روحي . وهذه هي حقيقة نظرية الاتصال في مذهب ابن رشد . فإن النفس تنتهي إلى أن تدرك أنها ليست صورة للجسم ؛ فحسب ؛ بل تعلم أنها جوهر عقلي يحل مكاناً وسطاً بين عالم الحس والعالم الإلهي .

وقد قامت حول هذه النظرية الروحية ضجة كبرى ، وظن كثير من مورخى الفلسفة الإسلامية أن بها طابعاً صوفياً . ولكن علام الإصرار على ضم فيلسوف قرطبة إلى زمرة المتصوفين ؟ فإنه لم يفعل سوى أن تساءل فقال : أيستطيع العقل الهولاني أن يتصل بالعقل الفعال من جهة الإدراك ، كما أنه متصل به من جهة الوجود أم لا يستطيع ؟ ولكنه لم يتساءل قط : هل من الممكن أن يتصل هذا العقل بالإله وبالملائكة ؟ وسوف تدل النصوص التي سنوردها فيما بعد على صحة ما نذهب إليه (١) .

## ٦ — حقيقة نظرية الاتصال لدى ابن رشد

ينبغي لنا ألا نعجب إذن من جواب ابن رشد على المشكلة السابقة . فإنه يرى أنه من الممكن أن يدرك العقل الهولاني العقل الفعال ، وأن في ذلك سعادة

(١) هذا إلى أن موثقه من نظرية الصوفية معروف . انظر كتاب مناهج الأدلة ومقدمته له في نقد مدارس علم الكلام .

النفس . لكن ليس هناك صعود من ذات إلى ذات أخرى ، أو من كائن فان إلى كائن خالد . وإنما يتم ذلك الاتصال داخل النفس الإنسانية . ذلك أن كلا العقليين يعبر عن حقيقة واحدة ذات مظهرين . وبهذا يختلف فيلسوف قرطبة عن غيره من فلاسفة الإسلام ؛ لأنه ينص أيضا في كتاب الفحص عن اتصال العقل الهولاني بالعقل الفعول على أن هذا العقل الأخير يتصل بنا من أول الأمر .<sup>(١)</sup> فإذا استطاع الإنسان الرقي في مدارج المعرفة أدرك حقيقته ، أو اتصل بذلك العقل — كما يقول ابن رشد — اتصال إدراك بعد أن كان متصلا به اتصال وجود فقط .

وهناك مراتب تصعد فيها النفس نحو هذه الغاية العقلية القصوى . فقد رأينا أن في الإنسان ثلاثة عقول هي :

١ — العقل المادى : وهو منتهى الصور العقلية ومكانها ، وهو ذات روحية خالدة .

٢ — العقل المكتسب : وهو صورة العقل المادى ، ويتحد بهذا الأخير من جهة الإدراك فقط . وتلك هي الحال الوحيدة التي ينص فيها الفيلسوف القرطبي على أن الوجود ليس مساوياً للإدراك . ومعنى الاتحاد هنا أن العقل المادى هو الذى يدرك العقل المكتسب ، أى أن القوة الأدنى مرتبة هي التي تدرك القوة الأعلى منها . وذلك على خلاف ما هو معروف في القوى النفسانية ، ويعنى بها الخيال والحس . وليس العقل المكتسب شيئاً يفيض على النفس من الخارج . واسكنه العقل المادى ، وقد احتوى على المعاني المجردة من الأشياء المادية . ويتضح لنا من هذا الوصف أن أبا الوليد يختلف عن غيره من فلاسفة

---

(١) Ibid, P. 47 . ونقول إن العقل الفعول يتصل بنا من أول الأمر اتصال وجود ، أعني اتصال مودة بجمالها . فهنا نص صريح يال على أن هذا العقل ليس خارج النفس ؛ بل يدل أنه هو النفس ذاتها .

الإسلام من جهة أنه يرى أن هذا العقل لا ينشأ بسبب الاتصال بين كل من العقل الميولاني والعقل الفعال . وإذا أدرك العقل المادى العقل المكتسب فعنى ذلك أنه أدرك ذاته على أنها تحتوى على المعارف والمعاني التى سبق أن حصلها أو احتوى عليها . وتجب التفرقة بين هذين العقليين ، فإن الأول منهما خالد والآخر يقنى بفناء صاحبه . وهذا هو السبب الذى دعا هذا الفيلسوف إلى القول بأنهما لا يتحدان اتحاد وجود<sup>(١)</sup> . ولا يستطيع العقل المكتسب إدراك العقل الفعال إلا إذا غابت عنه معارفه ، أى إلا إذا عاد فأصبح عقلا هيولانيا .

٣ - العقل الفعال : لا يوجد هذا العقل خارج النفس ، وقد نص فى تلخيص كتاب النفس على أنه هو عين العقل المادى .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا نستطيع أن نفهم لماذا وجد « مونك » كتاب « الفحص عن الاتصال » معقدا . إن السبب فى ذلك يرجع إلى أن هذا المستشرق كان قد كوّن لنفسه فكرة سابقة خاطئة عن نظرية المعرفة لدى ابن رشد . ولذا فكل نص صريح يبدو له غامضا لأنه لا يتفق مع فكرته هذه . وما كان أحرأه بأن يتحرر من الأسطورة التى حاكها القرون الوسطى حول اسم هذا الفيلسوف ليرى معنا أن العقول الثلاثة سالفة الذكر تعبر عن حقيقة واحدة هى النفس . فإن العقل المادى إذا أدرك أنه يحتوى على المعانى بلغ مرتبة من الكمال تتيح له أن ينتقل حسبا يهوى من معنى آخر . ولكن ليست تلك هى نهاية ما يستطيع أن يبلغه من الكمال . وذلك لأنه قد يصل بسبب الدربة إلى

(١) أنظر تلخيص كتاب النفس ، مخطوط عبرى [f01 147, R, c-1] « ولذلك صرنا لا ندرك بعد الموت جميع ما كنا علمنا فهو [العقل الفعال أو النفس] إذا اتصل بنا عقل المقولات التى ما هنا ، وإذا فارقتنا عقل ذاته » .

أن يتصور ذاته خلوا من هذه المعاني ، وفي تلك الحال يدرك أنه في الحقيقة جوهر روحى ، وأنه هو الذى يصنع المعانى عندما يقوم بتجربتها وانزعائها من الصور الخيالية . ويمكن تشبيه العلاقة بين العقل الفعال والعقل المادى بتلك التى توجد بين المادة والصورة ، حتى لا يختلط علينا الأمر فنظن أنه شيء خارج عنه (١) .

ولقد رأينا أن الفلاسفة المسلمين الآخرين تأثروا في تحديدهم لطبيعة العقل الفعال بأرائهم في الفيض . وقد كان من الطبيعى أن يفسروا المعرفة باتصال النفس بالعقل أو المثلث الذى تفيض منه المعانى والصور . ولكن كيف لا ين رشد الذى ينكر نظرية الفيض أن يعضد نظرية الاتصال لدى ابن سينا أو ابن طفيل ؟ إنه يرى على عكس هذين وغيرهما أن المعانى العقلية التى تنزعها النفس هى التى تتيح للمرء أن يدرك ذاته كعقل فعال .

وإذن يمكننا القول بأن الفيلسوف القرطبي قد قلب نظرية المعرفة رأسا على عقب ، وأنه أتجه بها اتجاهها أرسطو طاليسيا ، إذا صح مثل هذا التعبير . ويجب ألا نعجب لمسلكه هذا . فإنه لو قال إن العقل الفعال يوجد خارج النفس لكان متناقضا مع نفسه . ولنا أن تتساءل كيف نسب كل من « مونك » و « رينان » إليه نظرية تتعارض مع مذهبه الفلسفى كل التعارض ؟ وأين وجد هذان المستشرقان نصوصا اتخذها أساسا لاقول بأنه كان من أنصار مذهب المعرفة الإشرافية ؟

لقد حرص « مونك » دائما على أن يضيف بعض الأوصاف عند كلامه عن

---

(١) كتاب الفهم : P. 48 فقد قال ما ممانه : ويظهر أن اتصاله وفعله بالحقيقة يماثل اتصال الصورة بالهوى أكثر من اتصال الفاعل بالمتفعل .

العقل الفعال . فهو يقول إنه كلي ، وإن ابن رشد ينص على أنه مشترك بين جميع أفراد البشر . ولما كانت نقطة البدء في دراسته تمسدة فقد اضطر إل التصرف في تفسير كتاب الفحص عن الاتصال على نحو أخرجه معه عن أصله . ولئن ألحنا في إظهار عدوان هذا المستشرق في تشويبه لأراء الفيلسوف القرطبي في هذا المسألة فذلك لأننا نرى أنها مفتاح السر الذي يشرح لنا نظرية المعرفة لديه ، ويوضحها على أكمل وجه .

ولكن ليس لنا أن نستطرد في مناقشات لا جدوى لها بعد تلك النصوص الصريحة . حقا كان من اليسير على « مونك » و « رينان » أن يقولوا بأن فلسفة ابن رشد نسخة مكررة من أى فلسفة إسلامية أخرى . ولو أنهما أجهدا النفس قليلا ، ودرسا مذهبه ، لوجدا أنه يختلف اختلافا كبيرا عن سابقه .

#### ٧ — معرفة المرء لغيره أصاح معرفة لنفسه :

إذا أراد المرء أن يلخص نظرية الاتصال في فلسفة ابن رشد فإنه ينبغي له أن يتذكر دائما الأمور الآتية :

١ — إن العقل المادى والعقل الفعال مظهران لذات وحدة هي النفس ، وما خالدان لا يتطرق إليهما الفساد .

٢ — إن هناك نوعين من الاتصال : اتصال وجود واتصال معرفة أو إدراك . ولسنا في حاجة إلى القول بأننا لم نقف على أثر هذه التفرقة في أى مذهب فلسفى سابق .

٣ — إن اتصال الإدراك ليس واحدا بالنسبة إلى كل من القوى النفسية

الدنيا والوظائف العقلية .<sup>(١)</sup> فإن القوة النفسية لا تدرك إلا ما هو أدنى منها مرتبة : في حين أن الوظيفة العقلية إنما تدرك ما هو أسمى منها منزلة .<sup>(٢)</sup> ولكن ليس لنا أن نفرق في الحقيقة بين الوظائف العقلية ؛ فإن العقل الهولاني ليس أقل كلاً أو شرفاً من العقل الفعال حين يدركه .

وحيث أن السير أن نفهم هذه الجملة الغامضة التي تفسر لنا طبيعة الاتصال . فقد قال ابن رشد : « وتبعاً لذلك يكون العقل الفعال صورة تتصل بالعقل الهولاني مادام العقل الهولاني باقياً من جهة الوجود لا من جهة الإدراك . ولهذا لا ندرك صورة العقل الفعال مادام العقل المسمى بالفعل أو بالملكة موجوداً فينا وجوداً حقيقياً . »

ومعنى ذلك أن العقل الهولاني إذا كان مجرد استعداد لقبول المعاني فإنه يشبه لوحة ملاء ، ولا يكاد يكون شيئاً مذكوراً . فإذا أدرك بعض المعاني فإنه ينقلب عقلاً آخر ، أى يصبح عقلاً بالفعل أو بالملكة . ثم إذ زادت دربته علم في نهاية الأمر أنه نشاط عقلي ، أى يدرك أنه عقل فعال . ولكنه لا يستطيع الوصول إلى هذه الدرجة من المعرفة إلا بشرط أن يتصور نفسه خلوياً من المعاني التي اكتسبها . وهذا هو معنى قوله « ولهذا لا ندرك صورة العقل الفعال مادام العقل المسمى بالفعل موجوداً فينا . » وقد تبدو هذه الجملة غريبة الجرس ، ولكنها واضحة المرمى . فإنها تبين لنا أنه لا يمكن للمرء أن يدرك ذاته إلا إذا أعرض جانباً عن كل الأشياء الغريبة عنها . وحقيقة كيف يدرك المرء أن فيه كائناً عقلياً إذا كان يفكر في الأشياء الأخرى ؟ وهل يمكن الخلاص من فكرة

(١) يطلق ابن رشد على الأول اسم الصور النفسانية ، وعلى الثانية اسم الصور العقلية .

(2) Ludwig' p. 53

( ٢٠ ) في النفس والعقل )

الثنائية إلا إذا كان المعلوم والعالم شيئاً واحداً ؟ ويطلق ابن رشد على إدراك العقل الهولاني لذاته اسم إدراك السكامل للسكامل<sup>(١)</sup> .

وحينئذ لا يتم هذا الاتصال إلا بشرط أن تتمحى جميع الصور أو المعاني العقلية التي جردت من الأشياء المادية . وهذا هو ما يعبر عنه الشارح الأكبر بقوله : إن العقل المكتسب يفسد ويندثر في هذا الوقت اندثاراً تاماً . وذلك لأن العقل الفعال يرفع العقل الهولاني إلى مرتبته . ويفسد هذا الصعود العقل المكتسب ، فلا يبقى إلا العقل الهولاني<sup>(٢)</sup> . ولكن ليس معنى ذلك الصعود أن العقل الهولاني ينتقل فيندمج في ذات أخرى غريبة عنه ؛ بل معناه أنه يدرك أنه نشاط عقلي ، وأنه كان عقلاً فعالاً بحسب الأصل . فهل لنا أن نذهب بمد ذلك كله مذهب « مونك » أو « ريتان » فنقول إن الاتصال هنا يحدث بين النفس الإنسانية وبين واهب الصور أو العقل المشرف على فلك القمر ؟ وكيف نقبل ذلك الرأي إذا كان ابن رشد يقول : فيدرك العقل الهولاني العقل الفعال في هذا الوقت دون أن يلحقه فساد ، ودون أن يرتفع من ذات إلى ذات ، أعني من الذات الفاسدة إلى الذات الخالدة<sup>(٣)</sup> .

والآن نفهم جيداً لماذا خالف الفلاسفة القبطي كل شراح أرسطو عندما قال بأن العقل الهولاني ليس قابلاً للفساد والبقاء . فقد ذهب إلى هذا الرأي لأنه لم يجد بداً من التسوية بينه وبين العقل الفعال والنفس . فإذا كان جوهر النفس عقلاً يوجد أولاً بالقوة ، ثم يوجد بالفعل فكيف يجوز القول بأن أحد

---

(١) Ludwig, p. 51 « وإذا كان هذا العقل في كماله الأخير ، ولم يبق فيه شيء بالقوة فيلزم أن يصير بينه وبين العقل الفعال اتصال آخر . فان اتصال الأخص بالأكل لا يشبه اتصال السكامل بالسكامل » .

(2) Ibid, p. 53 (3) Ibid, p. 54

نشقيها يفنى ، في حين يبقى الشق الآخر ؟ كذلك نفهم لماذا قال ابن رشد إن العقل المكتسب يتصل بالعقل الفعال اتصال إدراك فقط . ذلك لأنه كان يرى أن النفس إذا اتصلت بالبدن أدركت كل ما تستطيع إدراكه . فإذا جاءها الموت عادت إلى طبيعتها الأولى ، أى أصبحت عقلا يدرك ذاته بحسب ، فليس للعقل المكتسب أن يتصل بالعقل الفعال اتصال وجود . وتنفحص مهمته في تمهيد الطريق أمام العقل الهولاني للاتصال به .

وقد ختم ابن رشد كتاب الفحص عن الاتصال ببيان أن للعقل الفعال وظيفةتين . أما الأولى فهى الخاصة بتجريد المعانى أو صنعها ، إذا صح هذا التعبير . ولا يتم تجريد المعانى إلا بانزاعها من الصور الخيالية . ويمكن القول بأن هذه الوظيفة تتم بصفة غير شعورية . وأما الوظيفة الثانية فهى العمل على طرح هذه المعانى جانبا . ويمكن التعبير عن هاتين العمليتين بلغة حديثة بقولنا : إن الإنسان يجرد المعانى فى أول الأمر دون قصد . فإذا أدركها إدراكا تاما استطاع أن ينحيا جانبا ليعلم أنه كائن عاقل . فإدراك الأشياء الخارجية أساس لمعرفة الإنسان حقيقة نفسه . وهل يستطيع المرء أن يصل إلى مرتبة الحدس العقلى إلا فى آخر مرحلة من مراحل المعرفة ؟ وقد وضع أبو الوليد هذا السؤال ، ولكنه عبر عنه بأملويه الخاص فقال : « ولإن اعترض معترض فقال : لماذا لا ندرك العقل الفعال من أول الأمر ، وقد تبين

لنا أن إدراكه ليس بنافع ؟ أجبناه بأننا قد قلنا إن العقل الفعال عند اتصاله

بالعقل الهولاني يفعل فعلين مختلفين أحدهما مادام العقل الهولاني غير كامل

الوجود . . . والآحر إذا وجد بالفعل . وهذا هو العقل الذى يرفعه إليه .

ولو أمكنه أن يفعل هذا الفعل فى العقل بلا واسطة لم ينشأ العقل بالفعل

[ أو المكتسب ] ولم يكن شرطاً فيه . « (١)

وعلى هذا النحو تنتهى نظريته فى الانصال . ومن الواضح أنها بريئة من كل طابع صوفى . وقد يعترض المرء فيقول وفيه هذا العناء كله إذا لم يكن لهذا الانصال فائدة عملية أو روحية ؟ فنقول إن معرفة النفس لذاتها غاية ما تصل إليه من معرفة . وقد رأينا ابن رشد نفسه يعترف بعدم جدواه .

\* \* \*

ويمكن القول فى نهاية الأمر بأن هذه النظرية تتسق أيما اتساق مع آرائه فى النفس . فإن هذه الأخيرة جوهر روحى قائم بذاته وهى صورة للبدن فى آن واحد ، ولها وظائف عدة . ويطلق ابن رشد على هذه الوظائف اسم الصور . وهناك نوعان من هذه الوظائف : فأحدهما يستخدم آلات جسمية وثانيهما لا تستخدم النفس فيه الجسم بحال ما . وهذه الوظائف بنوعها متدرجة يتوقف بعضها على بعض ، وليست بأقسام حقيقية فى النفس . والعقل الفعال آخر هذه الوظائف . ولذا يسمى آخر الصور فى الإنسان . وهناك صلة بين مظاهر النفس المختلفة باعتبار الوجود ، بمعنى أن كل مظهر منها شرط فى وجود المظهر الذى يليه ، كذلك تربطها صلة إدراك ابتداء من الإحساس . وليست الصور المفارقة التى يتحدث عنها أبو الوائىد سوى العقل الهولانى والعقل المكتسب والعقل الفعال . ومعنى أنها مفارقة هو أنها مستقلة بذاتها ، وأنها مظاهر لسكان واحد .

وحيث أن فانفيا سوف القرطبي أبعد الناس عن نظرية المعرفة الإشرافية

(1) Ludwig P. 54

أو القول بوجود اتصال بين الإنسان وبين الملائكة أو الإله . وإن نظرية الاتصال الصوفي لأجدر أن تنسب إلى الفارابي وابن سينا والغزالي وابن طفيل من أن تنسب إليه . وها هي ذى الأسباب التي دعتنا إلى وجوب التفرقة بينه وبينهم في هذه المسألة .

١ - لأنه يرى أن للنفس وظيفتين عقليتين هما تجريد المعاني وقبولها أي الاحتفاظ بها ، وأن العقل الفعال لا يوجد خارجها ؛ بل هو في الحقيقة جوهرها .

٢ - لأننا لم نجد أثراً لنظرية المعرفة الإفرافية ، لافي الكتاب الذي خصصه لاتصال العقل الميولاني بالعقل الفعال ، ولا في تلخيص كتاب النفس لأرسطو .

٣ - ولأن نظرية الاتصال الصوفي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرية الفيض ، وقد أنكرها ابن رشد إنكاراً صريحاً .

٤ - ولأنه يختلف عن جميع فلاسفة الإسلام في وصف العقل المكتسب . وتفسير نشأته . فإن هذا العقل لا يتم باتصال العقل الفعال بالعقل الميولاني ، بل لا بد من وجوده قبل هذا الاتصال ، كما أنه من الضروري أن ينمحي ، حتى يستطيع المرء الوصول إلى مرتبة الحدس العقلي .

ولم يمن أبو الوليد بنظرية الاتصال إلا ليبرهن على أن النفس ليست مجرد صورة للجسم كما كان يقول أرسطو ، وإنما هي ذات عاقلة تستطيع ، في أثناء اتصالها بالبدن ، أن تتجرد عنه وعن كل المعلومات التي تأتيها عن طريقه لكي تدرك ذاتها .

وربما يبدو أن توماس الأكويني يخلط بين ابن رشد وغيره من  
الفلاسفة المسلمين . ومع ذلك فإننا نراه يتبع هذا الفيلسوف إلى حد ما .  
فهو يقول : إن النفس تستطيع أن تدرك ما تقوم به من عماليات عقلية ، غير أنها  
تعجز عن إدراك ذاتها . ويذهب بعض مؤرخي الفلسفة المسيحية إلى أنه قال  
بنظرية الحدس العقلي . وفي هذه الحال ينبغي لهؤلاء أن يعترفوا بأنه أخذها  
عن الشارح الأكبر . ومن الثابت عندنا أنه قال بنظريتين متناقضتين ،  
أي أنه سلم بوجود الحدس العقلي وأنكره في الوقت نفسه . ويرجع هذا  
التردد بطبيعة الأمر إلى حيرته بين تعريفين مختلفين للنفس ؛ فعند ما يرتضى  
تعريف أرسطو نراه ينسكح هذا الحدس ، وعند ما يتبع تعريف ابن سينا فإنه  
يسلم بإمكانه . ومع ذلك فقد فسر توماس الأكويني نظرية ابن رشد في الاتصال  
تفسيراً مغرضاً .

---

# فهرس

صفحة

المقدمة . . . . . ٣ - ٧

الفصل الأول [ من صفحة ٩ إلى صفحة ٣١ ]

## عبقرية سقراط

١ - تمهيد ٢ - ظهور سقراط ٣ - رسالته . . . . . ٩ - ٢٢  
٤ - آراؤه في النفس : ١ - لإثبات وجودها ب - خلود النفس ٢٣ - ٣١

الفصل الثاني [ من صفحة ٣٢ إلى صفحة ٦٥ ]

## أساطير أفلاطون

١ - تمهيد ٢ - طبيعة النفس . . . . . ٣٢ - ٣٦  
٣ - أسطورة إرمن أرمينوس - أسطورة العربة - أسطورة الكهف ٣٧ - ٥٠  
٤ - البرهنة على خلود النفس :  
١ - برهان الحياة والحركة . ب - برهان الضدين . ج - برهان  
التذكر . د - برهان البساطة والتركيب . هـ البرهان الخلقى ٥١ - ٦٠  
أجزاء النفس . . . . . ٦٠ - ٦٥

الفصل الثالث [ من صفحة ٦٦ إلى صفحة ١٢٣ ]

## تعريف النفس

١ - تمهيد ٢ - تعريف أرسطو ٣ - تعريف النفس لدى المسلمين ٦٦ - ٧٣

- ٤ — تعريف النفس لدى الفارابي . . . . . ٧٣ — ٧٦  
٥ — تعريف النفس لدى ابن سينا . . . . . ٧٦ — ٧٨  
١ — براهينه على وجود النفس . . . . . ٧٨ — ٨١  
١ — البرهان الطبيعي :  
ب — برهان الإدراك والأفعال الوجدانية . ٨٢ — ٨٣  
ح — برهان وحدة النفس . ٨٣ — ٨٧  
د — برهان الاستمرار ٨٧ — ٨٨  
ب — البرهنة على روحانية النفس . . . . . ٨٨ — ٩٣  
ح — طبيعة النفس . . . . . ٩٣ — ٩٧  
٦ — تعريف النفس لدى الغزالي . . . . . ٩٧ — ١٠٣

براهينه على وجود النفس : ا البرهان الشرعي .

- ب — برهان الاستمرار . ح — برهان الرجل الطائر . . . . . ١٠٣ — ١٠٥  
براهينه على روحانية النفس : برهان الإدراك العقلي . . . . . ١٠٥ — ١٠٨  
طبيعة النفس . . . . . ١٠٨ — ١١٠  
٧ — تعريف النفس لدى ابن رشد . . . . . ١١١ — ١١٩  
٨ — تعريف النفس لدى مسيحي القرون الوسطى . . . . . ١١٩ — ١٢٣

الفصل الرابع [ من صفحة ١٢٤ الى صفحة ١٤٩ ]

## وحدة النفس الإنسانية

- ١ — تمهيد ٢ — نظرية أرسطو . . . . . ١٢٤ — ١٢٨  
٣ — وحدة النفس في الفلسفة الإسلامية :  
الفارابي - ابن سينا - الغزالي . . . . . ١٢٨ — ١٣٤  
٤ — وحدة النفس لدى ابن رشد . . . . . ١٣٤ — ١٤٠

٥ — وحدة النفس لدى توماس الأكويني . . . . . ١٤٠ — ١٤٩ <sup>صفحة</sup>

الفصل الخامس [ من صفحة ١٥٠ الى صفحة ١٦٤ ]

### الصلة بين النفس والبدن

- ١ تمهيد ٢ — آراء أرسطو . . . . . ١٥٠ — ١٥٢  
٣ — آراء فلاسفة الإسلام: الفارابي - ابن سينا - الغزالي ١٥٢ — ١٥٦  
٤ — آراء ابن رشد . . . . . ١٥٧ — ١٦٠  
٥ — آراء توماس الأكويني . . . . . ١٦٠ — ١٦٤

الفصل السادس [ من صفحة ١٦٥ الى صفحة ١٩٢ ]

### خلود النفس

- ١ — تمهيد ٢ — الخلود لدى الفارابي . . . . . ١٦٨ — ١٧٢  
٣ — الخلود عند ابن سينا ا - البرهان القائم على طبيعة اتصال  
النفس بالجسد . ب - برهان البساط والتركيب . ١٦٨ — ١٧٢  
ح - البرهان الميتافيزيقي . . . . . ١٧٢ — ١٧٤  
شبهة النفس السكلية . . . . . ١٧٤ — ١٧٦  
٤ — الخلود عند الغزالي . . . . . ١٧٦ — ١٧٧

#### البرهان الشرعي

- ا — البرهان القائم على فكرة اتصال النفس بالبدن .  
ب — برهان البساطة والتركيب . . . . . ١٧٧ — ١٨٠  
٥ — الخلود لدى ابن رشد . . . . . ١٨٠ — ١٨٥  
ا — الدليل الغائي . . . . . ١٨٥ — ١٨٧  
ب — الدليل القائم على طبيعة الصلة بين النفس والجسم ١٨٨ — ١٨٩  
٦ — خلود النفس عند توماس الأكويني ، . . . . . ١٨٩ — ١٩٢

صفحة

الفصل السابع [من صفحة ١٩٣ الى صفحة ٢٥٧]

## العقل

- ١ - تمهيد ٢- آراء أرسطو ٣- آراء الاسكندر الأفروديسي ١٩٣ - ٢٠٠
- ٤ - آراء تيمستليس ٥- آراء اتباع الأفلاطونية الحديثة من المسلمين ٢٠٠-٢٠٣
- ٦ - آراء الفارابي ٧- آراء ابن سينا ٨ - آراء الغزالي ٢٠٣ - ٢٢٧
- ٩ - آراء ابن باجة ١٠- آراء ابن طفيل . . . . . ٢٢٧ - ٢٤٠
- ١١ - رأى ابن رشد . . . . . ٢٤٠ - ٢٥٠
- ١٢ - رأى توماس الأكويني . . . . . ٢٥١ - ٢٥٧

الفصل الثامن [ من صفحة ٢٥٨ الى صفحة ٢٨٥ ]

## وحدة العقل

- ١ - تمهيد ٢ - نظرية ابن رشد في وحدة العقل . . . ٢٥٨ - ٢٦٧
- ٣ - المذهب الرشدي اللاتيني ٤- موقف توماس الأكويني ٢٦٧ - ٢٨٥

الفصل التاسع [ من صفحة ٢٨٦ الى صفحة ٣١٠ ]

## نظرية ابن رشد في الاتصال

- ١ - تمهيد ٢- تشويهه و نك لنظرية الاتصال في مذهب ابن رشد ٢٨٦ - ٢٩١
- ٣ - طبيعة العقل الحيواني . . . . . ٢٩١ - ٢٩٢
- ٤ - تدرج الوظائف النفسية ٥ - تدرج الوظائف العقلية ٢٩٣ - ٣٠٠
- ٦ - حقيقة نظرية الاتصال لدى ابن رشد . . . . . ٣٠٠ - ٣٠٤
- ٧ - معرفة الإنسان لغيره أساس لمعرفته لنفسه . . . ٣٠٤ - ٣١٠
- الفهرس . . . . . ٣١١ - ٣١٤
- المراجع العربية : موجودة في هوامش الكتاب
- المراجع الأجنبية . . . . . ٣١٥ - ٣١٩

## المراجع الأجنبية

- Albert le Grand : 1 - De Intellectu et intelligibili.  
2 - De Unitate intellectus contra Averroem.  
3 - De natura et origina animae.
- Alexandre d'aiphrodisias : 1 - De Intellectu. édition, 1501  
2 - De Anima. «Bruno. Berlin. 1887 .
- Aristote : A — Ouevres :  
1 - La Métaphysique, Traduction Tricot.  
2 - Traité de l'âme.  
3 - Histoire des Animaux .
- B — Études générales :  
1 - Émile Brehier. Histoire de la philosophie  
Paris . 1938 . T. I. PP. 168 — 258  
2 - O. Hamelin. Le système d' Aristote, publié  
par Robin .  
3 - Lalo . Aristote . 1923.  
4 - Ross. Aristote. Londres. 1923.
- Asin y Palacios : 1 - Un aspect inédité de la théologie  
scolastique, dans Mélanges Mandonnet. Études d'histoire littéraire  
et doctrinale du Moyen âge. Paris,  
Vrin . 1930 T. II PP, 55 — 66.  
2 - El averrismo, teológico de Santo  
Tomas d'Aquino, Zaragoza 1904.
- G. Bastide : Le moment historique. de Socrate, Paris  
1939.
- Bergson : 1 - Introduction à la Métaphysique. Revue  
de la Métaphysique et de la Morale, 1930.  
2 - Évolutive créatrice, Paris 1926.

- 3 - Données immédiates de la conscience,  
Paris, 1940.
- 4 - Matière et mémoire .
- Boer** : The history of philosophy in Islam, Londres 1903.
- Bouygès** : 1 - Notes sur les philosophes arabes connus  
des Latins.  
2 - Koliat .  
3 - Tahafot . at . Tahafot .
- Bréhier (Émile)** : Histoire de la philosophie, 3 volumes.
- Carra de Vaux** . 1 . Avicenne, Paris 1900.  
2 . Penseurs de l' Islam, Paris 1921.  
3 . Kacidath d'Avicenne.
- Denis** : Rationalisme d'Aristote.
- Derembourg** : Notes sur les manuscrits arabes de  
Madrid
- Duhem** : Systèm de monde 1913 — 1917.
- Duocan Macdonal** : Development of the musulmsan  
theology. New . york 1903
- Forjet** : 1 . Ibn Sina, le livre des théorèmes  
et des Avertissements.  
2 . Les philosophes arabes et les  
philosophes scolostiques. Bruxelles  
1895 .
- Gauthier** : 1 - Introduction à l'étude de la philo-  
sophie musulmane.  
2 - Hayy Ibn Yakdhan. roman philo-  
sophique. d'Ibn Tofaïl, texte et  
traduction, Alger. 1900  
3 - Ibn 'Tofïal : sa vie et ses oeuvres  
Paris 1900.  
4 - Accord de la religion et la philo-  
sophie d'après Averroès - Alger  
1905.

- Geiger La participation dans la philosophie de Saint Thomas d'Aquin ( Biblioth. Thomiste, 13 ) Paris Vrin 1943.
- Gilson : 1 - Réalisme thomiste et critique de la connaissance. Paris. Vrin .1936 .  
 2 - Le Thomisme, Paris 1942 .  
 3 - Esprit de le philosophie médiévale. Paris 1942 .  
 4 - La controverse Saint thomas - Saint Augustin, archives doctrinales et littéraires du Moyen âge, 1926 - 1927  
 5 - Réflexion sur la controverse Saint Thomas - Saint Augustin. Mélanges Mandonnet. L. I. P P 371 - 393 .
- Gorce : 1 - La lutte ( contra gentiles à Paris Mél. Mandaonnet, T.1 P P, 222\_243 .  
 2 - Essor de la Pensée au Moyen âge.  
 3 - Albert le Grand et Saint Thomas Paris, 1923 .
- Gosselin : 1 - Sur les relations de l'âme et du corps d'après Avicenne. Mélanges Mandonnet, T,II Paris Vrin' 1930  
 2 - Théorie thomiste de la Vérité - Rev de Sciences Philosophiques et théologiques, 1921. T. 10 P P . 222 - 234 .
- Hurat . Le Rationalisme musulman au 4 ème siècle de l'hégire.
- Jourdain : La philosophie de Saint Thomas d'Aquin.
- Ludwig (H) Averroès, Abhandlung über die Mngli chkeit der congunktion. 1892.
- Mandonnet : Siger de Brabant et l'Averroïsme latin

- Mansovo** : Guglielmo d'Auvergne e l'universite di Parigi dal 1226 ai 1231, Relazione comunicazione presentate al VII congresso nazionale di filosofia. Milan 1929.
- Mehren** : Étude sur la philosophie d'Averroès concernant ses rapports avec celle d'Avicenne, et de Gazali  
Philosophie und theologie von Averroès
- Munk** : 1 - Mélanges de philosophie juive et arabe, Paris 1927.  
: 2 - Guide des Égarés, Paris, 1861-1866 - 1866.
- O'Leary** : Arabic thought and its place in History.
- Platon** 1 - Alcibiade.  
    ▲ Apologie de Socrate.  
3 - Criton.  
4 - Les lois.  
5 - Phèdre.  
6 - Phédon.  
7 - Le Politique.  
8 - La République
- Renan** - Averroès et L'Averroïsme. Je édition.
- Renouvier** - Histoire et solution des problèmes métaphysiques.
- Rougier** - La scolastique et le thomisme, Paris 1925.
- Saint Thomas d'Aquin** : 1 - La « Summa theologiaica ».  
    2 - La « Summa contra gentiles »  
3 - De Unitate intellectus  
4 - De Substantiis separatis  
5 - De ente et essentia.  
6 - De Causis

7 \_ Spirit \_Creat

8 \_ De veritate.

6 \_ De potentia.

Sertillanges : La philosophie de Saint Thomas d. Aquin.

Synare : La révélation des vérités divines naturelles  
d'après Saint Thomas. Mélanges Mandonnet

T. I P P. 327\_370.

Webert: 1\_ Essai de la métaphysique thomiste, Paris' 1927

8 \_ Reflexio, Mandonnet T. I. P P. 285.\_ 325.

## كتب للؤلف

### ( ١ ) المنطق الحديث ومناهج البحث

الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة ١٩٥٧

الناشر مكتبة الأنجلو المصرية

### ( ٢ ) في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام

الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة ١٩٦٣

الناشر مكتبة الأنجلو المصرية

### ( ٣ ) الفيلسوف المقترى عليه - ابن رشد

### ( ٤ ) مناهج الأدلة لابن رشد

### ( ٥ ) قواعد المنهج في علم الاجتماع

مترجم بتكليف من وزارة التربية والتعليم

الناشر مكتبة النهضة المصرية

### ( ٦ ) مقدمة في علم النفس الاجتماعي

لشارل بلوندل ترجم بالاشتراك مع المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم سلامة

الناشر مكتبة الأنجلو المصرية

### ( ٧ ) مبادئ علم الاجتماع الديني لروجيه باستيد

الناشر مكتبة الأنجلو المصرية

### ( ٨ ) فلسفة أوجيست كونت

ليني برييل - ترجم بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور السيد محمد بدوي

الناشر مكتبة الأنجلو المصرية

### ( ٩ ) التربية الوظيفية لكلا باويد

ترجم بتكليف من وزارة التربية والتعليم

الناشر مكتبة الأنجلو المصرية

### ( ١٠ ) الأخلاق وعلم المواد الأخلاقية

ليني برييل ترجم بتكليف من وزارة التربية والتعليم

الناشر مصطفى البابي الحلبي

وله بالإنجليزية :

(1) La Théorie de la connaissance d' Averroès et son interprétation  
chez St Thomas d' Aquin .

(2) Les dogmes religieux chez Averroès .





**0390749**